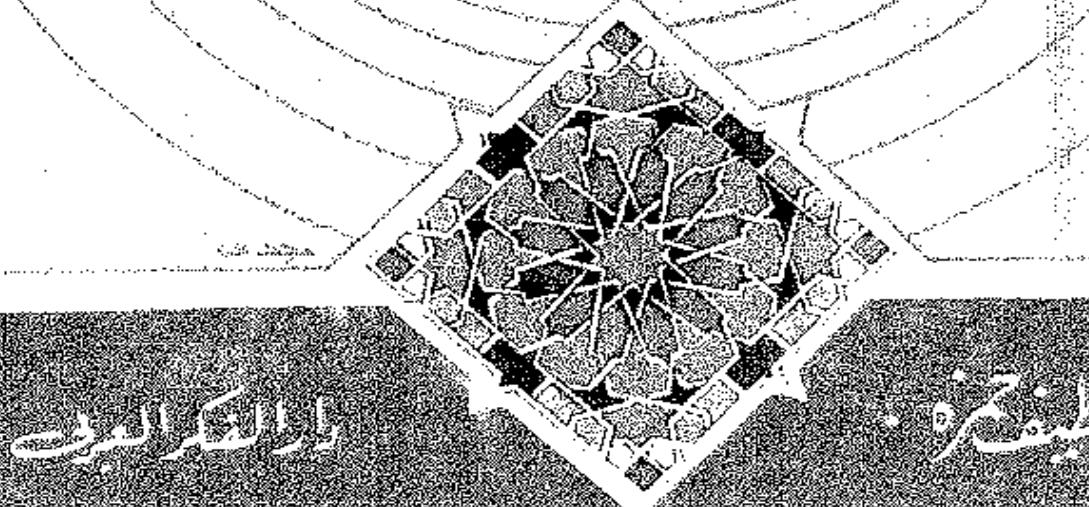
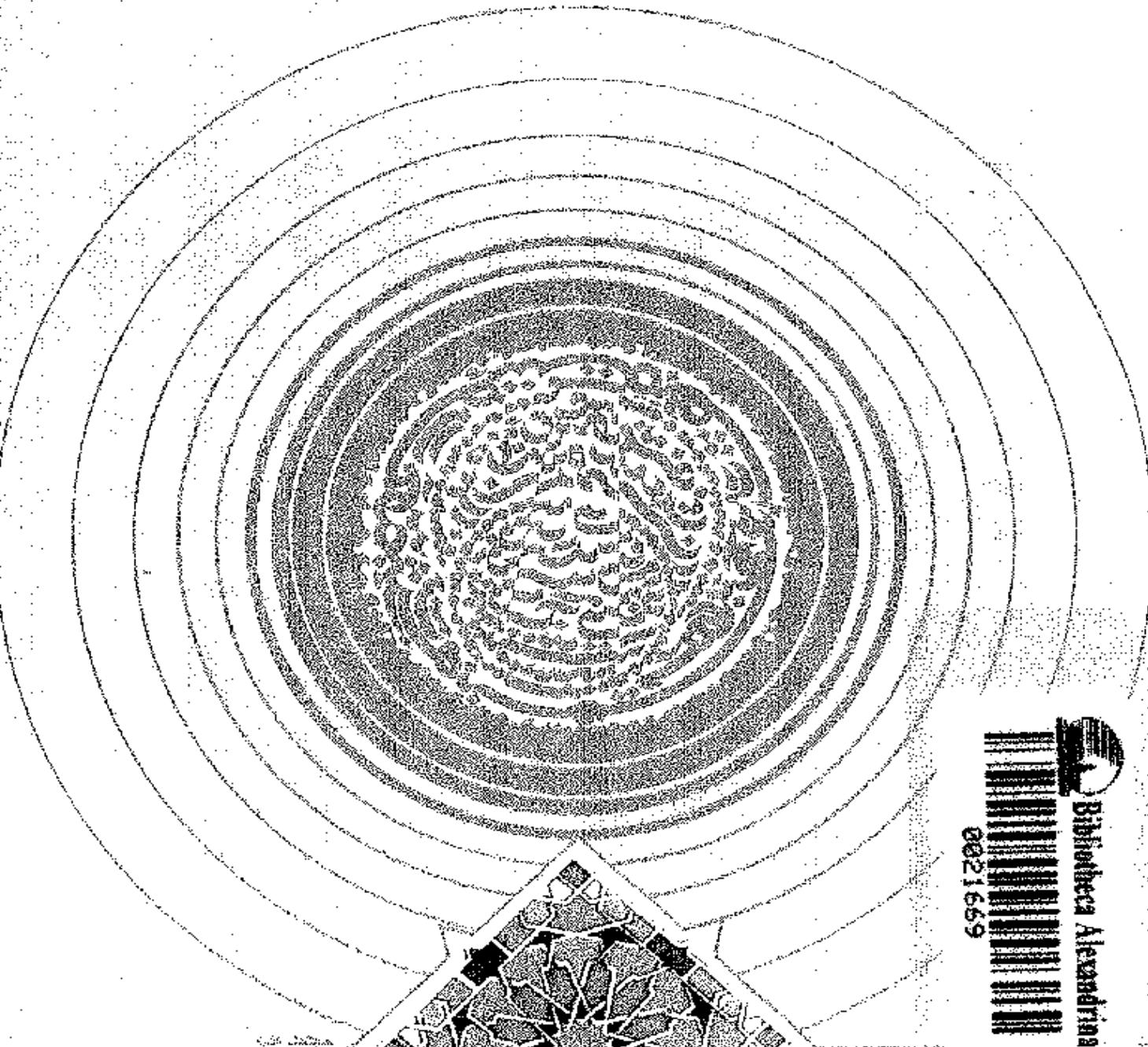


الكتاب المفقود

في صدر الإسلام



الدكتور عبد الباطن فتحي
دار النكارة للطباعة والتوزيع

الاعلام في صدر الاسلام

الدكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
 بكلية الآداب بجامعة القاهرة (سبها)

مطبخ الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الشارع جمادى منى - القاهرة

ص ٢٠ - ت ١٣٠ - ٢٢٥٥٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدير

بقلم الدكتور عبد العليم محمود

الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد خاتم
الرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فمن حق الإنصاف علينا أن نؤمن أن كتاب « الإعلام في صدر الإسلام »
له الريادة في هذا المجال من مجالات الدراسات الإعلامية .

فلم نعرف من قبل أن يباحثا من الباحثين السابقين تناول موضوع :
« الإعلام الإسلامي » بالدراسات المستقلة والمنهجية .

كذلك في ثقافتنا المعاصرة لم يقدم باحث قبل الدكتور « عبد العليم
حمزه » على هذا اللون من الدراسة ، بل لم يلتقط إليه مثقف :
وذلك بادرة ذكية من الأستاذ المؤلف تعرف له وتقدير ، وتأخذ بيده
في ثقه وحفاوة إلى مركز الريادة في مجال هذه الدراسة .

وعلى الرغم من أن السيد المؤلف على صلة وثيق بالدراسات الإسلامية
إذ شارك فيها بأكثر من عشرين كتاباً أسمى بها في تصور المكتبة الإسلامية
فقد أبى عليه خصمه البقظ وإحساسه بالتبعية العلمية وأمانتها إلا أن يصارح
قارئه بخواجه نفسه عندما اعتبر معالجة هذا الموضوع الرائد فقال في هذه
المصارحة :

« إنني أقدمت على هذا البحث بشيء غير قليل من التردد والخوف ،
فما السبب في ذلك ؟ وأجاب السيد الدكتور على السؤال الذي طرحته بقوله :
وإن الذي يبحث في تاريخ الإعلام في الإسلام لا بد أن تكون له أصلية .

حقيقية في الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ، والمذاهب الإسلامية ،
ولابد أن تكون في نفسه أصالة حقيقية في عام الاتصال الذي يشتمل على
فنون كثيرة من أهاها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة . وفن الدعاية بأشكالها
المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإسحاطة الكاملة بهاتين الثقافتين في دقة
وعمق معًا . وهذا موقف للمؤلف له دلالته .

تلك هي أن التصدى لعمل علمي لابد أن يسكنون على مستوى هذا
العمل معرفة واستيعاباً ، ومن قبل ذلك ومن بعده استعداداً ذاتياً ،
وذلك حضر صادق في نطاق التحرير النفسي للباحث — أى باحث —
حتى يستشعر التبعية الملقاة على عاتقه ، وهي لاشك جد مهظة .

ومن ناحية أخرى ينحو به إلى تواضع العلماء حتى لا يجمع به الغرور
إلى كبوات لا مأمن منها مع تلك الظاهرة الخطيرة التي تلم بكثير من المثقفين ،
وقد استشعر السيد المؤلف عبء التبعية فأقدم في تواضع المدارسين الأصلاء
على هذا الموضوع البكر إقدام العالم الباحث متوكلاً أخيراً ثلاثة كلها
هادفة وشرفة . والأهداف الثلاثة هي :

الأول أن هذا الاتجاه الجديد في بحوث الاتصال والإعلام الإسلامي
سيغير الباحثين بالدخول في هذا الميدان ، وولوج شباب بحوثه على طول
الطريق من أول أيام الإسلام حتى عصرنا الذي نعيشه .

الثاني : الدفاع عن كرامة المؤلفين المسلمين الذين لا يليق بهم أن يظلون
في موضع التبعية للمؤلفين الأجانب ، فلا ينبغي الانتظار حتى يأتي أجنبي
ويؤلف في النواحي التي لم يرث فيها بعد من الثقافة الإسلامية كناحية الدعاية
والإعلام في الإسلام ، وبهذا تغلب على مؤامرة الصمت التي ترتكب ضد
الثقافة الإسلامية .

الثالث : لفت شبابنا المعاصر إلى ثقافتنا الإسلامية ، إذ جهورتهم منصرف
إلى التراث الأجنبي مفتون به . ويعرف عنه أكثر مما يعرف عن التراث
الإسلامي . بل أصبح شباب هذا الجيل يفاخر بعضهم بعضًا بهاته الظاهرة التي

تمثل مركب نقص في الشباب يجرب على الفاقهين من أبناء هذا الجيل تفاصيل
الشباب من عقابيه .

وذلك حامد للسيد المؤلف تذكر بالعرفان ، وتقابل بما هي أهل له من
الشكران ، وقد اختار السيد المؤلف أقوم منهج وأعدله في الدراسة .

ذلك هو تتبع أحداث التاريخ في مسيرة وتحليل معطيات تلك الأحداث ،
واستخلاص النتائج من الشوائب التي قد تلتوي بالدارس عن الطريق الموصى .

وكانت الدقة طابع التعبير في رحلة الكتاب ، إذ حدد المفاهيم تحديداً
تقيناً يحسن القارئ ويبتعد به عن الخلط ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

التفرقة بين الدعوة والإعلام والدعائية ، وتحديد المقصود بكل واحدة
من هذه الثلاثة مما يجده القارئ موضحاً في مواطنه من الكتاب ، وقد
أبرز السيد المؤلف أنَّ عمل النبي ﷺ كان دعوة من الله أمر بتبيينها إلى
الناس كافة ،

وإذا كانت كلمة «ثورة» قد وصف بها الإسلام في الكتاب فإنه من
ال الطبيعي ألا يقصد منها المعنى المبادر والشائع من أنها ظاهرة ذاتية لفرد من
الأفراد انفعالاً خاصاً بواقع يعيشه في المجتمع ما أدى به إلى حل تبعة
التغيير ، وإنما المقصود بالكلمة هدفها وغايتها وهو التغيير وتعديل الأوضاع
على النحو المستقيم .

ولم يترك المؤلف ثغرة ينفذ منها متربيص بالإسلام عندما تناول
«الجهاد» كوسيلة من وسائل الإعلام ، إذ حدد مفهوم الجهاد في الإسلام ، وبين
أنه ليس مقصداً إلى التوسيع والسيطرة ابتناء النفع ، وإنما كان لرد العدوان
وتأمين الدعوة ، ومحنتهها من مكان الدس والغدر والتربص والتحرش في الداخل
والخارج .

وقد أوضح السيد المؤلف الفوائل بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء ،
وبيّن أن الأولى تعتمد على الصدق والشرف ، والأخرى تبيح لنفسها السكك
والتحريف والاختلاق ، وركز على أن القدوة الحسنة وسيلة من وسائل

الإعلام تغنى بذلك عن جهود كثيرة تبذل في سبيل الإعلام ، وقدم نماذج
تحية للقدوة الصالحة من سيرة الرسول الكريم. وكثير من رواد الصحابة
عليهم رضوان الله تبارك وتعالى .

ونحن مع السيد المؤلف في الارتفاع بموسم الحج كمجال لا ينبع
إسلامي في مستويات متعددة تجتمع كلها من القمة إلى القاعدة في انسجام
متين ، للتأثير والمحشد لما فيه خير الإسلام والمسلمين ، ولعل الأمل في الاستجابة
لتحفظ من آلام السيد المؤلف التي أحس بها والتي أشاركه الإحساس بمعاناتها ،
والتي بقيت رواستها في نفسه منذ أيامه فريضة الحج عام ١٩٦٨ ،

ومن اللمحات البارعة في الكتاب استبطانه حادث الهجرة في جميع
جوانبه وزواياها ، وإبراز الحركة الإعلامية فيه ودراساته للأذان في الإسلام
و واستخراج لون من الفنون الإعلامية فيه سواء من جهة دلالته أو
من جهة تركيبه اللغطي ، وتناوله صاحب « الحديبية » ، وكيف كانت حركات
الممسم التي أسفرت عنها بعض شروطه أثر إعلامي في نشر الدعوة ، وكيف كان
الفاروق عمر رضي الله عنه يستعمل أحدث أساليب قياس الرأي العام وغير
ذلك كثير في ثنايا هذا الكتاب الرائد ،

ور بما تطرق إلى الفهم العجلان ما يربّ في مواقف بعض الصحابة في
بعض الأحداث ، لذا ندعو القارئ إلى التأني في القراءة ، وفي تناوله
الأحداث السياسية التي ألمت بال المسلمين ، منذ عهد الخليفة الثالث رضوان
الله عليهم أجمعين ، ونحن لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكننا
ننبه على أمر قد يغيب عن بعض القراء ،

ذلك أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه كما قال القاضي
أبو بكر بن العربي : كان عند الظن به ، ما خالف عهدا ، ولا نكث
عهدا ، ولا اقتحم مس克روها ولا خالف سنة (١) وقد كان النبي ﷺ قد
أخبر بأن عمر شهيد ، وبأن عثمان شهيد على يأوى تصريحه .

(١) العواسم من القواسم لابن عرب تحقيق الأستاذ محب الدين المطهبي من ٦٢ — ٥٥

وقد أورد ابن العربي رحمه الله جميع ما وجهه إلى الخليفة الثالث عثمان
ابن عثمان رضي الله عنه من مأخذ وأثر على جميعها نقداً موضوعياً بالحججة
والبرهان ٤

وكانت أصابع الفتن والسكيد للإسلام والحقيقة من أعدائه هي محرك
الأحداث في نشأتها ومسارها وتواليها ٥

وبعد : فإن السيد المؤلف رحمه الله جدير بالتقدير ، وبحسبه أنه بحق
رائد هذا المجال الذي لم ينفرد إليه من قبله فذكر ٦

وأقول متناسقاً مع المؤلف : إذا كان لي أن أقترح شيئاً على الجامعات
والمعاهد ومراسك البحوث في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي فإني
أقترح أن تتألف لجنة علمية لقيام بمشروع «التاريخ للدعابة والإعلام في
الإسلام» ٧

وأضيف إلى هذا ترقية التاريخ تنقية يمكن معها تمحية كل مزور ،
وليعاد كل ما ليس له من الصحة حتى تكون لدينا دخيرة إعلامية
متغيرة الأبعاد تستقبل ما تقدم به الأيام والأجيال من متغير الأسباب ٨

والحمد لله الذي تم بنعمته الصالحات ، وجزى الله السيد المؤلف
أطيب الجزاء وأجزله . ونفع بما قدم للمكتبة الإسلامية من جهود ووفقة ،
بورحه رحمة واسعة .

لله جميع محبب ٩ . . .

والحمد لله رب العالمين .

دكتور

عبد الحليم محمود

اللَاهُرُكُ

إلى أجمعية الأزهرية العظيمة وقد
بدأت تتجه عنايتها إلى دراسة
الإعلام والدعائية، وذلك فيما
عنيت به من الدراسات المعاصرة
.. أقدم هذا الكتاب

عبداللطيف حمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تحدث التاريخ عن الإسلام من زوايا كثيرة : منها الزاوية الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والإدارية ، ومنها الرواية العلمية ، الثقافية ، والفلسفية ، والمذهبية ، ومنها الرواية الخلقية ، والفنية ، وال-literary 。

كما كتب الكثير عن تاريخ الأدب الإسلامي نفسه ، وبذلك أصبحت الثقافة الإسلامية من أوسع الثقافات التي عرفتها البشرية منذ ظهور الإسلام إلى اليوم ،

ولتكن بقية من هذه الروايات المتعددة زاوية واحدة هي زاوية الإعلام أو الاتصال بالناس .

ولم يكن ذلك تهسبراً من القدما بوجه من الوجوه إذ أن علم الاتصال علم حديث كل الحداثة ، وإن كان الاتصال في ذاته قد يبدأ كل القدم ، فقد مارسه جميع البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض ، ومنذ احتاج بعضهم إلى الاتصال ببعض ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

والآن وقد أصبح الاتصال علمًا من العلوم الحديثة المعروفة لم يبق هناك عنر للعلماء المحدثين إذا هم قصروا في البحث عن الأديان - ومنها الإسلام - وذلك من الناحية الإعلامية ، أو من ناحية الدعاية ، وهاتان الناحيتان هنا جانب من جوانب الاتصال .

وهذا وحده في الواقع هو ما حفزنا إلى التفكير في وضع الكتاب
بين يدي القارئ .

غير أنني أريد أن أقول لهذا القارئ كلمة صريحة تليق من ضميري
العلمي ، أو شعوري بمسؤوليتي عن هذا البحث .
هذه الكلمة هي أنني أقدمت على هذا البحث بشيء غير قليل من
التردد والخوف ، فما السبب في ذلك ؟ .

إن الذي يبحث في تاريخ الإعلام في الإسلام لا بد أن تكون له
أصالة حقيقية في الثقافة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي ، والماهبة
الإسلامية ، ولا بد أن تكون في نفسه أصالة حقيقية في علم الاتصال الذي
يشتمل على فنون كثيرة ، من أهمها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة ،
وفن الدعاية باشكالها المختلفة ، وأين من يدعي لنفسه الإحاطة الكاملة
بهاتين الثقافتين السابقتين في دقة وعمق معًا ؟
ثم عدت أسائل نفسي هذا السؤال :

هل أستطيع أن أفر من هذا الميدان - ميدان البحث في تاريخ الإعلام
في الإسلام - وقد مضت لتجربة طويلة إلى الآن في كل من الثقافة
الإسلامية والثقافة الإعلامية ؟ .

وسرعان ما أجبت عن هذا السؤال الأخير بالتفى :

فإنني أذكر - وليس ذلك تزكية لنفسي ، ولكن ب恩عم الله أحدثت أنني
شاركت في الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما وضعت في الثقافة
الصحفية والإعلامية ما لا يقل عن أربعين بحثاً .

ومعنى ذلك أنه ليس من حق بعد ذلك أن أتخلى عن هذا الميدان ،
ميدان البحث في تاريخ الإعلام في الإسلام ، بل يجب على أن أدل بدلوي
وأضرب ضربتي الأولى في هذه الأرض البكر .

ولأنني لعلني يقين تام بأن هذا الاتجاه الجديد في بحوث الاتصال في

الإسلام سيغرس الكثرين من الباحثين بالدخول في هذا الميدان ، وبذلك يعرض لنا الباحثون صوراً جديدة من التاريخ الإسلامي ، وزوايا جديدة من هذا التاريخ كانت مجهولة كل الجهل من جهور المثقفين قبل اليوم .

وكم من كنوز سيقع عليها الباحثون في هذه المنطقة من مناطق البحث عندما يتحدثون عن الدعاية الأموية ، والدعاية العباسية ، والدعاية المذهبية ، والدعاية الفاطمية ؛ وكم من كنوز سيقعون عليها عندما يتحدثون بنوع خاص عن دعاية الشيعة ، ودعاية القرامطة والدعاية في عهد الحروب الصليبية ، وذلك حتى يصلوا في بحوثهم إلى الدعاية في حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

* * *

شيء آخر دعائى إلى ترك الخوف والتردد في اقتحام هذا الميدان — ميدان البحث في تاريخ الإعلام في الإسلام — هو الدفاع عن كرامة المؤلفين العرب الذين لا يليق بهم أن يظلو تابعين للمؤلفين من غير العرب ، أو يظلوا مكتوف الأيدي حتى يأتى علماء أوروبا فيولفوا لهم في النواحي التي لم يؤلف فيها بعد من نواحي الثقافة الإسلامية كناحية الدعاية الإعلامية في الإسلام .

وبهذا وحده تغلب على مؤامرة الصمت التي ترتكب ضد الثقافة الإسلامية من جانب علماء أوروبا وأمريكا ، وذلك في النصف الثاني من القرن العشرين على وجه التحديد كما صرخ بذلك المؤرخ الفرنسي جارودي ^(١) ،

* * *

وثالث الدوافع التي حفزتني على تقديم هذا الكتاب إلى القراء ، هو ما نعلمه عن أكثر شباب الجيل الحاضر أنهم أصبحوا يعرفون عن التراث

(١) جريدة الأهرام : المد الصادر بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٦٩ في خاصرة ألقابها في موضعه الحضارة العربية وأثرها في الثقافة العالمية .

الأوروبي أكثر مما يعرفون عن التراث الإسلامي ، بل أصبح شباب هذا الجيل يفخر بعضهم بعضاً بهذه الصفة ،

وكان الأولى بهم أن يتسلّموا بآباءِهم وأجدادِهم من العصر العباسي ، وهم الذين جسعوا إلى الثقافة العربية كلّا من الثقافتين اليونانية والفارسية ، وصهروا هذه الثقافات الثلاث في بوتقة واحدة سُرّج منها ما يسمى « بالثقافة الإسلامية » التي تتألّف من العنصر العربي ، والعنصر الفارسي ، والعنصر اليوناني ، أما اكتفاء الجيل الحاضر « بالثقافة الأوروبية » وتفاخرهم بتجاهل الثقافة الإسلامية ، فقد كان جائزًا في عهود الاستعمار ، أما في العهد الذي بدأ في الشخصية العربية تتميّز بين الشخصيات ، فلا ، ثم لا ،

ولقد كان الإسلام في ذاته ثورة ، كما كانت المسيحية في ذاتها ثورة ، وكانت اليهودية ثورة ، وكان لا بد أن تعتمد هذه الثورات على كثير من وسائل الإعلام أو الاتصال حتى تنجح وتحقق الغرض الذي جاءت من أجله ، ومن ثم أصبحت دراسة الاتصال بأنواعه التي من أهمها الدعاية والإعلام واجبة على جميع معاهد الإعلام في العصر الذي نعيش فيه ، وهي أشد وجوباً — فيها نرى — للجامعات التي تعنى بالدراسات الدينية أو المعاهد التي تشغل بإعداد المبشرين الدينيين وتحريج الدعاة .

أثر عن بعض البابوات المحدثين أنه قال :

لو بعث المسيح من جديد لاختار لنفسه أن يكون صحفيًا ، وهذا قول ينطبق على الأنبياء جميعهم على السواء .

فإن النبي إذا يعثه الله في أمّة من الأمم وجب عليه أن يختار من وسائل الإعلام والإرشاد والاتصال بالناس أنجح هذه الوسائل في العصر الذي ظهر فيه .

وقد كانت الوسيلة الإعلامية سحراً في عهد موسى ، وكانت طبأ في عهد عيسى ، وكانت قرآنًا في عهد خاتم النبيين محمد صلوات الله عليه .

أليس معنى ذلك أن الإسلام دين إعلامي لأنه اعتمد على القرآن .. والقرآن آية الله تعالى في البلاغة ، وفي التأثير في نفوس البشر إلى الدرجة التي سجد لها العرب ، وإذا كان القرآن هو أكبر وسائل الإعلام في الإسلام فلماذا لأنسانيه دينًا إعلاميًا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؟

ثم إن وسائل الإعلام في ذاتها نوعان : نوع قديم وآخر حديث ، والنوع الأول منها فطري من صنع البشر ، كالخطابة والشعر والندوة والسوق ، والنوع الثاني منها صناعي من اختراع العلم كالصحف والراديو والتلفزيون ووكالات الأنباء والسينما ونحو ذلك .. وكل وسيلة من هذه الوسائل الحديثة من وحي العلم ووليدة الابخراج ولا ندري ماذا سيحدث منها فيما بعد ، وبها تيسير الاتصال بين الناس ، وقد كثُر عددهم في كل بقعة منها ، ولم يعد في وسعهم أن يتصل بعضهم ببعض عن طريق الخطابة فقط أو القصيدة فقط ، أو السوق فقط أو الندوة فقط وهكذا ، لأن أحدًا من الناس لا يستطيع أن يجمع الملايين في مكان واحد ليخاطبهم في موضوع معين ، كما كان الحكام أو القادة يقدرون على شيء من ذلك في الأزمنة القديمة ، وإنما أصبحت الوسيلة الوحيدة في العصور الحديثة لهذا الاتصال هي الصحف أو الإذاعة أو وكالة الأنباء وما شاكل ذلك ، وهذا أصبحت عملية الاتصال في ذاتها في العصر الذي نعيش فيه عملية مصطنعة تفقد كثيراً من قيمتها وإن لم يكن في استطاعة أى مجتمع من المجتمعات أن يستغني عنها ، بينما الوسائل القديمة كانت لها قدرة أكيدة وعجيبة على التأثير في الأفراد والجماهير بالقدر الذي لا يمكن أن تعلم به وسيلة من وسائل الاتصال الحديث كالصحافة والإذاعة ونحوها .

هذا الكتاب

وهذا الكتاب الذي بين أيدي القراء مؤلف من ثلاثة أبواب :

الأول : يتحدث عن وسائل الإعلام التي عرفها العرب في الجاهلية والإسلام ، فاما الجاهلية فقد عرف عنها وسيلة التجارة الخارجية ، والتجار العرب كغيرهم من تجار الأمم الأخرى كانوا يستغلون بنقل الأخبار من مكان إلى مكان ، وكانوا يشغلوه بنقل الثقافة أيضا . كما كان من الوسائل الإعلامية في الجاهلية وسيلة للبعثات الدينية كاليهودية والنصرانية ، وقد كان لها أثر كبير في الإعلام العربي والثقافة العربية في الجاهلية ، هذا كله في خارج جزيرة العرب ، وأما في داخل شبه الجزيرة فقد مارس العرب شئ الوسائل المعروفة في البيئات القديمة ، ومن أهمها القصيدة الشعرية ، والخطبة والخطباء ، والنداء والمنادون والأعياد ، والأسواق والندوات وغير ذلك .

وجاء الإسلام فاستحدث صوراً جديدة في مجال الإعلام والاتصال بالناس ، ومن أوضح هذه الصور القرآن النكريم الذي هو أكبر وسائل الإعلام في الإسلام ، ثم الحديث الشريف ، وقد اعتمدت عليه جميع العصور الإسلامية من الناحية الدعائية ، وكانت القدوة الحسنة من جانب الرسول وكبار الصحابة من أكبر العوامل في نشر الدين الجديد ، وقد اعتمد الرسول طرقه إلى جانب ذلك على وسيلة معروفة في علم الاتصال أو الإعلام ، وهي وسيلة الاتصال بنوعيه الشخصي والجمعي ، والنوع الأخير يتمثل بوجه خاص في مجال الإعلام والدعائية ، ومع هذه الدوائر الإعلامية كلها كانت ذريعة القصص غير القرآني ، وقد بدأت في الظهور أيام الخلفاء الراشدين ، ثم اعتمدت عليها الخليفة الإسلامي بعد ذلك من الخليفة الأموي الأول معاوية ابن أبي سفيان . ويضاف إلى هذه الميادين الإسلامية كلها ميدان الحج ،

وقد كانت مواسم الحجج ميداناً كبيراً للإعلام والدعابة، وقد أفاد الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه من هذه المواسم في نشر العقيدة الإسلامية .

وباختصار جاء الباب الأول من أبواب هذا الكتاب عرضاً شاملـاً للوسائل الإعلامية التي عرفها العرب في الجاهلية، والوسائل الإعلامية التي احتاج إليها الإسلام :

ثم في الباب الثاني من أبواب الكتاب وعنوانه (الدعوة في عهد الرسول) أتينا بكلمة تمهيدية للتفرقة بين الدعوة والإعلام والدعائية .

أما الدعوة فاسم عرفت به جميع الجهود التي بذلها الرسول في سبيل الرسالة التي بعثه الله من أجلها ، وقد ثمنت هذه الجهود جميع الوسائل الإعلامية التي ظهرت في الإسلام .

وأما الإعلام فاسم يسمى الجهود التي يبذلها الخلفاء الراشدون وكانوا فيها صورة دقيقة من الرسول نفسه وذلك في العقيدة ذاتها.

وأما الدعاية فهي الجهود التي يبذلها الحكام المسلمين وأقاموا عليها حكم ما هم بذلك من حكم معاوية بن أبي سفيان إلى وقتنا هذا . وبعد هذا التهديد شرح الكتاب مراحل الدعوة الإسلامية وهي المرحلة السرية ، والمرحلة العلنية ومرحلة الأضحى هاد الدينى ، ومرحلة الهجرة ، ومرحلة الاستقرار بالمدينة . ووقف البحث عند كل مرحلة من هذه المراحل ، واستعرض الطرق الإعلامية التي سلكها الرسول في كل مرحلة منها .

وبنوع خاص في المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة الاستقرار بالمدينة ، وفيها اتسعت مجالات الإعلام وعظم نشاط النبي ﷺ في هذه المجالات وتمددت صوره وأشكاله ، وجنى المسلمين ثمرة هذا النشاط في كل صوره ، وفي نهايتها نزل قول الله تعالى : «اليوم أكمت لسكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا»

وفي الباب الثالث والأخير من أبواب هذا الكتاب حديث عن الإعلام في عهد الخلفاء الراشدين وذلك في فصول أربعة : فصل في الإعلام على (م ٢ الإعلام في صدر الإسلام)

عهد أبي بكر ، وفصل في الإعلام على عهد عمر ، وفصل في الدعاية والإعلام على عهد عثمان ، وفصل في الإعلام على عهد علي . وانتهى البحث عند هذا الحد .

اقتراح :

(وبعد) فإذا كان لي أن أقترح شيئاً على الجامعات والمعاهد ومرايا كل البحث في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي ، فإني أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم ، وأعني به مشروع :

التاريخ للدعاية والإعلام في الإسلام

وطلبه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً عصراً ، أو فكره فكره ، أو منهاجاً مدهباً ، في النهاية ستحصل المسكتة العربية على مجموعات غنية من الكتب الإعلامية الإسلامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رايد من الروايد التي تصب في نهر الإعلام :

نعم — ألح في العناية بهذا المشروع الجلل لأمرير :

أولاً : أنني لا أستطيع بفردي أن أقوم بجمع الحلقات التي تتألف منها هذه السلسلة .

ثانياً : أنني لم أقل غير الكلمة الأولى فقط من هذه الحلقة الأولى يعني أن موضوع (الدعاية والإعلام في صدر الإسلام) مازال مفتوحاً أمام الباحثين لأنني لم أقل فيه الكلمة النهاية .



وبعد : فإني أقدم الشكر لجميع من تفضلوا بمعاونتي في هذا البحث ولو برأيهم الرأي .

فأشكر صديقي وزميلي الدكتور : إبراهيم إمام أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة .

وأشكر الشاب العراقي الأستاذ عناد الكبيسي فقد سجّلني بعض

النصوص التي احتاج إليها البحث . وأشكر موظفي المكتبة التابعة لجامعة
أم درمان الإسلامية ، فقد يسرت لي الحصول على بعض المراجع القدمة
والحدثية منذ كلفتني هذه الجامعة بإلقاء بعض المحاضرات في موضوع الدعوة
الإسلامية وأساليب نجاحها .

ثم أشكر — مقدماً — جميع الذين يتعرضون لنقد هذا الكتاب من جميع
جوانبه . وأنا أشد الناس حاجة إلى هذا النقد .

والله أسأل أن ينفع بهذا جميع المثقفين في العالم العربي والراغبين في
إنصاف الثقافة الإسلامية من رجال العلم في كل بقعة من بقاع الأرض .

مصر الجديدة في فبراير ١٩٧٠ عبد اللطيف حمزة

صَوْرُ الاتِّصالِ وَالْإِعْلَامِ
عِنْدَ الْعَرَبِ فِي اِيجَاهَلِيَّةِ وَصَدَرِ الْاِبْلَامِ

الفصل الأول

الاتصال بالجماهير

بعض صوره في الجماهيرية

تحتفل المجتمعات القديمة عن الحدائق في نواح شتى : أهمها ناحية الاعلام والاتصال بالجماهير. ذلك أن المجتمعات القديمة كانت ضيقية بالقياس إلى المجتمعات الحدائق ، وفي البيئات الضيقية من حيث المساحة والعدد يسهل اتصال الأفراد بعضهم ببعض .

ونستطيع أن ندرك هذه الحقيقة بخلاف حين نوازن — من هذه الناحية — بين القرية من جهة والمدينة أو العاصمة الكبيرة من جهة ثانية ، ذلك أن التفاهم بين الأفراد في القرية أيسر بكثير من التفاهم بينهم في العاصمة أو المدينة المزدحمة بالسكان .

ومعنى هذا أن قلة العدد في أي بيئة أو مجتمع مما يسمى بحرية المناقشة وإبداء الرأي . أما كثافة السكان في البيئة أو المجتمع فإنها تعيق هذه الحرية وتحمّل الأفراد في الأمة الواحدة أثقله بالقطيع الذي لا حيلة له إلا الخضوع للرأى . ونکاد لا نستثنى من هذه القاعدة غير بيئة مكة والمدينة في صدر الإسلام ، وبيئة أثينا في بعض عصور التاريخ القديم . ومع هذا وذلك فإن المجتمعات القديمة كانت — كما يحدث التاريخ — لا تحفل كثيراً بما يسمى (بالرأى العام) .

أما المجتمعات الحديثة فلها عنابة بهذا الرأى ، ومن ثم وجدنا فيلسوفاً كباراً كأفلاطون يجرد الرأى العام للجماهير من كل قيمة . ومن أقوال فلاسفة اليونان ، في ذلك ، أن الأمة إذا اتسعت اتساعاً كبيراً لا تقوى على الحافظة على حريتها . والسبب في ذلك أنه لابد أن يجتمع الناس كلهم في ساحة واحدة لكي يستمعوا إلى أقوال الزعماء والقادة . ويدون ذلك

لا يستطيع الشعب الاطلاع على أحوال الحكم — أو بعبارة أخرى — لا يستطيع
تابع أعمال الحكومة^(١) .

من أجل هذالم يكن التاريخ يعطينا الدلائل الكافية على وجود رأى عام
يعنده الصحيح في البيات القديمة، وذلك باستثناء مكة والمدينة وألينا. بل إن
التاريخ أمننا بالشواهد الكثيرة على وجود رأى واحد فقط هو رأى الحكم،
والذى ينظر إليه في بعض تلك البيات القديمة على أنه ظل الله في الأرض،
ولا معقب لحكمه، ويأمر ولا راد لأوامره^(٢) .

مهما يكن من شئ فقد كان للإعلام والاتصال بالجماهير ميادين
كثيرة في البيات القديمة. غير أن تلك الميادين الإعلامية القديمة كانت
تختلف في صورتها عن الميادين الحديثة.

فنحن نعرف أن الاتصال بالجماهير في هذه الصور الحديثة يشمل
ميادين كثيرة من أهمها: الإعلام والدعاية والإعلان والعلاقات العامة والتعليم
والحرب النفسية .. إلخ. ونفس هذه الميادين في الواقع هي التي وجدت
الصور القديمة وذلك مع فارق واحد لا بد من وجوده، هو اختلاف
الصورة في البيات القديمة عنها في الحديثة.

لقد عرف الناس في البيات القديمة كلًا من الإعلام والدعاية، ولكن
بالصور والوسائل التي تناسبها، كما عرف الناس في تلك البيات القديمة
كلًا من الإعلان والعلاقات العامة والتعليم بالصور والوسائل التي تناسب
معها وهكذا.

فأمام الإعلام

فقد عرف الناس في البيات القديمة من أساليبه المتعددة ووسائله
الكبيرة — وبخاصة في العصر الجاهلي — أشياء كثيرة من أهمها فيما يتصل
بالإعلام الخارجى ما يلى:

(١) عبد الطيف حزة: الإعلام والدعاية من ٩٠ الناشر دار الفكر العربي.

(٢) عبد الطيف حزة: الإعلام له تاريخه ونشأته من ٩٠ الناشر دار الفكر العربي.

١ - وسيلة التجارة : والتجار في الجزيرة العربية كانوا في البلاد الأوروبية كانوا ينقلون الأخبار ويقتبسون بعض مظاهر المدنية وينقلونها من مكان إلى مكان ، يقول الأستاذ أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام^(١) :

« شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصاراها وجعلها منقطعة عن حولها لاتصل بهم في مادة ولا تقتبس منهم أدباً ولا تهليقاً . والحق أن هذه الفكرة خاطئة وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً » .. ونزيد نحن على ذلك أن هذا الاتصال بين العرب ومن حولهم من الأمم كان إعلامياً إلى جانب أنه مادي وأدبي .

٢ - ومن تلك الوسائل الإعلامية كذلك البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو إلى دينها ونشر تعاليمها . فقد تكونت مستعمرات يهودية في الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون . وأشهرها « يثرب » التي سميت فيما بعد (بالمدينة) وكان من أشهر القبائل اليهودية في يثرب قبيلة (بني النضير) وقبيلة (بني قريظة) وقبيلة (الأوس والخزرج) وهذا من بين . وكان اليهود حملة الثقافة اليونانية إلى الجزيرة العربية لأنهم نزحوا إليها من مراكز هذه الثقافة بالشام والإسكندرية .

وأما البعثات النصرانية ومن أهمها بعثة تنتهي إلى فرقه النساطرة وأخرى تنتهي إلى فرقه العاقبة . النسطورية في الخبرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام ، وأهم مركز للنصرانية في الجزيرة العربية هو نجران . وكان يتولى أمورها ثلاثة رؤساء . السيد ، والعاقب ، والأسقف . فالسيد كان رئيس القبيلة في الحروب وكان يتولى أمر العلاقات بينها وبين القبائل الأخرى . والعاقب يتولى الأمور الداخلية ، والأسقف يتولى الأمور الدينية .

وكان بنجران كعبة تضاهي الكعبة مكة . ثم تحولت كعبة نجران إلى كنيسة ، وكان لنجران اتصال كبير بالجيشة لأنها يعقوبية المذهب . . وكان

(١) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٣٢ وما بعدها .

قسس نهران يردون أسواق العرب يعظون ويسخرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

وكانت النصرانية قبل دخولها الجزيرة العربية تحمل في ثيابها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو شأن في اليهودية ، وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين فلجهوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان^(١) .

هكذا كانت هذه البعثات اليهودية والنصرانية وسائل اتصال بين العرب والأمم والمدنيات المجاورة .

٣ - ثم من وسائل الاتصال بالجهات في الجاهلية أو من أسباب هذا الاتصال وجوده - إنشاء إمارات على الحدود ، ذلك أن الجزيرة العربية كانت تقع بين أعظم حضاراتين آن ذاك : الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية - أولاهما من ناحية الشرق والثانية من ناحية الغرب ، وقد حاول كل من الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم لشتم وسلبهم ونهبهم . وبدلًا من أن يكفلوا أنفسهم غزو جزيرة مصراوية لاأمان لها ، فلأنهم - أي الفرس والروم - ساعدوا بعض القبائل العربية المجاورة لهم على أن يستقروا في الحدود يزرعون فيها ويتحضرن ، ويكونون في الواقع نفحة ردة لهم ضد بقية البدو المقيمين في صحراء الجزيرة العربية . ومن ثم تكونت في شبه الجزيرة إمارات على الحدود منها :

إمارة الحيرة على تخوم الفرس .. إمارة الغساسنة على تخوم الروم .. فكانت هذه الإمارات أو المدن الجديدة همة الوصل بين العرب من جهة والأمم المجاورة لهم من جهة ثانية و

قال الهمداني في كتاب (الوشى المرقوم)^(٢) ،
« لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والمعجم إلا من العرب . وذلك

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٣٢ نقلًا من الكتاب .

لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فغير فون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الشام أخبر بأخبار الروم وبين إسرائيل واليونان ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعا .. إلخ :

تلك إذن هي أهم وسائل الاتصال بين العرب ومن يجاورهم من الأمم في العصر الجاهلي ، وهم وسائل الاتصال بين العرب بعضهم وبعض في داخل شبه الجزيرة أشرنا إليها في كتابين سابقين هما كتاب « الإعلام له تاريخه ومذاهبه » وكتاب « الإعلام والدعائية » ولا يأس من أن نشير إلى بعضها فيما يلي :

١ - القصيدة الشعرية :

الحق أن الشعر في العصر الجاهلي كاد يكون هو الوسيلة الوحيدة من وسائل الإعلام والدعائية ؛ والحق أنه لم توجد إلى جانب هذه الوسيلة غير وسيلة الخطابة ، ولكن المزلاة الأولى في الجahلية كانت للشعر دائمًا ، وفي بيته لا يعرف القراءة والكتابة فيها إلا القليلون يكادون يعدون على الأصابع كان لابد للشعر أولًا ثم للخطابة بعد ذلك أن يقوم بوظيفة الإعلام ووظيفة الدعاية للقبيلة . ولعل أكبر دليل على أهمية القصيدة العربية واهتمام العرب بها ما رواه التاريخ عن العرب أنهم كانوا يختارون أجود القصائد ويكثرونها على (القباطي) بناء الذهب ، وكانوا يعلقونها على أستار الكعبة أو في بيوت الملوك ، ومن أشهر هذه القصائد ما سمي (بالمعلقات السبع أو العشر) .

صحيح أن قلة من المؤرخين أنكروا ذلك ، وعلى رأسهم (أبو جعفر النحاس) وتبعهم بعض المستشرقين في هذا الرأي . ولكن بقية المؤرخين والنقاد ذهروا في قصة المعلقات إلى أنها صحيحة . ذكر البغدادي في خزانة الأدب : أن العرب كانت في الجahلية يقول الرجل متهم الشعر في أقصى الأرض فلا يبعده أحد حتى يأتي قائله في موسم الحج فيعرضه

على أندية قريش . فإذا استحسنوه روى وكان فخرا لقائله : وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه^(١) :

والعقل لا يرى مانعا من صحة تعليق هذه القصائد في الكعبة . ويجوز أن يقع ذلك في أيام المواسم كلها أو بعضها ، ويجوز أن يكون في ساعة من نهار . والتاريخ يذكر أن قريشا حين استقر رأيها على قطعة بني هاشم كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة :

ولم تجد قريش أفضل من هذه الطريقة الإعلامية ولا أقوى منها تأثيرا في نفس الرسول وأصحابه وفي نفوس بني هاشم ليفهموهم أن قريشا مصممة على تعليقهم بهذه الطريقة لأن تعليق الصحيفة على أستار الكعبة يعطيها كل هذه الأهمية الإعلامية التي لا تجاري ..

والتاريخ يذكر لنا كذلك أن الرشيد حين كتب العهد للأمين والمأمون بالخلافة بعده أمر أن يعلق في أستار الكعبة ليكتسب بذلك قوة وهيبة ، ولزيادة الناس خضوعاً لهذه الطريقة الإعلامية الضخمة .

إذا صبح كل ذلك فلامانع من أن يكون للعرب وللشعر عندهم كل هذه المزلاة — عنابة بالمعلاقات التي هي من أجدود القصائد العربية باعتراف جميع النقاد ، والتي تغير في الوقت نفسه من أعظم أنماط الدعاية للشاعر ولقبيلته التي يدافع عنها ويغتر بها في معلقاته .

أجل لقد شهد التاريخ أن القصيدة الشعرية قامت بوفيقها في العصر الجاهلي خبر قيام . وأن الشاعر إذا ظهر في قبيلة من القبائل هنا أفرادها بعضهم بعضاً ، وها هم القبائل الأخرى كذلك ب لهذا الحادث السعيد وهو ظهور هذا الشاعر .

والسبب في ذلك أن الشاعر في القبيلة كان يقوم مقام الصحيفة بالنسبة للأحزاب في الوقت الحاضر . فهو الناطق بلسان هذه القبيلة ، وهو المناضل عنها بشعره ، وهو المخافر لها في أوقات الحرب وهو المصور لأخلاقها

(١) محمد هاشم عطية : تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ص ٢٢٢ .

وعاداتها ومكانتها بين القبائل الأخرى . غير أن أكثر هذا الشعر كان من باب الفخر ، والفخر من أنساب الأبواب الشعرية في الجاهلية وذلك لظهور المصيصة والقبيلية — فنرى على حد قول القائل :

ونشرب إن وردنا الماء صفوأ ويشرب غيرنا كدرأ وطينا

... الخ

وقد بقى هذا النوع من الشعر القبلي سائداً في الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام ، وأظهر ما كان ذلك في الدولة الأموية . ومن أكبر شعرائها جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وذو الرمة ، وفهتم في (باب التقاضي) أو شعر المهاجنة القبلية شأن وأى شأن .

٢ — الخطبة والخطباء :

وقد كان هؤلاء يقومون بما قام به الشعراء من الوظائف الاجتماعية والسياسية وخاصة في أوقات الفتن والخروب والقلائل ، وقد كانوا يعتنون بالنصرانية ، وكان لشعرهم وخطبهم طابع ديني في أكثره .

٣ — المنشادة :

وكان الناس يمارسون هذه الطريقة الإعلامية بأشكال مختلفة منها دق الطيول ومنها إشعال النار على قم التلال أو المرتفعات ، ومن أهمها الأصوات التي ترتفع بها حناجر المنشدين في القرى والمدن .

ومازال كثير من هذه الأشكال سائداً في البيئات العربية إلى يومنا هذا ، وإن أضاف إليها مرور الزمن أشكالاً أخرى من المنشادة ومنها إطلاق الأغيرة النارية في الأفراح أو البشائر كإعلان عن نجاح مرشح في الانتخابات أو الإعلان عن نجاح شاب في بعض الأسر وحصوله على شهادة علمية .

ومنها — أى من أشكال المنشادة — ما كنا نراه في القرية المصرية حين نختم صبياً منها حفظ القرآن الكريم فإذا ذالث يركب الصبي جملة أو حماراً أو حصاناً ويطاف به في القرية إعلاناً بأنه أتم حفظ القرآن الكريم .

وقد اختفت هذه الأشكال الأخيرة من أشكال المزادة في الوقت الحاضر . ، كما سيأتي ذكر ذلك ،

٤ — الأعياد :

وقد عرفت البشرية الأعياد في جميع عصورها ولم يستغن عنصر من هذه العصور عن الأعياد في أي شكل من أشكالها . وعرف العرب في الجاهلية كثيراً من الأعياد ومنها على سبيل المثال :

عيد الشباب :

فيه كان يجتمع شباب كل قبيلة تحت شجرة كبيرة ، أو في مكان به أشجار كثيرة . ويأتي الشاب منهم فيتعلق رمحه أو يعلق سيفه أو يعلق نوطه على غصن من أغصان الشجرة . ويحتفل الجميع بهذا اليوم وكانوا يطلقون على الشجرة اسمها يعرفونه بينهم ، فيسمونها (ذات أنواط) يفعلون ذلك من قبيل الفخر بالقوة . وكان هذا الفخر في ذاته يتفق وطبائع الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على هذه الشجرة وكان معه أصحابه وفيهم بعض الشباب قالوا « يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » فضحك رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يجهض إلى ما طلبوا . وعرف الشباب من الصحابة بعد ذلك أن الإسلام له أعياد من نوع آخر ، وله ذرائع لإظهار القوة من طراز جديد لأغراض جديدة لم تعرفها الجاهلية .

ومهما يكن من شئ فقد كان (عيد الشباب) في الجاهلية وسيلة من الوسائل الإعلامية وطريقاً من طرق الدعاية . وبهذا الطريق كانت كل قبيلة تعلن عن قوتها حتى تخشاها القبائل الأخرى .

٥ — الأسواق :

محمدنا الألوسي في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) عن الأسواق في الجاهلية والإسلام ، ومن هذا الحديث نعلم أن الأسواق عند العرب لم تكن مراكز للمبادلات التجارية فقط ولكنها كانت معرضاً

البضائع الفكرية والأدبية إلى جانب أنها معرض للبضائع المادية أو التجارية، وفـ الأسوقـ كانت تفضـ المـنـازـعـاتـ القـبـيلـةـ . وـفـيـهاـ كـانـتـ تـعلـنـ القـبـيلـةـ الحـربـ عـلـىـ قـبـيلـةـ أـخـرـىـ . وـفـيـهاـ كـانـ يـحدـثـ التـعـارـفـ بـيـنـ النـاسـ . وـقـدـ يـؤـدـىـ هـذـاـ التـعـارـفـ إـلـىـ عـقـدـ الزـوـاجـ بـيـنـ بـعـضـ وـبـعـضـ . وـفـيـهاـ كـانـ يـأـتـىـ مـنـ كـلـ قـبـيلـةـ شـاعـرـ لـيـعـرـضـ شـعـرـهـ عـلـىـ النـاسـ وـيـخـتـكـمـ فـيـهـ إـلـىـ الـحـكـمـينـ فـنـقـدـ الشـعـرـ (ـكـالـثـابـةـ)ـ وـغـرـهـ .

وفيها كان يأتي الخطباء ليخطبوا الناس في مختلف الشئون ، وكان من أولئك الخطباء « قس بن ساعدة الإيادى » الذى كان يخطب الناس في الأمور الكونية ويدعوهم إلى التأمل في الموت وما بعد الموت . وقد سمعه رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعجب به .

وقد كانت هذه الأسواق على خصرين من حيث الإتاوات والمكروس (أو الضرائب)، منها ما يفرض المكروس على الوافدين إليها، وهي الأسواق التي تتبع قبيلة من القبائل بالذات. ومنها ما لا يفرض هذه المكروس أو الضرائب لأنها لا تتبع قبيلة بالذات، ومن الأخيرة سوق عكاظ. وقبل أن نتحدث عن سوق عكاظ التي هي في نظر التاريخ أعظم أسواق العرب في الجاهلية يجدر بنا أن نمر مروراً سريعاً بحقيقة الأسواق ومنها:

سوق دومة الجندل :

وهي سوق تجارية بحثة يحل موعدها كل عام في أول ربيع الأول ، وتقطفه قبليتا كاب وجوبلة طي ، ويشرف على موسمه أمراء من العرب و كان (أكيدر) صاحب دومة الجنديل يرعى الناس ويقوم بأمرهم في أول يوم ،

سوق المشقر : (يكسر الميم وتشديد القاف) .

وهي حصن قرب هجر وتنزل هذه السوق أخلاط من جميع العرب و كان امرؤ القيس ينزلها . وفيها حصر كسرى بني تميم ، وأغلق عليهم باب الحصن ، ثم قتل الجناد وسي الدراري .

سوق هجر :

وهي سوق تجارية أيضاً تشتهر باللؤلؤ والتخيل وفيها تروج تجارات الهند وفارس ويدبر أمورها (المتلد بن ساوي) ملك البحرين .

ثم من هذه الأسواق كذلك (سوق عمان) (سوق جاشة) على أرض شهامة على بعد ست ليال من مكة إلى جهة اليمن . وقد تاجر فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسوق (صغار) وسوق (دبى) وسوق (الشحر) وغيرها ، وكل هذه الأسواق المتقدمة لاتعنينا كثيراً في هذا البحث لأنها أسواق تجارية خالصة تفيد الناس من ناحية التجارة ومن ناحية الاتصال ببعضهم ، ولكن السوق التي تستحق منا كل عناء في هذا البحث هي :

سوق عكاظ :

وعكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية : فهو مجمع أدب لغوى رسمي له حكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراً كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، وما استجادواه فهو الجيد وما بره جوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة ، فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهم بها الألسن في النوادي والحواضر ، ويحمل إلى هذه السوق التهائى والمحجازى والنجدى والعراقى ، واليمانى والهائى كل ألفاظ حية ، فما زال عكاظ بهذه اللهجات تخللاً واصطفاء حتى يتنق الأنساب الأرقش ، ويطرح الح فهو التقليل ، كما أنها السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة . وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية ، فهنا قس بن ساعدة يخطب في الناس ويدرك المخالق ويعظم من كان قبلهم وأمرهم بفعل الخير ، وهذا ندوة سياسية عامة تطرح فيها أمور كثيرة بين القبائل : فمن كانت له إمكأة على قبيلة نزل عكاظ فجاءوه بها . ومن أراد تخليل نصر لحيه — فعل فعل عمرو بن كلثوم — فرحل إلى عكاظ

وخلده فيها شعراً ، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس . ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في سوق عكاظ .

وكانت هذه السوق تقام بين العرب يوماً مقام الصحبة الرسمية في أيامنا هذه ، فمن أهلها شائناً تأباه مروءة العربي شهروا به في عكاظ ونصبوا له راية خضراء : فعرفوه فلعنوه فاجتنبواه . ومن أراد التبرُّ من قرب تسبب أو لآخر تبرأ منه في عكاظ ،

وعكاظ نخل في وادين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقها جنوب مكة إلى الشرق . وتقام هذه السوق في ذي القعدة وتزدهر قريش وهوازن وخطفان ومخزاعة والأحابيش وطوانف من العراق والبحرين والبادمة وعمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة . وليس فيها مكس ولا أعشار ، لأنها لا تجع أحداً من الأمراء . حتى جاء الإسلام فكان يعظ بعكاظ محمد بن سفيان بن جاشع . وكان أبوه قاضياً في الجاهلية . فهات فصار ميراً لهم .

وتقى العرب في عكاظ وهم يهبون للحج ويتنادون ويضاخرون . ويتنازعون ويتنافرون ويتعاظمون ، ولم يكن للعرب سوق كعكاظ ، وبقيت له هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في الأمالي لأبي علي القاتلي أن (عبد الرحمن بن ملجم) قاتل على لما سئل عن قتله علياً قال : ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم . وكان يقوم بأمر الحكومة عامة بنو تميم وكانت الحكومة في الشجر للتابعة ، وكانت تضرب له قبة بهذه السوق يجتمع إليه فيها الشعراء فدخل إليه حسان وعنه الأعشى ، قال التابعة أنشده شعراً وسحّم له . ثم أنشدته الخنساء قوله :

قدى بعيذلث أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

حتى انتهت إلى قوله :

ولأن صخراً لتأم المسداة به كأنه علم في رأسه ناراً
ولأن صخراً لكافينا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتو لنحار

فقال النابغة : لو لا أن أبا يصر (يريد الأعشى) أنشدني قبلك لقلت
إنت أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانية (كنابية عن المرأة) فقلت :
والله من كل ذي خصيتين (كنابية عن الرجل) ، فقال حسان : أنا والله أشعر
مثلث ومنها . قال : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجفونات الغريل معن بالضحى وأسيافنا يقترون من نجددة دما
ولدنا بني العنقاء وابني عرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا
فقال النابغة : إنك لشاعر لو لا أن قلت عدد جفانك وفخرت بمن
ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

* * *

وقف رسول الله ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنوات في عكاظ يدعوه
الناس إلى الخير والهداي والسعادة والإيمان ، وقد أزمه منه قيامه بالمدعوه
حزن عميق على قومه الذين كفروا بشعمة الله ، فحرم ليقصدون الموسام
وليأتين فيها القبائل كل قبيلة بمنزلها وكل جماعة في حيهم ، يعرض
عليهم هذا الدين .

قام في عكاظ يقول :

يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ،

ويتبعه رجل له غديرتان وهو يقول :

يأيها الناس ، إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه .

فعرف الناس أن هذا الصاد عن سبيل الله هو عمه (أبو طه) يكذبه
كلما قال كلمة الحق .

وعاد رسول الدعوة مراراً فلم يستجب له ولم يؤمن ، فكان يقول للحى
في موسم عكاظ : لا أكره منكم أحداً على شيء ، من رضى الذي أدعوه
إليه قبله ومن كرهه لم أكرهه إنما أريد أن تجزووني بما يراد بي من القتل
حتى أبلغ رسالات ربى . ويغفر الله لي ولمن صحبني بما شاء .

ولعل أشهر أسواق الجاهلية أيضاً :

سوق مجنة : (بتشديد النون)

يقصد به العرب بعد أن تنقضى سوق عكاظ .

سوق ذى المجاز :

ورد ذكرها كثيراً في شعر العرب . وخاصة شعراء هذيل - لأنها من أسواقهم الكبيرى . وهذه الأسواق الثلاث : عكاظ - مجنة - ذو المجاز - كانت تقوم في أيام الحجج ويؤمها العرب قاطبة . وقد شهدت إلى جانب البيع والشراء والمقايضة مشهداً من أفعى مشاهد الجفاء والتنكر والأذى للرسول . وابتلىت بضميرها صوت الدعوة الإسلامية فيها ابتلىت من دعوات .

وجاء الإسلام فاستمرت بعض هذه الأسواق وأضيف إليها أسواق

جديدة منها :

المريد :

ولم يعهد بهذه الأسواق في الإسلام تلك القيمة التي كانت لها في الجاهلية ، وذلك أن العرب تحضرت وسكنت الأماكن وكثرت فيها الأسواق الدائمة إلا ما كان من أمر المريد الذي ورث عكاظ . وأخذ أمر المريد (وهو عكاظ الإسلام) يزداد شيئاً فشيئاً .

وتقع هذه السوق قرب البصرة ، وقلت أهميتها في عصر الخلفاء الراشدين . وعادت إلى قوتها في العهد الأموي ، وذلك للعصبية القبلية التي كانت من صفات هذه الدولة .

وتتعدد حلقات هذه السوق ويتوسطها الشعراء والرجال ، و يؤمها الأشراف وسائر الناس يتأمرون ويتفاخرون ويتهاجرون .. إلخ .

ولكل قبيلة شاعر يعرض شعره في المريد ، وكانت تجوب بأعلام اللغة والأدب والشعر وال نحو ، معهم مخابرهم ودفاترهم يكتبون من فصحاء الأعراب . فلمجرد والفرزدق حلقة والراعي الغيرى وذى الرمة لسكل منها حلقة .. إلخ .

وكان لكل من الشعراء رواة ينقولون له ما قاله شخصه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه .

٦ - الندوة :

ولعل من أقوى طرق الاتصال بين العرب في الجاهلية - عدا الأسواق - الندوة . وهي مكان يجتمع فيه أهل الرأي في الأوقات التي تحتاج إلى تبادل الرأي .

ومن الأمثلة عليها (دار الندوة) قرب المسجدة، وهي الدار التي اجتمع فيها رؤساء القبائل العربية و منهم بنو هاشم وأخذوا يتشاورون في الطريقة التي يتخلصون بها من محمد صلوات الله عليه . وكان ذلك قبيل الهجرة ، وكان العرب يتذرون فرصة اجتماعهم ككل تلك الأسواق على النحو الذي شرحناه في هذا الفصل ويعقدون فيها بينهم (ندوة) يتبااحثون بها في شئ المشكلات التي تعرض لهم ويخربون بمحمل لكل مشكلة . وقد يشتد بينهم الجدال فلا يخرجون بشيء .

٧ - إشعال النار في رعوس الجبال :

كذلك كان من وسائل الإعلام في الجاهلية وسيلة فطرية لا تكلفهم شيئاً من الجهد والمشقة ، وهذه الوسيلة الأخيرة هي إشعال النيران فوق رعوس الجبال يخبرون بها عن عدو يريد الإغارة على القبيلة، أو يخبرون بها عن حادث كبير ، ساراً كان أو مجزناً حدث في القبيلة ، أو يعلّون بها عن ولادة كبيرة وهكذا ، وحول هذه النار تحلق العرب ومعهم ضيوفهم وهم الذين من أجلهم أوقدوها ، وكثيراً ما يكون بين القوم شاعر ينفعل بهذه الحبلس ويمدح صاحب النار ويصفه بالكرم والجود ، فإذا روى هذا الشعر أصبحت لصاحب النار شهرة كبيرة .

وتحادثنا كتب الأدب عن رجل اسمه الحلاق كانت له بناة لم يتزوجن وعلت بين السن ، وفي ذات ليلة من الليالي جاءه شاعر من الشعراء فأوقده له

النار وبالغ في إكرامه وطعامه وشرابه ، ونظم الشاعر قصيدة في مدح هذا الرجل الذي أشعل النار (وبات على النار الذي والخلق) وسارت هذه القصيدة ، وعلم الناس بأخبار الرجل وبناته فتقدم للزواج منه نمير شباب العرب .

والظاهر أن طريقة إشعال النار فوق الجبال هي التي تطورت بعد ذلك في الإسلام إلى (المناور) والمناور هي مواضع رفع النار في جنح الليل ومواضع الدخان في وضح النهار ، وتكون تارة على رعوس الجبال . وتكون تارة في أبنية عالية ، وفي كل واحد من هذه المناور — كما يقول صاحب صبح الأعشى — نظارة لرؤيه ما وراء (المناور) وما يكون أمامها ، يقول صاحب صبح الأعشى : وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند فكثرة وجود الجبال في تلك البلاد .

ونحن نقول إن الأمر لا يحتاج إلى نقل فكرة (المناور) من بلد إلى بلد . لأن الطبيعة هدلت العربي إلى إشعال النار في رعوس الجبال بجميع تلك الأغراض الإعلامية ، ومن الطبيعي كذلك أن تخضع هذه الفكرة البسيطة للتطور شيئاً فشيئاً حتى تصبح في العهود الإسلامية اللاحقة على صورة (المناور) ،

٨ — المندادا :

وهي من أقدم الطرق الفطرية في الإسلام وجدت في جميع البيشات القديمة بدون استثناء ، والنداء في جميع تلك البيشات وسيلة للنشر الأخبار وما زال إلى اليوم في بعض البلاد العربية المختلفة أو النامية . وذلك في الوديان والسهول والقرى وبعض الجهات المتطرفة ، وما زال المنداد يتجول في بعض المدن ، وقد يكون للمدينة الواحدة متادون كثيرون ، وأكثر ما يكون ذلك في المواسم الدينية كشهر رمضان والعيدين ونحو ذلك ،

لذلك كان من الأمور الطبيعية أن يوجد المنداد في الجاهلية وأن يقوم بكثير من الأغراض الإعلامية ، وأن يشبه في ذلك (المنداد) في الإسلام

وهو الرجل الذي يعهد إليه بإذاعة الأوامر الحكومية والأخبار الغربية وبعض الأخبار الرسمية كوصول حاكم جديد للولاية وتحديد الأعياد الدينية .

وكما تطور إشعال النيران في رعوس الجبال إلى (مناور) كذلك - في رأينا تطور النساء في الجاهلية إلى (الأذان) في الإسلام وهو هنا النساء الذي يسمعه الناس خمس مرات في اليوم والليلة إذاناً بالصلوات الخمس المعرفة .

• • •

البيان الأول
أشهر صور الإعلام في صدر الإسلام

تَكْثِيرٌ

عرفنا أن العصر الجاهلي لم يكن يمارس من وسائل الإعلام غير الوسائل الفطرية المعروفة عند الأمم المختلفة أو الجماعات البدائية ، وأن أهم هذه الوسائل التي عرفها الناس في الجاهلية وسيلة القصيدة الشعرية ، ووسيلة الخطيب ، ووسيلة التدوّات ، والأسواق والمناداة ، ووسيلة إشعال النيران من أعلى الجبال ونحو ذلك ،

ومنذ ظهور الإسلام كان لا بد من أن يصبح للإعلام صور جديدة لم يعرفها العرب من قبل ، وصور قدّمة احتفظ بها الإسلام وكانت معروفة للعرب من قبل :

فأما الصور القدّمية التي احتفظ بها الإسلام فهي القصيدة الشعرية وإن لم يصبح لها في الإسلام شأن كبير كما كان لها هذا شأن في الجاهلية ، ومنها الخطابة وهي الصور الإعلامية التي أصبح لها في الإسلام شأن أكبر من شأنها في الجاهلية ، ذلك أن الخطابة فن الاقتناع وأتمها لا تزدهر في عصر من العصور كما تزدهر في عصر الثورات ، ولذلك بلغت الخطابة أوجها على يد الرسول وأيدي الحلفاء الراشدين من بعده : أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وكان هذا الأخير مضرب المثل في البلاغة العربية على حد سواء .

ثم من الوسائل الإعلامية التي احتفظ بها الإسلام وسيلة الأسواق ووسيلة التدوّات لأنهما متصلتان اتصالاً قوياً بحياة الناس في كل زمان ومكان :

جاء الإسلام واستحدث الكثير من الأساليب الجماليّة في ميدان الإعلام والاتصال بالناس منه عرض عليهم هذا الدين الجديد . وبذلك النبي صلّى الله عليه وسلم في سبيل هذه الغاية من الجهد الكبير الذي ستنتسبع عند الكلام على كلّ أسلوب من هذه الأساليب على حدّة ،

وقد سبق أن قلنا في التمهيد إن الجهود التي بذلها النبي في ميدان الاتصال تسمى بالدعوة ، وإن الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون في هذا الميدان يمكن أن نطلق على أكثرها اسم (الإعلام) ، ذلك أن الرسول كان قد أدى الأمانة وقام بالرسالة وفرغ من عرض الدين الجديد على الناس . أما الخلفاء الراشدون من بعده فـكان عليهم واجب آخر لا يصبح أن نسميه (دعوة) ولكن نطلق عليه اسمـ آخر هو (الإعلام) في سبيل نشر الدعوة :

وإذا ذهبتا نستعرض أساليب الدعوة والإعلام في صدر الإسلام وجدناها كثيرة في جملتها ، وكانت كلها من وحي القرآن ، أو كانت كلها من وحي الرسالة التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام . فـنـ هـذـهـ الأـسـالـيـبـ بـعـدـ القرآنـ الـكـرـيمـ وـالـمـدـيـثـ لـلـشـرـيفـ وـالـخـطـبـةـ النـبـوـيـةـ :

أـسـلـوـبـ الـأـذـانـ لـإـقـامـةـ الصـلـاـةـ ، وـأـسـلـوـبـ الـغـزـوـاتـ وـالـسـرـايـاـ الـحـرـبـيـةـ التي كان الرسول والخلفاء من بعده يـقومـونـ بـتنـظـيمـهاـ لـاستـطـلـاعـ حـالـ العـدـوـ وإـعـلـامـهـ أـنـ الـدـيـنـ الـجـدـيـدـ لـهـ مـنـ الـقـوـةـ الـخـرـبـيـةـ مـاـ يـسـطـعـ بـهـ الـخـافـظـةـ عـلـىـ تـفـسـهـ فـيـ الدـاـخـلـ وـالـخـارـجـ ، وـقـدـ نـظـرـ هـذـاـ الـبـحـثـ .ـ كـمـ سـبـقـ القـوـلـ فـيـ ذـلـكـ .ـ إـلـىـ الـغـزـوـاتـ عـلـىـ أـنـهـاـ كـانـتـ مـنـ أـقـوىـ وـسـائـلـ الـإـعـلـامـ بـهـذـاـ الـمـعـنـىـ .ـ

أـسـلـوـبـ الـعـلـاقـاتـ الـوـدـيـةـ :

وـقـدـ كـانـتـ مـعـرـوـفـةـ فـيـ الـحـيـاـةـ الـجـاهـلـيـةـ وـلـكـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـ مـنـ الـخـطـوـرـةـ وـالـأـهـمـيـةـ مـاـ أـصـبـحـ لـهـ مـنـذـ ظـهـورـ الـثـوـرـةـ الـإـسـلـامـيـةـ ، وـالـسـيـبـ فـيـ ذـلـكـ أـنـ الـعـرـبـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ كـانـوـاـ يـقـيـمـوـنـ حـيـاتـهـمـ عـلـىـ الـعـصـبـيـةـ الـقـبـلـيـةـ ،ـ

وـهـيـ الـتـيـ أـشـعـلـتـ بـيـنـهـمـ نـارـ الـحـرـبـ لـأـنـهـ الـأـسـالـيـبـ ،ـ ثـمـ هـيـ الـعـصـبـيـةـ الـتـيـ جـاءـ الـإـسـلـامـ لـخـارـبـهـاـ وـاقـتـلـاعـ جـذـورـهـاـ مـنـ الـوـجـودـ الـعـرـبـيـ ،ـ وـمـنـ أـجـلـ ذـلـكـ وـجـدـنـاـ الـإـسـلـامـ قـدـ أـحـلـ أـسـلـوـبـ الـعـلـاقـاتـ الـوـدـيـةـ خـلـ الـعـصـبـيـةـ ،ـ وـمـارـسـهـ الرـسـوـلـ مـعـ أـصـدـقـائـهـ وـأـعـدـائـهـ عـلـىـ السـوـاءـ .ـ

وـلـاـ شـكـ أـنـ الـذـيـ سـاعـدـ الرـسـوـلـ عـلـىـ الـقـيـامـ بـهـذـهـ الـعـلـاقـاتـ الـوـدـيـةـ هـمـ أـصـحـابـهـ مـنـ الـقـرـاءـ وـالـمـفـقـهـيـنـ فـيـ دـيـنـهـ ،ـ فـقـدـ كـانـ هـؤـلـاءـ هـمـ الـصـلـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ

القبائل العربية التي كانت تكرم هؤلاء الرسل تارة ، وكانت تسىء إليهم إلى
درجة الغدر بهم وقتلهم تارة أخرى :

ومهما يكن من شيء فنحن إذا استعرضنا وسائل الاتصال بالجماهير
في عهد الرسول والخلفاء الراشدين فستجد أن أقواها تأثيراً في التفوس
وأعظمها تجاهلاً في الترويج للعقيدة التي جاء بها الرسول ما لا يقل عن تسع
وسائل نذكرها مرتبة حسب أهميتها على الوجه الآتي :

- ١ - القرآن الكريم ،
- ٢ - الحديث الشريف والخطبة التبوية ،
- ٣ - القدوة الحسنة من جانب الرسول والصحابة أجمعين ،
- ٤ - الاتصال الشخصي والجماعي وهو من أقوى وسائل الإعلام
قديماً وحديثاً ،
- ٥ - أسلوب القصص ، وهو وسيلة إعلامية ظهرت أول ماظهرت في
القرآن الكريم . ثم ظهرت على أيدي نفر من دخلوا الدين الجديداً أطلق
عليهم اسم (القصاصين) وكان لهذه الوسيلة أعنق الأثر في تعلق المسلمين بهم
الدين ، ثم في ميدان الجهاد من أجل نشر هذا الدين ،
- ٦ - مواسم الحج أو مواطن التجمعات الإسلامية على أوسع نطاق ،
وقد كانت هذه المواسم أشبه شيء بالمؤتمرات الإسلامية الكبرى أو ،
الأسواق العامة .
- ٧ - الغزوات التي نظر إليها البحث على أنها وسيلة إعلامية أوجها القرآن
لنشر الإسلام .
- ٨ - العلاقات الإنسانية .
- ٩ - القصيدة الشعرية .

من هذه الوسائل التسع سنتحدث عن الوسائل الإعلامية الآتية كل على
حدة وهي :

أولاً : القرآن الكريم . ثانياً : الحديث الشريف ،

ثالثاً : القدوة الحسنة ، رابعاً : الاتصال الشخصي ،
خامساً : الفحص ، سادساً : مواسم الحج ،
سابعاً : العلاقات الإنسانية .

أما الغزوات والبعثات الحربية وأما القصيدة الشعرية وأما الخطبة التبوية
فسنرجي الحديث عنها إلى الوقت الذي تتحدث فيه عن (الدعوة الإسلامية
على يد الرسول وطرق نجاحها) وتلك هي المخطة التي وضعناها للباب الأول
من أبواب هذا الكتاب .

هذه هي أهم صور الإعلام والاتصال في عهد رسول الله ﷺ وسرى
أن الخلفاء الراشدين اتبعوا هذه الطرق الإعلامية نفسها . ولم يكادوا يزيدون
عليها ، وذلك أن تاريخ الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم كان صورة
دقيقة — في ميادين الإرشاد والتعليم والاتصال والإعلام — من حياة الرسول و

ونحن حين نقف عند كل وسيلة إعلامية من هذه الوسائل السبع
سنضرط المثل فيها بالرسول . وذلك لأنه أضخم شخصية في الوجود
الإسلامي ، ولأن الاستشهاد بسرته ومساركه في ميدان الاتصال يعني عن
الاستشهاد بالصيغة أنفسهم ، كما سنشرح ذلك في كلمة بعنوان (تهديد)
منبدأ بها الكلام في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ،

الفصل الأول القرآن أكبر وسائل الإعلام في الإسلام

ما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو الوسيلة العظمى والطريقة المثلثة للدعوة الإسلامية، ولا محل للمناقشة أو الجدل في هذه الحقيقة سواء كان هذا الجدل من المسلمين أو من غير المسلمين أو من الدهريين أو الوثنيين الذين لا دين لهم ولا عقيدة.

والبحث في القرآن الكريم باعتباره أكبر وسيلة من وسائل الإعلام منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا بحث ليس بالهين. إنه بحاجة أولاً إلى دراسة عميقة لهذا الكتاب السماوي من الزاوية الإعلامية، وهو بحاجة ثانياً إلى من يجمع من صور هذا الكتاب المقدس كل الآيات القرآنية التي تحمل معنى الدعوة – أو التي رسمت للرسول طريق هذه الدعوة ، ومن أمثلة هذه الآيات – قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادهم بالتي هي أحسن » .

وقد نص القرآن في كثير من آياته على أن الرسول مكافف من قبل الله تعالى بشيء واحد فقط هو تبليغ الناس هذه الرسالة الجديدة . وأنه ليس مسؤولاً عن تصديق الناس لها أو عدم تصديقهم لايها . قال تعالى : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

وقال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » .
كما نص القرآن الكريم في آيات كثيرة على الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الداعية بوجه عام ، والتي يتحلى بها الرسول الكريم بوجه خاص . ومن هذه الأخلاق : الصبر وحسن المعاملة والجدال بالتي هي أحسن والإعراض عن الجاهلين والمنافقين ، والبعد عن الغلظة قال تعالى : « فبها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك » .

وبحض الله رسوله كذلك على قتال المشركين ونشر الدعوة الإسلامية بطريق السيف ، فتصدّع الرسول لهذا الأمر ومارس الحرب للتوسيع الإقليمي ولا للحصول على السلطان ولا للانتقام من أحد من المشركين : فليس بينه وبين أولئك المشركين إلا أن يقولوا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فإن قالوها عصموا منه دماءهم ولم يجز له أن يقاتلهم ، وأسلوب آخر من أساليب القرآن في الدعوة إلى الإسلام — ولعله كان أكثرها وقعاً في نفوس العرب وغيرهم من الأمم التي اعتنقت الإسلام — وهو أسلوب القصص ، وقد حفل الكتاب بقصص الأنبياء وما تلقى كل نبي منهم من أذى بأعنف الصور والأشكال التي عرفها البشرية ، ومع ذلك صبر الأنبياء على ما أذوا في سبيل الله ، وكانت هذه الطريقة السلبية — وهي الصبر — من أنجح الطرق في تبليغ رسالتهم السماوية إلى الأمم التي بعنوا إليها ، وكانت هذه القصص التي حكت حياة الرسول من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام قد بثت في المسلمين روح التضحية والصبر من أجل الدين . وأوحيت إليهم بالقدوة الحسنة التي سبق القول أنها كانت في العصور القديمة من أنجح الوسائل في ميادين الإعلام والتربية والتعليم وميدان العلاقات العامة .

ثم إن القرآن الكريم نزلت آياته حسب المواقف والحوادث التي مرت بالرسول ، يسترشد بهذه الآيات التي نزل بها الوحي في كل حادثة من هذه الحوادث وفي كل موقف من هذه المواقف ، وكانت بعض آيات الكتاب تنبئه الرسول بما سيحدث له ولأصحابه في المستقبل ، وكانت بعض آياته تتفق الرسول على أخبار المشركين والمنافقين وما كان يدبره هؤلاء وهؤلاء من المؤامرات ونحو ذلك ، كما كانت بعض آياته تتفق حالة المسلمين في كثير من المواقف التي تمر بهم وترشدهم إلى الصواب في هذه المواقف .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم من جمّيع هنّه النواحي الإخبارية وما يتبع هذه الأخبار من نقد وتحليل ل موقف المسلمين والمنافقين ورسم

الطريق الذي يسلكه المسلمون تجاه المنافقين ورسم الآداب التي يجب على المسلمين أن يعاملوا بها الرسول . نقول إذا نظرنا إلى القرآن الكريم من هذه الناحية فقط أمكننا أن نعتبر هذا الكتاب المقدس صحيحة العهد الذي ظهر فيه الإسلام ، إذا صبح هذا التعبير ، ولكنها صحيفه من طراز آخر يمتاز بالصدق كأحسن ما يكون الصدق وبالزاهة في التوجيه والإرشاد كأحسن ما تكون الزاهة ، ولاغرو إنها صحيفه الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا .

وأهم من ذلك كله أن هذه الصحيفه الإلهيه كان لها الأثر كل الأثر في خلق مجتمع جديد في الجزيره العربيه هو المجتمع الاسلامي الذي يختلف اختلافاً تاماً عن المجتمع الجاهلي ، يدلنا على ذلك أنه أصبح المجتمع الاسلامي الجديد على يد الرسول مجموعة من القيم والمقاهيم مختلفة كل المخالفة لقيم والمقاهيم التي كانت للعرب في الجاهليه ، وبعبارة أخرى أصبح المثل الأعلى للMuslimين على يد الرسول شيئاً مغايراً كل المعاير المثل الأعلى للعرب في العصر الجاهلي .

وقد بحث المستشرقون من الغربيين هذه القضية بحثاً مستفيضاً ، وأفاد الأستاذ أحمد أمين من هذه البحوث في كتاب « فجر الاسلام » ، وقال : إن المثل الأعلى للرجل في الجاهليه كان يتمثل في الشعر العربي عامه وفي المعلقات بوجه خاص ، وقد صور طرفة بن العبد - وهو من شعراء المعلقات - هذا المثل الأعلى في الجاهليه بقوله :

ولولا ثلاثة من عيشة الفتى وربك لم أحصل مني قام عودي^(١)
فنهمن سبق العاذلات بشربة كميت مني ما تعل بالماء تربد^(٢)

(١) سناه ولولا ثلاثة أشياء تقوم عليها حياتي لم أقم مني جاء الأجل وتركني جميع من يعودونني في الأرض .

(٢) أول هذه الأشياء ثلاثة إسكنه العاذلات والعدل الذين يلومونى على شرب الماء
المستنقع الذى يملؤها الزبد مني ما علاها الماء .

وتفصيير يوم الدجن والدجن معجب
بشكنته تحت الجباء المعبد(١)
وكرى إذا نادى المصيف مخنا كسيد الفضا ذي السورة المترور(٢)
وليس شك أن القارئ الحديث يجد صعوبة ما في قراءة هذه الآيات.
الجاهلية ولكننا نطالب هذا القارئ الحديث بأن يفهم معناها وأن يرسم
في ذهنه من خلالها صورة للمثل الأعلى للرجل العربي في الجاهلية .
وهي صورة رجل يقول أنه لا يعيش حياته إلا لغابات ثلاث :
الغاية الأولى : شرب الخمر ،

الغاية الثانية : قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الجميلة ،
الغاية الثالثة : النجدة لكل من يستدرج به والهجوم على من يبعدي على
هذا الضعيف هجوم الذئب على فريسته ، والغاية الأولى هي التي عبر عنها
البيت الثاني وهي شرب الخمر التي يعلوها الزيد من علاها الماء ،

والغاية الثانية هي التي عبر عنها البيت الثالث – وهي الجلوس إلى
الحسناء في اليوم الغائم تحت الخيمة القائمة على العمد ، والغاية الثالثة هي التي عبر
عنها البيت الأخير وهي الأسراع لنجدة الخائف أو الملهوف أو الضعيف ،
ليقفر لنجادته كما يقفر الذئب المخفي وراء الأشجار استعداداً للهجوم على

(١) الدجن : الغيم وبشكنته ، المرأة الحسناء ، والعد : القائم على أمدة ، والمعنى أن
الشيء الثاني من هذه الأشياء ثلاثة التي أعيش من أجلها هو قضاء اليوم الغائم الجميل مع
المرأة الحسناء في خيمة كبيرة ذات أمدة .

(٢) كري : من الكفر وهو البريء ، والمساف : الالاجيء أو المستدرج والمجتبى
(بكسر التون الشدة) المتنع من شدة القمع أو الخوف وسية الفضا (بكسر السين)
هو الذئب المخفي وراء الأشجار استعداداً للهجوم على فريسته ، وذى السورة ، معناه ذو
النفس الشديد ، والشديد : أى الوارد على عجل . . .
والمعنى : إن الشيء الثالث من الأشياء التي يعيش من أجلها أو ثوبه لنجدة من يستدرج به كمابعه
الذئب على فريسته .

فريسته بكل عنف . ذلك إذن هو المثل الأعلى للرجل العربي في العصر الجاهلي ،

أما المثل الأعلى الذي رسمه القرآن للرجل المسلم فإنه يظهر في آيات كثيرة ليس من السهل أن نحصرها ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى للرجل في الإسلام هو شفاعة الله تعالى مخافة تحول بيته وبين معصية الله ورسوله ، وقوله تعالى يشرح معنى التقوى التي هي المثل الأعلى : « ليس البر أن تولوا وجرهكم قبل المشرق والمغارب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والتبيين وآتى المال على حبه ذوى القربي واليتامى والمساكين وآتى السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموoron بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في اليساء والضراء وحين اليأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

الحق لقد كان الإسلام في ذاته ثورة كبيرة ، وكان لا بد لهذه الثورة أن تكون مقرونة بظاهرة من القيم الجديدة والمقاهيم الجديدة ، ومثل جديدة يقوم عليها المجتمع الجديد ، ويصبح بها مغايراً كل المغایرة للمجتمع الذي سبقه إلى الوجود ، وهو المجتمع الجاهلي ،

يقول الأستاذ توماس أرنولد في كتابه (الدعوة الإسلامية) (١) .

إن دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه الغريب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين . كما كانت تعلم حدوث العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانت قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار ، كان العربي يتباهى برد الشر بالشر ، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف .

(١) الدعوة إلى الإسلام ، تأليف أرنولد — وترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد الحميد عابدين ، وإسماعيل النغراري . الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨ ش ٦٢ .

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الذي كيما يضر وينفعها
ولقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أمثال هؤلاء بقول القرآن
الكرم « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي يدناه وبه عداوة كأنه ول حميم » .

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية من هؤلاء العرب الذين يوجه
إليهم محمد رسالته أول الأمر ، وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه
تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق فلم يكن هذا الشيء معروفا لدى الوثنين من
العرب ، ولذلك لم يكونوا مهيبين كل التهديد لتلقي تعاليم الرجل ، ولم يعدهؤلاء
محتملون هذه القيد التي جد الإسلام في فرضها على حربهم فالنصر والنساء
والفناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي في الجاهلية ، وكان النبي
صلى الله عليه وسلم صارما شديدا في نواهيه الخاصة بكل منها ،
ومنكدا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة
ويسمى بحسب قلوب الناس وتحوي لهم إليه وحthem على الدخول في زمرة
أصحابه .

كل ذلك بطبيعة الحال كان بفعل القرآن الكريم الذي وضع الأساس المتن
للسجن الإسلامي الجديد ودعا محمد أصحابه إلى التعاون معه في هذا البناء .

* * *

وهدف آخر من أهداف القرآن الكريم ، في ميدان الدعوة لهذا
الدين الجديد ، هو تحريض المؤمنين على قتال المشركين حتى ينتصروا و بشهادة
« أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » فإذا رفضوا أن يقولوها و يجب
علي المسلمين أن يقاتلوهم ، وهذا معنى قولنا في أول هذا الكتاب أن الإسلام
كان ثورة كبيرة و دعوة جديدة اعتمدت في نجاحها على وسائلين كبيرتين هما ،
الكلمة من جهة والسيف من جهة ثانية ، وقد اعتمد الرسول الكريم على
الكلمة وحدها في العهد المكى . فلما انتقل إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى
بأن يعتمد عليها وعلى السيف معاً .

(م ٤ — الإعلام في صدر الإسلام)

ولعل من أخطر القيم أو المفاهيم التي ينادي القرآن عليها صرح المجتمع الإسلامي الجديد مفهوم الجهاد في سبيل الله وهذا الجهاد في ذاته من أكبر وسائل الإعلام والدعوة إلى الدين الجديد ، وكتاب الله زاخر بال سور والآيات التي تدعو المسلمين إلى القتال باعتباره إحدى الدعائمتين اللتين قام عليهما الإسلام . من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : « وَأَعْذُلُوا هُمْ مَا أَسْتَطَعْ مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْ رِبَاطَ الْخَيْلِ تَرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تَنْفَعُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ لِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ » ،

وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حِرْضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقَتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائِينَ وَإِنْ يَمْنَ مِنْكُمْ مَائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » ، إلخ ،

وقوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لَمَنْ يَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٍ بَلْ أَحْيَاءٍ وَلَكُنْ لَا تَشْعُرُونَ » .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتَلُونَ وَيَقْتَلُونَ ، وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أُوفِيَ بِعهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشُوا بِيَعْمَلِكُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

إن الروح المعنوية بين المسلمين كانت تعلو بهذه الآيات إلى الدرجة التي كانوا فيها يتتساقون إلى الموت في سبيل الله وإلى الدرجة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في غير عهد النبي ﷺ ،

* * *

إننا لانستطيع ولو حرصنا أن نحصي القيم والمفاهيم الجديدة التي أتى بها القرآن الكريم التي ينادي عليها النبي هذا المجتمع الإسلامي بناءً سليماً ، ولكتنا لا نستطيع أن نترك الكلام عن هذه القيم والمفاهيم دون الإشارة إلى مفهوم الشورى :

قال تعالى : « وأمرهم شوري بينهم » معنى ذلك أن العصمة لا تكون لبشر ولو كان هذا البشر زبياً من الأنبياء أو رسولاً من الرسل ، و محمد مخصوص من الخطأ في تبليغ الرسالة ولكنه ليس مخصوصاً عند الاجتهد في الرأي » .

أذن الرسول لبعض المذاقين بالتلخلف عن غزوة تبوك فعاتبه الله على ذلك في قوله تعالى ، « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبنوا لك الدين صدقوا وتعلموا الكاذبين » .

الخلاصة :

إن النبي ﷺ كان على سمو منزله ، وكمال عقله ونحلقه معرضياً الخطأ لأنّه بشر وكانت بحاجة إلى الرجوع في كل أمر من أمره إلى أصحابه يقف على آرائهم ويوازن بينها بعقله ، ثم يأخذ بالأمثل في نظره من هذه الآراء ، وكان لا منعه خطأ واحد من أصحابه في الرأي من أن يعود إليه بالمشورة في المرة الثانية ، وهذا ما اعتمد القرآن كما سبق ذكر ذلك – بقوله تعالى : « فاغف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » .

الحق – لقد كانت حياة النبي من أول الرسالة إلى آخرها تشاوراً بينه وبين كبار الصحابة ، وكان النبي لا يهم مع ذلك آراء غير الكبار من الصحابة ، فهذا رأى لبعض المسلمين العاديين يظهر على بقية الآراء في غزوة بدر ، فقد خرج رسول الله في ذلك اليوم واختار هو وكبار الصحابة موضعًا معييناً لهم ولبقية الجيش ، فقال « الحباب بن المنذر » للرسول ﷺ : أهذا منزل أنت لكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره ؟ أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ، فقال له رسول الله : بلى هو الرأي وال الحرب والمكيدة ، فقال الحباب : يا رسول الله – فإن هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزل ، وتردم الآبار ، وتبني لنا حوضاً نملأه بالماء فتشرب ولا يشربون ، ففعل رسول الله ما أشار به الحباب ، وفي غزوة الخندق أو الأحزاب أشار سلمان الفارسي على رسول الله ﷺ

أن يخفر خندقاً حول المدينة ليذرأ عنها الخطر . فعمل الرسول بمشورته وأشترك بنفسه في هذا الخفر .

وأني الخلفاء الراشدون فأرسوا قواعد الشورى وكان أحدهم لا يقطع بأمر حتى يرجع فيه إلى أهل (الخلل والعقد) من كبار الصحابة، ومن ذلك أن اختيار أبي بكر أو عمر لعامتها (أي لأمراء الأقاليم) كان يقوم على أساس من تقديم الرأي أو تقديم المشورة . قال عمر ذات يوم لصحابه (أشروا على ودلوى) على رجل أستعمله في أمر قد دهنى فقولوا ما عندكم فإني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى هذه الصفة « الربيع بن زياد الحارثي » فنشر على أمير المؤمنين به فاستدعاه عمر فلواه ووفق في حمله وحقق ما أراد عمر .

* * *

وقيمة كبيرة ومفهوم عظيم من المفاهيم التي بني عليها القرآن بناء المجتمع الإسلامي الجديد — هو المفهوم الذي يتصل بعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وهي علاقة تتلخص في أول كلمة قالها أبو بكر بعد توليه الخلافة : — « أطيعوني ما أطعك الله فيكم ورسوله فإن عصيتم فلا طاعة لي عليكم » ، وعلى نفس الطريقه سار عمر بن الخطاب في خلافته ، وهو القائل : « ومن رأى في اعوجاجاً فليقومه » فرد عليه أحد الخالسين في المسجد : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوهناه بحد سيفنا .

كان عمر بن الخطاب يشتعل يوماً بتفسيم بعض الغنائم فإذا بعض الخاضرين يقف بينهم ليقول : اتق الله يا عمر ، فغضب الخاضرون لقوله هذا واستكثروا على أمير المؤمنين أن يقال له هذه الكلمة . فما كان من عمر إلا أن قال لهم : دعوه يقولها فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فيها إذا لم تقبلها منكم .

وهكذا قامت العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الإسلام على هذه القاعدة ،

وهي قاعدة العدل ، فإذا وقع شيء من الجحود — وإن كان قليلاً ، وجب على المسلمين أن يكلموا فيه المحاكم وينجعوه منه فإن امتنع ورجع إلى الحق وأقام المخدود فلا يخلع ولا يخلع خلعة ، وإن امتنع عن إقامة المخدود وجب خلعة وإقامة غيره من يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والمعدون » (١) .

وهل نستطيع أن نترك القيم القرآنية والمفاهيم الإسلامية دون أن نقف وقفة عابرة عند مفهوم التكافل الاجتماعي . ولعل من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام علاقة المسلم بال المسلم وعلاقة المسلم بالجماعة وعلاقة الرجل بزوجته وعلاقة الفرد بأفراد أسرته ، وقد حض القرآن والحديث جميع المسلمين على أن يتنازلاً عن بعض حقوقهم لمصلحة الآخرين ، بل يتنازلاً عن حقوقهم الفردية في سبيل الجماعة ، ومن الشواهد على ذلك في الإسلام نظام الوراثة ، وذلائق بين الأصول والفرع بلغة الفقهاء ، أو بين الأقارب — أقارب العصب ، وأقارب المحواشى ، فنظام التوارث عبارة عن التكافل الاجتماعي ، بين الأجيال المتعاقبة وبين أفراد الأسرة الواحدة ، وهو نظام يقول به الغرائز الإنسانية ، وتحتيمه الضرورات الاجتماعية ، وتشجع عليه محنة الآباء لأنبيائهم .

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لأن ترك ورثتك أغنىاء خير من أن تركهم حالة يتكفرون الناس . إن نظام التكافل الاجتماعي يوجب على كل فرد في المجتمع الإسلامي مراعاة صالح الجماعة التي يعيش فيها كمراعاة صالح نفسه سواء بسواء . قال رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض) .

وقال رسول الله ﷺ . « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كثيرون ركبو سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مرروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا نحرقنا في تصميمنا

(١) ابن حزم ، في الملل والنحل ج ٤ ص ١٧١ إلى ١٧٦ .

خرقاً ولم تؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن
أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً (١) .

لقد حث القرآن كما حض الحديث على أن يرعى كل مسلم مصلحة
ال المسلم سواء كان أخاه أو أباه أو أخته أو زوجته أو خادمه ، ولا
أدل على هذا المعنى الأخير من معانى التكافل الاجتماعى الذى دعا إليه
القرآن والحديث من قوله عليه السلام . « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

أجل لستنا في مقام الإحصاء الدقيق للمفاهيم الجديدة التي أتى بها القرآن
ال الكريم ، ولكننا نلام إذا أهملنا الحديث عن « مفهوم المساواة في الإسلام »
على النحو الذي شرحه لنا الكتاب الذي نزل على النبي عليه السلام .

والإسلام دين جاء بمحريم التفرقة العنصرية أو الجنسية أو التفرقة على
أساس المال أو الجاه أو السلطان ونحو ذلك .

والرسول نفسه — رغم أنه المثل الأعلى في سمو الأخلاق بشهادة القرآن
ال الكريم كان بحاجة إلى طريقة ترشده أو درس يتعلمها في هذا المفهوم
الجديد ، وهو مفهوم المساواة ، وقد تولى القرآن إرشاده إلى هذا المعنى
وأعطاه هذا الدرس ، يدلنا على ذلك حادثان حصلتا للرسول الكريم في
حياته بمكة .

الأول : حكايته مع الأهلى ، فقد كان الرسول يدرك جيداً أنه إذا
تبحث في إقناع السادة والأشراف من قريش بصدق دعوته جاء إقناع بقية
أهل مكة وبقية الأفراد في القبائل العربية بهذه الدعوة ، وهي حقيقة من
الحقائق التي يعترف بها (رجال الإعلام) . وما زال يؤخذ بها إلى يومنا
هذا ، وقد كان الرسول مشغولاً في يوم من الأيام بإقناع بعض السادة
من قريش ، وإذ ذلك دخل عليه شاب أحى من فقراء مكة يقال له
(عبد الله بن أم مكتوم) وسأل الرسول أن يعلمه بما عاشه الله . فما كان

(١) روى هذا الحديث بصورة كبيرة ، وكلها ترمى إلى مسؤولية المجموعة المحدودة بحدود
المسئولية الاجتماعية والتكافل الاجتماعى :

من الرسول — حكم أنه بشر — إلا أن عبس في وجهه وهو يعلم علم اليقين أن هذا الشاب لم ير شيئاً من هذا العبوس ، غير أن النساء رأت هذا العبوس من النبي ولامته عليه ، وفي هذانزلت سورة عبس (عبس ونوى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدركك لعله يزكي ، أو يذكر فتنفعه اللذكري) أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكي ، وأما من جاءك يسعي ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهي) .

والثاني : من هذين الحادفين اللذين وقعا يمكنا ، أن نفرا من أشرافها وسادتها ذهباً إلى رسول الله في مجلسه وصارحوه بقوتهم : يا محمد إننا نريد أن نستمع إليك وننظر في دعوتك ولا يعنينا من ذلك إلا جلوسك إلى هؤلاء العبيد الذين يحيطون بك وهؤلاء الفقراء الذين لا يلوق بنا أن نجلس معهم جنباً إلى جنب ، وقد جئنا إليك لتدير لنا مجلساً لا يكون فيه واحد من هؤلاء الفقراء أو العبيد ، ولحرصن النبي على أن يؤمن بدعوته سادة قريش وسراهم وقد تهيبوا — في نظره — لشيء من ذلك ، ولأن عمر بن الخطاب استحسن هذا الرأي وأشار على النبي بأن يعمل به من أجل الدعوة ، أظهر النبي لهم شيئاً من القول . لهذا أجمعوا على طلبه وكاد يهيئ لهم هذا المجلس بالصورة التي سألهوا منه ، ولكن النساء لم تسمح بهذه الصورة التي تم عن التمييز بين البشر على أساس لا يرضاه الإسلام فلا يميز بين الناس إلا على أساس التقوى .

ولذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى مخاطباً الرسول :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريلون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تري زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغلقتنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . إنما أعتقدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها » .. إلخ (1).

من هذه الآيات وأمثالها تعلم الرسول — وتعلم الصحابة — كيف تكون

المساواة التي يدعى إليها القرآن فمارسها الرسول في حياته ، ومارسها الصحابة في حياتهم ، ونجح الجميع في تثبيت هذه الصورة في أذهان المسلمين ، وتاريخ الصحابة حافل بالأمثلة على هذه الحقيقة وإن كان عمر أشدهم استمساكاً بهذه المساواة على أكمل صورها — كما شهد بذلك التاريخ ، وربما أتياناً بشهادة على ذلك عند الكلام في عهد عمر بن الخطاب فيباب الرابع من أبواب هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى .

* * *

وأخيراً نأتي إلى مادة من مواد الإعلام في القرآن ، ونعني بها المادة التي تتحدث عن الجنة والنار ، وفيها أوصاف كثيرة لما أعده الله لعياده المؤمنين من نعيم كبير في الجنة ، وما أعده الله تعالى للكافرين من العذاب في النار .

والجنة والنار واليوم الآخر أو يوم الحساب كلها أمور غيبية أخبر بها الرسول الكريم وعنيت بها الكتب السماوية كلها على السواء ، وليس هذا هو موضع بحثنا الآن ، ولكن موضوع البحث هنا هو (القيمة الإسلامية) لهذه الأوصاف التي وصف بها القرآن بنوع خاص — كلاماً من الجنة والنار ، فللي أي حد تأثر المسلمون بهذه الأوصاف ؟ وللي أي حد ترك ذلك أثره في سلوكهم مع الرسول ومع الصحابة إذ ذاك ؟

من الصعب علينا في الواقع أن نخصي الآيات التي جاءت بأوصاف الجنة والآيات التي جاءت بأوصاف النار ، ولكن يمكن أن نذكر أن من أوصاف الجنة أنها كبيرة ومتسعة (عرضها كعرض السموات والأرض) وأنها تحوى من أنواع النعيم والملذات (ملا عين رأى ولا أذن سمعت ولا سلطط على قلب بشر) فيها حور عين ، وولدان مخلدون ، وأكواب وأباريق وكأس من معين ، وأنهار من لبن وأنهار من عسل مصفي ، وغير ذلك مما تشهي النفس البشرية من ألوان الشراب والطعام إلى آخر هذه الأوصاف التي حفل بها القرآن الكريم والتي قلنا إننا لا نستطيع ولو حرصنا أن نخصي بعضها في هذا الفصل ، ترى ماذا كان هذه الأوصاف من أصداء في

نفوس المسلمين منذ قرآن عليهم الرسول هذه الآيات ؟ لقد أخبرنا التاريخ أن المسلمين الذين سمعوا هذه الآيات تبدل حرصهم على الحياة وتقديرهم لها سخرية بهذه الحياة وبيعها في سبيل الله تعالى ، وهذا هو السبب الذي من أجله تتسابق المسلمين الأولون في ميدان الاستشهاد أو الجهاد في سبيل الله .

ولماذا لا يتتسابقون إلى ذلك ؟ ألم يعدهم الله بأنهم سينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى حياة أفضل منها ، وأنهم سيصلون بهذه الأعمار التصبرة أهارا طريرة لا يملؤون فيها طعم الموت ولا طعم العذاب الذي وجدوه في الدنيا ؟

إن رجل الإعلام إذا نظر إلى هذه المادة من مواد القرآن وإلى التأثير الذي أحدثه في نفوس الناس عندما أصبحت هذه المادة جزءاً من نسخ عقولهم شيئاً يختزج بأرواحهم ودمائهم لاحقن له أن يهمل الحديث عنها أو التنويه بها ، والتاريخ حافل بآلاف الشهادة على المسلمين والمسلمات وعلى الرجال والصبيان الذين يتتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله حتى لقد أقبل على الجهاد من أعفاهم الله من عباء الجهاد ، فقد قال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) ومع ذلك فقد كان عمر وبين الجموع رجلاً أعرج وله أربعة أولاد وكان لهم جميعاً شرف الغزو مع رسول الله فلم يكتف أبوهم بذلك حتى ذهب واستأذن رسول الله في أن يخرج مع أولاده للغزو ليكون له شرف الاستشهاد في سبيل الله فأحاله الرسول إلى قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج) وألح الرجل أن يخرج إلى الغزو في سبيل الله وهو أعرج فلم يسع رسول الله إلا أن أذن له .

وبحدثنا التاريخ كذلك عن أمهات وزوجات كن ينافسن أولادهن وأزواجهن على بلوغ هذا الشرف ، حتى لقد كانت واحدة من أولاء تدافع عن الرسول في غزوة أحد ، وقد أحدق به المشركون بيريدون

قتله ، وكانت الفرصة مواتية لهم للإقدام على هذا العمل ولكن قوة الإيمان عند بعض الصحابة إذ ذاك ، ومنهم هذه السيدة — هي التي حست الرسول من هذا المصير ،

وقل مثل هذا في كثير من الصبية الذين تطوعوا للقتال في صف الرسول قبل أن يبلغوا الحلم ، ويقدروا على حمل السيف أو الرمح ، وكان الفلان والصبية يفعلون ذلك بوازع من خواصهم وإيمانهم أولاً ، وبدافع من أحياهم المسلمات بعد ذلك .

ولا يسمح لنا الحال في هذا الفصل أن نسترسلي في ضرب الأمثلة والإتيان بالشهادة الكثيرة التي تدل دلالة كبيرة على القيمة الإعلامية لهذه المادة من مواد القرآن — ونعني بها الأوصاف الممتعة أو المذهلة التي وصف بها الجنة والنار ،

وهكذا نرى أن القرآن الكريم كان ضرباً رائعاً من ضروب الإعلام على يد رسول الله الكريم ، بما أتى به من قيم ومقاصid جديدة تختلف كل الاختلاف عن القيم والمقاصid في عصر الجاهلية ، بل كان من أسباب نجاح وسائل الإعلام في الإسلام على وجه الإطلاق .

الفصل الثاني الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية

كان رسول الله ﷺ معلم هذه الأمة ، وكان قبل ذلك داعية لهذا الدين الذي دخلت فيه هذه الأمة ، ومن أجل هذا حملت خطب النبي ﷺ وأحاديبه طابعَنَ في وقت معاً ، وها :

- ١ - طابع التعليم والإرشاد والهداية ،
- ٢ - طابع التبشير والدعوة أو الدعائية ،

والطابع الأخير هو الذي يعنينا في هذا الفصل ، ولعل أكبر شاهد على هذا الطابع أحاديبه ﷺ في موضوع الجهاد ، والجهاد كان ولايزال من أقوى وسائل الدعوة الإسلامية ومن أعظم أسباب انتشارها - كما نعلم - ومن أبواب الفقه الإسلامي باب يسمى باب الجهاد - نوه فيه الفقهاء بأجر المهاجرين في سبيل الله ، واعتمدوا في ذلك على كثير من آيات الكتاب الكريم وحدد عظيم من الأحاديث النبوية .

وفي كتب الحديث طائفة صالحة من كلام الرسول في هذا الباب ، فإذا وجمعنا إلى كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم الهولندي ونستك^(١) وجدا للبخاري خمسة وخمسين حديثاً في هذا المعنى . ولمسلم تسعة وستين و للترمذى خمسة وأربعين ، ولابن داود ثمانية وثلاثين . وللسناني وأحداً وخمسين . ولابن ماجه التين وثلاثين .

وهؤلاء هم أشهر من جمعوا حديث رسول الله ﷺ ، وهم خبر من تحرروا في جمعه كل الصدق والدقة وتحملوا في سبيله كل ما يمكن أن تتصوره من تعب وكد ومشقة .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، راجع باب الجهاد في هذه الترجمة من ١٢٩ .

ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال (رباط يوم في سبيل الله
خير من الدنيا وما فيها ، والروح يرها العبد في سبيل الله أو الغدوة
خير من الدنيا وما عليها) .

ومنها : (إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهد في سبيله
كل درجتين مما بينهما كما بين السماء والأرض) .

ومنها : جاء رجل إلى النبي صلى عليه وسلم فقال : « يا رسول الله
ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أخذنا يقاتل غصباً ويقاتل حمية ، فرفع
إليه النبي عليه السلام رأسه وقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو
في سبيل الله عز وجل » .

وفي الحديث الآخر ما يدل على اختلاف مفهوم القتال في الجاهلية
عنه في الإسلام . فالقتال في الجاهلية عن حمق وحمية وعصبية ، والقتال
في الإسلام عن رغبة صادقة في إعلان كلمة الله واعتقاداً بوجوده ،
ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بغزو
مات على شعبة من نفاق » .

وخرج رسول الله على جماعة من المسلمين فيهم ابن عباس . فقال :
(ألا أخبركم بخير الناس مزلاة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال :
رجل مسكت برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل) .

ومن أحاديثه عليه السلام في هذا المعنى كذلك : (من شاب شيئاً في سبيل
الله كانت له نوراً يوم القيمة) .

ومن أشهر أقواله عليه السلام (الجنة تحت ظلال السيف) .

* * *

الحق أن كل واحد من هذه الأحاديث وأمثالها كان بمثابة « شعار »
لثورة الجديدة التي أتى بها الإسلام ، ونحن نعلم أنه لا غنى لكل ثورة
عن الشعارات ، ووظيفة الشعار في كل ثورة هي تلخيص العمل الذي
جاءت من أجله أو الأفكار التي أتت لإعلانها والمناداة بها ، ومن أجل

ذلك نرى كل زعيم من الزعماء في كل ثورة من الثورات يجتهد في صياغة هذه الشعارات ويحاول بعد ذلك أن يردها ، ويكتُر من ترديدها بين الناس حتى يمحظها الناس عن ظهر قلب . وبذلك تصبح هذه الشعارات قدرة كبيرة على الإيحاء ، وعليها يعتمد الزعماء في إذكاء شعور الجماهير وفي سرعة اعتناقهم للفكرة الجديدة أو العقيدة الجديدة أو الدعوة الجديدة .

من أجل هذا وجدنا في أحاديث الرسول الكريم مادة قوية تصالح لكل ثورة من الثورات الإسلامية ، فلم يكُن بال المسلمين عصر من العصور ينتقلون فيه من دور إلى دور ، أو من نظام إلى نظام ، ومن خلافة إلى خلافة أو من ملك إلى ملك : أو من مذهب إلى مذهب إلا واعتمدوا فيه اعتماداً قوياً على الأحاديث النبوية ، وأخذوا منها ما يتفق ودعوتهم أو فكرهم ومذهبهم ، ذلك أن الشعب الإسلامي لا يسمع حديثاً من أحاديث النبي ﷺ إلا وترك في نفسه من الأثر العميق ما لا تتركه وسيلة أخرى من وسائل الاعلام أو الإرشاد وذلك باستثناء القرآن الكريم .

وهذه حقيقة ثابتة لا تتحمل الجدل ولا يرقى إليها الشك .

الاترى أن الأئمة في جميع المساجد بالبلاد العربية في وقتنا هذا يسلّحون أنفسهم ويملاون خطبهم بمثل هذه الأحاديث في معنى الجهاد ضد إسرائيل؟ ولو خلت خطبة من الخطب الدينية من بعض هذه الأحاديث النبوية قلت قيمتها وانصرف الناس عنها .

ولنستطرد قليلاً فنقول إنه لعل من أبرز الأدلة التاريخية على استغلال الأحاديث التيسوية ما قامت به الخلافة الأموية ، ثم الخلافة العباسية ، ثم الخلافة الفاطمية ، من الاعتماد في دعائهما السياسية على هذه المادة .

وسنكتفي هنا بضرب المثل بما فعلته الخلافة الأموية وما قامت به هذه الدولة من الدعاية القوية ضد الإمام علي بن أبي طالب . فقد روت لنا بعض الكتب الأدبية أن الدولة الأموية عمدت إلى تحريف الأحاديث أو إلى

اختلاقها وإسنادها إلى رواة ثقات حتى يصدقها الناس فور سماعها مسندة إلى أولئك الرواة .

ومن هذه الأحاديث التي يشتم منها أنها موضوعة لغرض من الأغراض حديث فيه طعن ظاهر على الإمام على بن أبي طالب : (روى عن عروة ابن الزبير أنه قال : حدثني عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كنت عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أقبل العباس ، وعلى ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا عائشة إن هذين (يشير إلىهما) (يموتون على غير ملئ) (١))

وأغرب من هذا وذاك أن في هذه الكتب رواية عن معاوية بن أبي سفيان تقول إن معاوية بدل سمرة بن جندب مائة ألف درهم ليقرأ الآية الكريمة ، « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصوم ، وإذا ثولى سعي في الأرض ليقصد فيها ويملك الحرش والنسل ، والله لا يحب الفساد » وأمره معاوية أن يقول إنها نزلت في على (٢) ثم أمره معاوية بعد ذلك أن يقرأ الآية :

« ومن الناس من يشري نفسه ابتعاداً عن رضيات الله » ويقول إنها نزلت في عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ، ولكن الفقيه سمرة بن جندب لم يقبل ذلك ، فبدل له معاوية مائة ألف درهم فلم يقبل ، فبدل له معاوية أربعمائة ألف درهم فقبل ، وكان لكل شرف نقطة انتصار — كما يقول الإنجليز — ودرجة الانتصار عند هذا الفقيه وصلت إلى هذا الرقم ، ومن حق المؤرخ أن يشك في هذه الروايات وأمثالها — مما نسجه الخيال حول معاوية ولكنها في نظر رجل الإعلام والدعابة لا تخلي مطلقاً من دلاله ، وهي أن رجال السياسة في تلك العصور كانوا يلجأون إلى طرق كثيرة لكسب الجماهير إلى جانبهم ، ومن هذه الطرق تفسير القرآن بما يناصر دعوتهم .

ومن هذه الطرق أيضاً تحريف الأحاديث أو اختلاقها بحيث تدخل

(١) كتاب شرح النهج لابن أبي الحديد بـ ١ عن ٥٨ .

(٢) نفس المصدر من ٣٥٨ .

في وجوه الجماهير أن القادة أو الساسة على حق وأن خصومهم على باطل
وهنا يظهر الفرق واضحاً بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء .

فالدعاية البيضاء تقوم على أهداف شريفة وتستعين على غاياتها
بالأحاديث الصحيحة .

أما الدعاية السوداء فإنها تبيع نفسها تحريف الأحاديث واحتلاتها
وتفسير الصحيح على غير الوجه الذي قيلت فيه :

وقد كان معاوية يحس إحساساً قوياً بحاجة إلى تثبيت ملكه وتأييده
سلطانه والدفاع عن هذا السلطان ضد هذه الشخصية الرهيبة التي لا يمكن
التغلب عليها بالطرق المستقيمة وهي شخصية على بن أبي طالب :

ففتح وإن كنا لا نميل إلى تصديق الروايات التي نقلناها عن ابن أبي
الحديد فإننا نضع في اعتبارنا معنى لامف منه وهو كراهة الشيعة لمعاوية بن
أبي سفيان ، ومن الجائز أن تكون هذه الكراهة هي التي حملتهم على نسبة
هذه التصرفات إلى معاوية .

مهما يكن من شيء فإنه إذا صحت هذه الروايات فإنها تذكر رجل
الإعلام والدعاية بالمساومات التي تحدث أحياناً بين بعض أصحاب الصحف
من جهة وكبار المعلقين والساسة المفترضين من جهة ثانية ٧

فإذا جاء أحد من الساسة أو الرأسماليين وعرض على صاحب جريدة
من الجرائد مائة جنيه لكي يتنازل عن نشر مقال من المقالات التي تقارب
سياسته أو تضر برأسه فإنه لا يقبل هذا المبلغ ، فإذا عرض عليه السياسي
أو المعلن مائتين فإنه لا يقبل أيضاً وتمضي المساومة بينها حتى يعرض
السياسي أو صاحب رأس المال مبلغاً يقرب من ألف جنيه فإن صاحب
الجريدة في هذه الحالة قد يقبل ، وهذا هو سلطان رأس المال على الصحافة
وبهذه الطريقة كان الملوك والسلطانين والخلفاء في بعض عصور الإسلام
يتغلبون على الفقهاء وهم الذين يمثلون الرأي العام الإسلامي يستغلونهم بالعادة
ويشررون ضمائرهم بالمال ويستخدمونهم لتحقيق أغراضهم بمثل هذه الطرق .

وإن الفقهاء في تلك العصور الماضية كانوا كالصحفيين في الوقت الحاضر ، منهم من كان له ضمير حي وخوف صحيح من الله ورعاية تامة لمصالح الرعية وشجاعة نادرة في مواجهة السلطان ، و منهم من كان رقيق الدين غير مكترث بمصالح المسلمين فهو لا يرغب في أن يقوم بالواجب الذي فرضه عليه الدين والضمير .

* * *

لقد استطعنا في الكلام عن الأحاديث النبوية وطرق استغلالها في الأمور السياسية لتقديم الأدلة الواضحة على أن لها قدرة دعائية لزدادت مع الأيام قرة .

غير أننا يجب أن نقول في هذا الفصل أن الأحاديث النبوية كانت تتماشى مع الدعوة الإسلامية ومع القرآن ، وذلك في عهد الرسول وفي عهود الخلفاء الراشدين ، وأنها كانت قوة هائلة في نشر الدين والعمل بالقرآن وذلك ، على الوجه الذي لا نظير له في أية فترة أخرى من فترات الإسلام .

ذلك أن الرسول عليه السلام كان في جميع أحواله ، وفي كل ما ينطق به من أقوال وأحاديث يمثل القرآن الذي تزل عليه وصدقت السيدة عائشة أم المؤمنين حين سئلت عن خلق الرسول فقالت عليه السلام « كان خلقه القرآن » .

ونختم الكلام عن الحديث بهذه العبارة التي أوردها الأستاذ(١) أحمد أمين وفيها يقول : وبعد — فقد كان الحديث — سواء منه ما كان صحيحًا أو موضوعاً — أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الإسلامي . فقد أقبل عليه الناس يتدارسونه إقبالاً عظيماً وكانت الحركة العلمية في الأمساك تكاد تدور عليه .

وعن طريق الحديث انتشرت في العالم الإسلامي أنواع من الثقافة

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧٦

عدة : فالتأريخ الإسلامي بدأ بشكل الحديث . . . وقصص الأنبياء وما إليهم
مجاهات في القرآن وتوسيع فيها أصحاب الحديث . ثم توسيع فيها القصاص ،
وظهر القصاص ومعه الحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة اليونان .
والمهند والفرس ، ووضعت كل هذه المواد وضعاً في الحديث وانتشرت
 بين الناس على أنها دين . فكان لها من الأثر في الناس ما ليس للتعاليم
 الدينية . وفوق ذلك كان الحديث منبعاً للتشريع والمسائل المدنية والجنائية ،
 وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة لعلم ولثقافة في ذلك العصر .
أجل ، كان الحديث أوسع مادة لعلم ولثقافة وقد أثبتنا في هذا الفصل
كيف أن الحديث كان – إلى جانب هذا وذاك – أوسع مادة للدعية . فقد
اعتمد عليه الحكم في الترويج لسياستهم ، كما اعتمد عليه أهل المذاهب
 الدينية لنشر مذاهبهم ، ومن هنا كثُر فيه الوضع ، وذلك تبعاً لكثره
 الدواعي التي دعت إلى هذا الوضع .

الفصل الثالث القدوة الحسنة

والقدوة الحسنة مبنية على غريزة من غرائز الإنسان هي غريزة التقليد أو الحاكمة ، ولهذه الغريزة الإنسانية تأثير فعال في ميدان الإعلام وميدان الإعلان وميدان التربية والتعليم على السواء ، ولذلك يعتمد عليها رجال هذه الميادين كلها بدون استثناء ، فالمربون والمعلمون في جميع مراحل التعليم يسوقون إلى الشباب أمثلة كثيرة للبطولة والأبطال . وذلك في كل مجال من مجالات العمل والكفاح ، كمجال العلم ومجال الكشف ، و المجال الأدب ، فضلا عن مجال الحرب والجهاد .

والمعلونون ورجال التسويق يجذبون الناس إلى بضمائهم بطرق الإعلان المختلفة ، ومنها طريقة الترغيب في هذه السلعة أو تلك – ولتكن نوعاً من المنسوجات بأن فلاناً من العظاء أو اللامعين في المجتمع يؤثرونها على غيرها من الأنواع الأخرى .

ورجال الإعلام – هم الذين يقومون بتوسيع الناس بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة – ينظرون إلى القدوة الحسنة على أنها وسيلة من وسائل الإعلام تغنى في ذاتها عن بذلك الجهود الإعلامية في سبيل دعوة ينشرونها أو فكرة يدعون إليها أو عقيدة أو سياسة جديدة ينشرون بها ونحو ذلك ، وسنرى في تاريخ الإعلام في صدر الإسلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان من أنجح أساليبهم في نشر الدعوة الإسلامية أسلوب (القدوة الحسنة) .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» وهذا ما فعله الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ثم هذا ما فعله بقية أصحاب الرسول من أمثال

عبد الرحمن بن عوف وغيره من كانوا مثلاً أعلى في مجال القدوة الحسنة ،
ولابد أن تاریخ الرسول والخلفاء الراشدين من بعده و تاریخ الصحابة
رضوان الله عليهم كان ينحصر في هذا المعنى .

لقد أثبتت التاریخ أن الرسول كان مضرب المثل في معاملة المسلمين
وغير المسلمين .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في صفة الرسول « وإنك لعلى خلق
عظيم » ، كما أثبتت التاریخ أن كل واحد من صحابة الرسول كان مضرب
المثل في القيم الجديدة التي دعا إليها الدين الجديد ، وفي تحقيق الأهداف التي
رسمها الرسول .

أجل — أبو بكر — وكان رجلاً مرموقاً في الجاهلية — حين دخل
الإسلام — وهو أول من دخله من الرجال وهذا حلوه كثير من أصحاب
رسول الله ، فدخلوا معه هذا الدين الجديد ، كان قدوة حسنة ، أبو بكر
الصديق حين رأى ما عاناه العبيد من العذاب الشديد على أيدي سادتهم
الذين لم يسمحوا لهم بدخول الإسلام اشترأهم بماله الخاص ، ثم اعتقهم
وتركهم أحراراً في اعتناق الإسلام ، نقول : أبو بكر حين فعل هذا كله كان
بلا ريب قدوة حسنة .

و عمر بن الخطاب حين سمع بأن أخته استجابت المدعوة محمد عليه الصلاة
والسلام غضب ذلك وحمل سلاحه واقتصر عليها بيته يريد أن يقتلها فوجدها
تقرأ في صحيفه في يدها بعض آيات الكتاب فأخذ الصحيفه من يدها وقرأ
ما فيها فتأثر قلبه ووضع السلاح من يده وذهب مسرعاً إلى الرسول — وكان
يومئذ في دار الأرقام — ودق الباب بعنف فخرج رسول الله بنفسه وحاول
أن يبعده عن الدار ، فأعلن عمر إسلامه وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمد رسول الله ، فصاح الجميع ! الله أكبر ! الله أكبر ، نقول : عمر
حين فعل هذا كله كان بلا ريب قدوة حسنة .

وعثمان بن عفان حين تبرع بكل ماله لتجهيز حملة أو غزوة من غزوات .

الرسول ، فقال له الرسول الأعظم : وماذا أبقيت لأولادك يا عثمان ؟ قال له أبقيت لهم الله ورسوله ، نقول إن عثمان بن عفان حين فعل هذا كله كان يدوس شلت قدوة حسنة .

وعلى بن أبي طالب حين نام في مكان الرسول ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة ونخاطر بنفسه ورروجه ودمه في تلك الليلة ومكمن الرسول وصاحبها أبو بكر من التخروج في جنح الليل وجنود المشركين رابضون على باب المزول ، نقول : إن على بن أبي طالب حين فعل كل هذا كان بلا ريب قدوة حسنة ، وقل مثل هذا في بقية صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونخص بالذكر منهم العشرة المبشرين بالجنة وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن معاذ ، وأبو عبيدة بن الجراح ، والذى لا شك فيه أن النبي صلوات الله عليه بشرهم بالجنة حين رأى بنفسه وسمع بأذنه أن كل واحد منهم كان قدوة حسنة .

ويطول بنا القول لو أخذنا نذكر الأمثلة التي ضربها كل واحد من هؤلاء في مجال القدوة الحسنة وليس ذلك غاية لنا في هذا البحث ، لأن مجاله كتب التاريخ والسيرة وغيرها . المهم أن الرسول وأصحابه نجحوا في تمارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام والتأثير في نفوس الجماهير كان نجاحهم في الوسيلة لا يقل عن نجاحهم في الغزوات والبعث وغيرها من الوسائل الإعلامية الأخرى ، وهكذا نجد أن الإسلام قام في حياة الرسول على درقة أبي بكر وعلى حزم عمر وعلى بذل عثمان وعلى فدائته على بن أبي طالب ، إذ كل واحد من هؤلاء الأربع كان أمة وحده في مجال القدوة الحسنة وهي القدوة التي اقتدى بها بقية الصحابة أولاً — كما اقتدى بها المؤمنون الأوائل بعد ذلك ، وجميع هؤلاء كانوا قدّوا حسنة في الجهاد في سبيل الدين ، وذلّك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

القدوة الحسنة وصاحب الدعوة

ولكن مما لا شك فيه أن المثل الأعلى في القدوة الحسنة إنما كان يتمثل في الرسول نفسه ﷺ فقد كان المثل الأعلى في الصبر ، ولذلك تكرر له الأمر من الله تعالى بالصبر وخاصة في العهد المكي قال تعالى : في سورة (ن) وهي السورة الثالثة في تاريخ النزول « فاصبر لحكم ربك » إلخ .

وقال تعالى في السورة الرابعة في تاريخ النزول وهي سورة المزمل « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرةً جميلاً » ، والمدقق في السورة النبوية يرى أن النبي ﷺ التزم خطة الصبر في نشر الدعوة وكان أكثر ما صبر عليه في الحقيقة أمران هما :

- ١ - أذى المشركين في مكة .
- ٢ - وال Herb الباردة بيته وبين المنافقين في المدينة .

أما أذى المشركين في مكة فقد ضمّن به صدر الرسول عشر سنوات كاملة ذلك لأنه كان شديداً في حرص على هدايهم . ونزل عليه قوله تعالى آياته لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » ونزل عليه قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، وقوله تعالى : « إنا لننصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا » : وقوله تعالى : « ولقد كذبنا رسلاً من قبلكم فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصراً ، ولا يبدل لكلمات الله ولقد جاءكم من نبأ المرسلين » وإن كان كبر عليكم إعراضهم فإن استطعتم أن تهتغى نفقتاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأنتم بهـة ، ولو شاء الله جمعهم على المدى فلا تكونون من الجاهلين »

إلى هذا الحد بلغ الغضب والحزن برسول الله ﷺ على إعراضهم عن دعوته ، وإلى هذا الحد شدد الله تعالى في لوم رسوله على هذا الغضب أو الحزن .

على أن الكفار سلكوا كل طريقة ممكنة في رد محمد عن دعوته ولم يبق أمامهم إلا أن جمعوا كبراءهم وعلى رأسهم أبو سفيان وذهبوا للقاء

عنه أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آهتنا وعاب علينا وسفه أحلامنا وضلل بأياتنا فلما أن تكفره عنا ، وإنما أن نحملن بيتنا وبيته ، ولكن أبا طالب ردهم ردأجحيملا وأفهمهم أن التهم التي يوجهونها لحمد مبالغ فيها فإن محمدًا لم ينند بالتهم لأن القرآن نفسه ينهي عن ذلك في قوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم » فلما لم يصل المشركون إلى هدفهم ذهبوا مرة أخرى إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفًا ومنزلة فيينا ، وقد سألك أن تتصفنا من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنما لا نصبر على شتم آياتنا وسفه أحلامنا ، حتى تكفره عنا أو تنازله وإياك ، فكانت هذه العبارات بمثابة البلاغ النهائي والإشعار بالحرب القومية أو الفتنة الأهلية التي لا يعلم مداها إلا الله .

فأرسل أبو طالب إلى النبي يقول له : أبق على نفسك وقومك يا ابن أخي ولا تحملني مالا طاقة لي به ، فما كان من النبي إلا أن زاده الأزمة إيماناً بالله وإصراراً على موقفه من قريش : واتجه من فوره إلى عمه أبي طالب يقول له (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

فازداد العم تقديرًا لابن أخيه ، ووقف إلى جانبه في أحرج صاعات المطر ، وقال للرسول (اذْهِبْ يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله إن أسلمك لشيء أبداً) .

محمد المثل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين المنافقين بالمدينة :
على أن شر ما من النبي به في حياته شيئاً هما : الفاقع والمنافقون من جهة وترويع الشائعات المضادة من قبل أولئك المنافقين من جهة ثانية ، وقد ضرب النبي أروع المثل في صبره على هاتين الجهتين ونصره الله في كلتا الجهتين ، وكان قدوة للمسلمين في هذين الموقفين .
وقد تعرض النبي لكل هذا الأذى وهو بالمدينة أى بعد هجرته إليها

من مكة ، وكان بالمدينة رجل أسلم على نفاق – هو عبد الله بن أبي بن سلول ، ويعرف في تاريخ الإسلام بكثير المناقش ، وكانت له منزلة كبيرة بين قومه حتى ليخيل إلى الناس أنه كان يريد أن يربى أميراً على جميع من بالمدينة ، ولذلك كان يغار كثيراً من الرسول ويحمل في قلبه حقداً دفينًا ضده : وأوضح ما ظهر حقده هذا على النبي ﷺ في حادثتين رواهما التاريخ .

الأولى : حادثة الشاعة الخطيرة التي أشاعها (عبد الله بن أبي) ليفرق بينها بين المهاجرين والأنصار في المدينة حتى لا يجد المهاجرون لهم مفرأً من الخروج بأنفسهم وأهلهم عنها – وتفصيل ذلك أنه حدث أن أجيراً لعمر ابن الخطاب أصطدم بخليف قبيلة الخزرج فضربه أجير عمر ، فنادى خليف الخزرج : يا معاشر الخزرج ، ونادى أجير عمر يا معاشر الأنصار وكادت تكون فتنة بين الفريقين فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوة الجاهلية ! فأخبره القوم بما حدث . فقال ﷺ : دعوها فإنها كلمة حبطة متنعة . . فغضب عبد الله بن أبي – وكان معه جماعة من قومه (أى من قبيلة الخزرج) وفيهم غلام يقال له زيد بن الأرقم ، ثم أخذ عبد الله بن أبي ينطق بكلمات فيها تهديد للمهاجرين بأن الأنصار آروهم ، ومنها قوله : (والله ما رأيت كالليوم مذلة . . أو قد فعلوها) ؟

نافرنا وكافرنا في بلادنا والله ما أظنتنا ورجال قريش إلا كما قال الأقدمون في أمرهم : (سمن كلبك يا كلبك) أما والله لئن رجعوا إلى المدينة ليخرجون الأعز منها الأذل (يعني بالأعز نفسه والأذل النبي) ثم أقبل على من حضره من قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحلتموه بلاذكم ، وقادتموه أموالكم أما والله لو أمسكم عنهم ما يأبه لهم لتحولوا إلى غير داركم ..

وسرت الشاعة في أرجاء المدينة كالبرق ، فقد ذهب الغلام (زيد بن الأرقم) يبلغ رسول الله بما حدث وما سمع فتغير وجه الرسول وقال : يا غلام

لعلك خضبته منه ؟ قال العلام : لا . فقال الرسول : لعله أخطأ في عملك ؟ فأصر الغلام على أن نقله صحيح ، ثم زاد على ذلك : وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصلق حديبي .

وكان عند الرسول عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله من عبادك يبشر فليقتل عبد الله بن أبي ، فقال الرسول : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟

واتسعت الشائعة في المدينة ولم يكن للناس حديث إلا فيها ، فأمر الرسول أن يؤذن للمهاجرين بالرحيل عن المدينة ، وكانت ساعة لم يكن لرسول الله أن يرحل فيها لشدة الحر ، ولكنه أرتحل بالناس ليشغلهم عن الحديث في هذه الشائعة وبلغ ذلك يهود ما كان يخافه من الخرج ، وهدأت التفوس بعض الشيء ، ثم لم يلبث أن نزلت عليه سورة المنافقين وفيها يقول الله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنافقوا على من عند رسول الله حتى ينقضوا والله خرائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفهمون » يقولون لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجون الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ولإذ ذلك مشي عبد الله بن أبي إلى رسول الله وخلف له بالله أنه ما قال بهذا القول ولا تكلم به ، واعتذر الأنصار لرسول الله واتهموا الغلام أنه لم يحفظ ما قال ابن أبي ، وقال بعضهم للنبي : فأت يا رسول الله تخر جهمن المدينة إن شئت وهو الذليل وأنت العزيز . ثم قالوا له : يا رسول الله أرفق به فلقد جئناه وإن قومه لينظرون له الخرز ليتوجوه ما كان وإنه ليرى أنك قد استتببت هذا الملاك .

والثانية : من الحوادث التي سعد فيها كبير المنافقين (عبد الله بن أبي ابن سلوان) على الرسول وقابلها الرسول يصبر عظيم ، حادثة مشهورة في حياة النبي تعرف بحادثة (الإفك) وقد وجد كبير المنافقين في هذه الحادثة فرصة طيبة لترويج شائعة طعن بها شرف السيدة (عائشة أم المؤمنين) وكانت ساعة

حرجة لم ير النبي ﷺ في حياته أشد منها ، لو لا أن الله تعالى نبى الرسول منها وأظهر له الحق فيها ، وذلك حيث قال تعالى في سورة النور : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِالْإِلْفَاظِ عَصْبَيْةً مِّنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بِلَهُ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لَكُلُّ أَمْرٍ » منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لو لا إذ سمعتكموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً و قالوا هذا إلفاظ مبين ، لو لا جاءوا عليه بأربعة شهادة فإذا لم يأتوا بالشهادة فأولئك عند الله هم الكاذبون ولو لا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيها أفضى فيكم عذاب عظيم ، إذ تلقونه بأسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبوه هيناً وهو عند الله عظيم ، ولو لا إذ سمعتكم قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله علیم حكيم » ،

هكذا كانت حادثة الإلفاظ وما دار حولها من الشائعات مأساة كبيرة في حياة الرسول ، ولتكن الرسول صبر عليها ولم يسيء معاملة زوجه ، وانتظر حتى جاءه الوحي الذي يرأها من هذه الهمة الشنيعة التي لا تتفق وريمة النبوة ، ولا تتفق وسمعة رجل كأبي بكر كان من أشرف الناس في الجاهلية فكيف يتأى عنده الشرف أو يتأى هو عن الشرف في الإسلام ،

هكذا كانت المحراب بين النبي والمنافقين حرباً قائمة على الشائعات ولو نجحت واحدة منها في بلوغ المدف منها لسكنت خطرة على الدعوة وصاحب الدعوة ، وكانت كفيلة بهدم الإسلام في مهده و هدم الرسول في أول مجده ، ولتكن الله حماه و حمى دعوته من جميع هذه الشرور والآفات والشرور .

هكذا كان الرسول مثلاً أعلى في القدوة الحسنة لجميع المسلمين . كان مثلاً أعلى في الصبر وفي الحلم ، وهذا كله من حسن سياسته ﷺ ومن توفيق الله له في تأدية رسالته .

ثم هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يقتدون بالرسول في جميع

أقوالهم وأعمالهم وحركتهم وسكناتهم ، فكتب الله لهم النجاح في إقامة هذا الدين ثم صيانته وتنميته بكل مافي وسعهم من عزم وإيمان وقوة ثم أتموا نشره بعد ذلك بطرقين هما القدوة الحسنة من جهة والسيف من جهة ثانية .

• • *

لقد قلنا غير مرة أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ، نشر الدعوة وحارب من أجلها سلاح الأخلاق قبل سلاح الجند والرماح ولو لا محسن الأخلاق لما حظى النبي عندهم — أي العرب — بكل هذا التقدير — حتى من أعدى أعدائه — وهو أبو سفيان — وكثيراً ما سمعنا عن بعض اليهود والنصارى أنهم دخلوا الإسلام مجرد اقتناعهم بسمو أخلاقه وحسن معاملته وجميل معاشرته وبلغوا في كل ذلك الدرجات العليا من درجات القدوة الحسنة .

إن القدوة الحسنة هي من أنجح الأساليب والوسائل للاتصال بالناس ، ومن ثم وجب على كل زعيم أو حاكم أو قائد أن يكون قدوة طيبة لغيره متى أراد لنفسه النجاح في الفكرة أو العمل الذي جاءه يدعو له .

الفصل الرابع

الاتصال الشخصي والجماعي

وأثره في نشر الدين وجمع كلمة المسلمين

إن الذي لا شك فيه أن الاتصال الشخصي في ذاته أساس بضم جميع العمليات الإعلامية من حيث هي ، ومن بينها العملية الإعلامية التي تعرف (بالعلاقات العامة) والعملية التي تعرف (بالإعلان) ولكن الاتصال الشخصي أكثر ما يؤثر في الحقيقة في ميدانين خطيرين هما ميدان الدعوة وميدان الدعاية ، والقدرة على ممارسة الاتصال الذي من هذا النوع شرط في نجاح العمليات الإعلامية التي أشرنا إليها ، ذلك أنه يلعب دوراً خطيراً في الإعلام على جميع المستويات ، ومن البخدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصي وتنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير في الجماهير أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة^(١) .

والهم في هذا الاتصال هو مدى ثقة الجماهير في مصدر الإعلام ، لأن هذه الثقة هي الأساس الذي يبني عليه الجماهير تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية . ويعلم الباحثون من أمثال لازر سفيال وكارتر وغيرهما سر تفوق الاتصال الشخصي في التأثير بأنه « إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التي لا تتفق مع آرائهم وموتهم فإنه ليس من السهل أن يتجنّبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم وخاصّة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفاً ، كما يتبع النقاش المباشر مرونة أكبر في عرض وجهات النظر والتأثير في الناس »^(٢) .

وربما أنه من أجل ذلك تعب الرسول تعباً شديداً في ممارسة هذه

(١) د. إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير .

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

الوسيلة من وسائل الإعلام مع قومه ومواطنيه في مكة — وغیرها من مدن الحجاز وذلك في العهد الأول من عهود رسالته وهو العهد المكى بالذات ، ذلك أن الرسالة التي جاء بها صلوات الله عليه — لقيت تفورة واعتراضًا كبيراً من جانب العرب في مكة ، وإن كانت تربطه بهؤلاء المكين وشائخ القرى لأئمهم من قريش ومحمد من قريش ، ومن ثم لم يكن غريباً ما سمعناه عن الأذى الذي لقيه من بعض أعمامه وهو — أبو طلب — وقد بالغ هذا الأخير هو وزوجته في إعنتات الرسول حتى نزلت سورة من سور القرآن الكريم في ذمتهما ، وفيها يقول الله تعالى :

« تبت يداً أبا طلب وتب « ما أطهروا عنده ماله وما كسب « سيصل ناراً ذات طلب « وامرأته حالة الخطب « في جيدها حبل من مسد « .

وهذا معنى قولنا أن الرسالة الإعلامية لا تؤثر في الأفراد أو الجماعات مباشرة ولكن تؤثر فيهم من خلال قادة الرأي في المجتمع ، وإذا كانت الدعوة الجديدة لا تتفق مع آراء زعماء قريش ومواليهم فقد كان من الصعب أن تتأثر بها جموع مكة والطائف وغیرها من المدن في الحجاز ، ومع هذا وذاك فلم ينصرف الرسول في بعض الأحيان عن ممارسة الاتصال الشخصي بهؤلاء القادة والزعماء .

وتفق الرسول يمارس هذه الوسيلة الفعالة في أول الأمر مع العامة والقراء ، وقد رأى هؤلاء في العقيدة الجديدة تحريراً لأنفسهم من قيود وأغلال كبيرة ، ولم تكن لهم أموال ضخمة يخشون عليها ولا تجارة عظيمة يخافون كسرادها ولا زعامات كبيرة يضسون بها .

وأخذ الرسول يعرض نفسه على القبائل العربية هنا وهناك ويحاول أن ينالش أفرادها سواء كانوا من الأغنياء أو القراء وذلك على النحو الذي سنشرحه هذا البحث عند الكلام عن مراحل الدعوة وأسباب نجاحها على يد الرسول .

ومهما يكن من شيء فإن أكثر ما استند الرسول على وسيلة الاتصال

الشخصى كان فى المراحل الأولى من الدعوة ويتبع خاص فى العهد المكى ، ومعنى ذلك باختصار شديد أن وسيلة الاتصال الشخصى كانت أولى الوسائل التى مارسها الرسول فى نشر الدعوة .

لقاء الرسول ب الرجال من الخزرج فى البيعة الأولى

وما دمنا نتحدث عن طريقة الاتصال الشخصى المباشر على يد الرسول ، فلا ينبغي لنا أن نغفل الحديث عن اتصاله صلى الله عليه وسلم ب الرجال من الخزرج وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وكان هذا اللقاء عندما خرج الرسول في موسم العرب ليعرض نفسه على القبائل ، وبينما هو عند (العقبة) إذ لقي رهطاً من الخزرج ، وكان الخزرج في نزاع مستمر مع الأوس في داخل يثرب ، وكانوا يخرجون من حين لآخر للبحث عن قبيلة من قبائل العرب تعيينهم على الأوس ، ووصلوا في ذلك إلى العقبة ولقيهم النبي هناك فسألهم قائلاً : من أنت ؟ فقالوا من الخزرج ، قال : من موالي يهود ؟ قالوا نعم . قال : أهلًا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . وجلسوا معه صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليهم الإسلام وعندئذ تذكروا قول اليهود لهم إن نبياً قد سحان وقت ظهوره ، وقد أظل زمانه وسيتعقبونه ليقتلوه كما قتلت عاد ولارم ، فلما كلامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعذكم به يهود فلا يسبنكما إليه ، فأجابوه عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إننا قد تركنا قوماً وبيتهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك . وستقدم عليهم وندعوه إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منه ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبي الجديد ودعوه إلى الإيمان به — حتى إذا كان العام القادم أتى من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه الرسول (بالعقبة) وكانت البيعة الأولى للنبي عليه السلام (١) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٧١ .

وعن ابن مسعود قال : وعندنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصل العقبة يوم الأضحى ونحن سبعون رجلا ، فأننا رسول الله فقلنا ، يا رسول الله : سلنا لربنا وسلنا لنفسك وسلنا لأصحابك وأخبرنا ما لنا من الثواب على الله تبارك وتعالى وعليك .

قال : أما الذي أسؤال لربى فإن تؤمنوا به ولا تشركوا به شيئا ، وأما الذي أسائل لنفسي فإن تعطوني أهلكم سبيل الرشاد ، وأسائلكم لي ولأصحابي أن تواسونا في ذات أيديكم وأن تمنعونا مما نعمتم منه أنفسكم ، فإذا فعلم ذلك فلكم على الله الجنة . فددنا أيدينا فيباعناه ،

من أجل ذلك كان الاتصال المباشر أول خطوة من خطوات العمل الاعلامي الكبير الذي قام به الرسول : بل كان من أخطر هذه الصور الاعلامية على الإطلاق ، وقد التزم الرسول بهذه الوسيلة الخطيرة منذ بدء الرسالة إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى .

★ ★ *

سبق أن ذكرنا في الفصل الذي عنوانه (القرآن أكبر وسائل الإعلام) أمثلة من المساواة ، ومرة أخرى نؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان في ممارسته لهذه الوسيطة من وسائل الإعلام وهي وسيطة (الاتصال الشخصي) لا يفرق بين الأغنياء والفقراة ولا بين العبيد والساسة وقد حدث في مرة من المرات أن اجتمع النبي بسادة قريش يغريهم بالتحول إلى الإسلام وشرح لهم مزايا الدين الجديد ، ثم حدث في تلك اللحظة التي كان فيها النبي مشغولا بهذه المهمة أن دخل عليه رجل أعمى من عامة الناس هو عبد الله ابن أم مكتوم ولكن الرسول أهمل هذا الرجل حتى يفرغ من هؤلاء القوم وفي هذا الموقف من مواقف الرسول نزلت سورة من سورة القرآن الكريم يعاتب الله فيها الرسول عتاباً كبيراً على إهمال هذا الأعمى بحجة انصرافه إلى أولئك السادة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : (عبس وتوبي أن جاءه الأعمى) وما يدركك لعله يزكيه أو يذكر فتنفعه الذكرى « أما من استغنى فأنت له تصدى » وما يعليك ألا يزكيه « وأما من جاءك يسعي » وهو يخشى فأنت عنه تلهي » ... إلخ .

وهذا مثل آخر من أمثلة الاتصال الشخصي المباشر مارس فيه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الوسيلة الإعلامية المطيرة لغرض آخر عدا نشر الدين وهو الحفاظ على الوحدة بين الأنصار والهاجرين ، وذلك كما يتضح فيما يلى من حديث :

والحق فقد كان اعتناد الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على هذه الوسيلة من وسائل الإعلام — وهي وسيلة الاتصال الشخصي اعتناداً كبيراً يدل على حسن سياسة وعلى عظيم حكمته في معالجة المواقف الحرجية التي كانت تمر به في حياته ، وكادت تفسد العلاقات الطيبة بينه وبين أصحابه وأنصاره ، ولكنه استطاع بسياسته ومبادرته بالاتصال الشخصي المباشر بينه وبين مصادر الفتنة في مثل تلك الساعات الحرجة أن يهدم كل ثورة وأن يمحو كل سخط وأن يذيب كل حقد ، وأن يبعد نفوس أصحابه أصفي مما كانت عليه قبل حدوث الفتنة ، وقد كانت طريقة في كل ذلك الصراحة التامة ، والصدق الذي ليس بعده صدق ، والشجاعة التي لا تماطلها شجاعة ، وبذلك أعاد العلاقات الطيبة التي بينه وبين هذه الجمahir إلى أحسن مما كانت عليه من قبل ، ومارس في الاتصال الشخصي بالطريقة التي لا يرقى إليها زعيم في أمة أو قائد في حركة وما ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى وحسن توجيهه :

أعطى رسول الله من في هوازن ما أعطى في قريش وقبائل العرب ، ولم يعط من هذا النوع لأحد من الأنصار شيئاً ، فغضب الأنصار للملك ، غضباً شديداً وفشت فيهم الشائعات المسيئة إلى النبي صل الله عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض إن هذا هو الموجب بعثي قريشاً ويخربنا — وسيوفنا تقطر من دماء الترشين فإن كان ما فعل النبي من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله عاتبناه ، فدخل على سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الذي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم مما صفت في هذا النوع فقال عليه الصلاة والسلام أين أنت من ذلك ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، فقال عليه الصلاة والسلام : فاجمع على قومك في هذه القبة ، فلما اجتمع الأنصار أتاهم رسول الله فقال لهم : من كان من غير الأنصار

فليرجع إلى رحله ، ثم وقف النبي محمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ، وموجلة وجدتكمها على قي أنفسكم ، ألم آتكم ضالا فهذاكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ وأعداء فالف بين قلوبكم . ثم قال يا معشر الأنصار ألا تهيبونني ؟ قالوا بعاذنجلبيك يا رسول الله ؟ الله ولرسوله الملة والفضل ، قال رسول الله : أما والله لو شتم لقلم فصدمتهم وصدمتهم : أتيتنا مكذبا وصدقناك ، وخدعوا وطريقنا فـ ويناك ، وعائلا فـ سيناك .

فقال الأنصار : الملة الله ولرسوله . قال رسول الله مرة أخرى : ما حديث بلغتني عنكم ؟ فسكتوا ، فأعاد مرة ثانية وقال : ما حديث بلغتني عنكم ؟ فقال قهاء الأنصار أما رؤساً فلم يقولوا شيئاً ، وأما حديث السن منا فقالوا : يغفر الله تعالى لرسوله يعطي قريشاً ويركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجدتكم يا معشر الأنصار في شيء قليل من الدنيا تألفت به قوماً ليساموا ويسلم غيرهم بعما لهم ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزول ؟ إلى لأعطي الرجل - وغيره أحب إلى منه - خشية أن يكبه الله في النار ، لا يقرضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبقر وترجعوا أنتم برسول الله ؟ فوالله نفس محمد بيده لولا الهجرة لكونت رجلاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً سلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فيكى القوم حتى ابالت لحاظهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظاً . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

فهذه طريقة ^{عليه} في معالجة الأمور ، وهي طريقة في إطفاء نار الفتنة ، وهي طريقة بنيت على الصدق والصراحة والرحمة والتقارب إلى الناس والتودد إليهم ومبادرتهم الاتصال الشخصي بهم ، هذه الطريقة في السمو بمنفوس أصحابه عن الماديات ، والعلو بها إلى مستوى الروحانيات ، وكان من نتيجة هذا الموقف المثالى في مواقف رسول الله أن رجع القوم من عنده أكثر صفاء في النفوس وطهارة في القلوب وتعلقاً بالرسول ، وجاء

للمبادئ الإنسانية التي دعاهم لها ، وما أعلم أن زعماً من زعماء الأرض
كان يستطيع أن يتصرف مثل هذه الفتنة على هذا النحو أو يذيب السخط
من نفوس قومه بمثل هذه الطريقة .

ضربنا المثل هنا في مجال الاتصال الشخصي المباشر بالرسول لأنه أضخم
شخصية في الوجود الإسلامي كلّه ولأن الاستشهاد بعواقبه يغنى عن
الاستشهاد بموقف أصحابه .

أما الاتصال الجماعي فأظهر ما يكون عادة في مجال الخطابة حين يجتمع
الخطيب بعدد كبير من الناس يوجه إليهم كلامه ، ومن أجل ذلك سينتقل
هذا الكتاب موضوع (الخطب النبوية) في الباب الثاني وهو الباب الذي
ستتحدث فيه عن (الدعوة في عهد الرسول عليه وطرق نجاحها) :

الفصل الخامس القصص غير القرآني

رأينا فيها سبق أن القرآن الكريم اعتمد على وسيلة القصص في سياق الدعوة والاتصال بالجماهير ، وسرى الآن كيف أن المسلمين بعد انقطاع الوحي ووفاة الرسول مضوا في طريق القصص ، ولسكن مع الفارق الشديد بين القصص القرآني والقصص غير القرآني ، فال الأول وهو القرآني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والثاني غير القرآني كان يبني على الصدق حيأً وعلى الكذب أحياناً ، يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام)^(١)

(كان أول من قص في مسجد رسول الله ﷺ (تميم الداري) ، استأذن عمر بن الخطاب أن يذكر الناس ، فأي عليه ذلك ، حتى كان آخر ولايته فأذن له عمر أن يذكر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر من المسجد ، واستأذن تميم في ذلك عثمان بن عفان ، فقبل عثمان ذلك) .

وكان تميم هذا نصراوياً من بين أسلم ستة تسع من المحررة .

وأما صورة هذه القصص فهي أن يجلس القاص في المسجد ، ويقص على الحاضرين حكايات وأحاديث وأساطير عن الأمم الأخرى لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، والظاهر أن هذا القصص كان على نوعين :

قصص لل العامة ، وقصص للخاصة .

فأما قصص العامة فهو الذي يجمع إليه نفوس أكثر الناس ، وهذا من القصص مكرر وعند فقهاء المسلمين ، وأما قصص الخاصة فهو الذي اعتمد عليه أكثر الخلفاء الراشدين ، فلما ولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة الأموية ولـى رجلاً من قبله على القصص . فـكـان إـذـا اـتـىـ من صـلاـة الصـبح

(١) من ١٩٠ وما يليها .

جلس هذا الرجل وأخذ يذكر الناس فيبدأ باسم الله والصلوة والسلام على رسوله ، ثم يدعو للخليفة وأهل بيته ويدعو جنده وقواده ، ثم يدعو على الخالقين له من المسلمين ، كما يدعو على المشركين كافة ^(١) .

وانتشر القصاص ودخل عليه الكذب وذاك منذ خلافة علي بن أبي طالب حتى اضطر على إلى طرد جميع المشتبهين بالقصاص في المساجد واستثنى منهم (الحسن البصري) لتحريره الصدق في القول ، ولكن مما لا شك فيه أن القصاص كان من أكبر أسباب الدعاية في عهد الفتن الإسلامية ، وأولها الفتنة الكبرى التي حدثت في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم علا شأن القصاص شيئاً فشيئاً حتى أصبح عملاً من الأعمال الرسمية في الدول الإسلامية ، وأصبح القصاص أشبه بوزير الإعلام والدعاية في الوقت الحاضر مالم يكن أكبر منه ، وكان بعض القصاص في تلك العصور يجمعون بين وظيفتين في وقت واحد هما : وظيفة القضاء ووظيفة القصاص أو بلغة العصر الذي نعيش فيه بين وزير العدل ووزير الدعاية ، ثم روى فيما بعد أن يختص الرجل بإحدى هاتين الوظيفتين .

وكان أول من جمع بين القصاص والقضاء في مصر الإسلامية هو (سلیمان ابن عتر التجيبي) سنة ثمان وثلاثين للهجرة .

مهما يكن من شئ ، فعن طريق القصاص دخلت على المسلمين أساطير الديانات الأخرى اليهودية والنصرانية ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التي كلفت رجال الحديث كثيراً من الجهود المضنية في التحرى عن صدق الأحاديث النبوية إلى جانب الأسباب الأخرى التي جعلتهم يغافلون من أجل هذه الغاية .

وبسبب ذلك أيضاً امتدت كتب التاريخ الإسلامي بكثير من الواقع الزائف والحوادث المختلفة ، وذلك منذ اعتمد المؤرخون المسلمين على مصادرتين كبيرتين هما (وَهْبُ بْنُ مَنْبِه) (وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ) . أما وَهْبُ بْنُ مَنْبِه فرجل

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥٣ - المطبعة الأميرية .

بني من أصل فارسي وكان من أهل الكتاب وله معرفة واسعة بقصص الأنبياء وأخبارهم ، وأما كعب الأحبار فهو دى من الذين أيضاً وكان مصدراً لتسرب أخبار اليهود إلى المسلمين وعن طريقه أيضاً دخل في تفسير القرآن الكريم ما يعرف (بالإسرائييليات) .

والخلاصة أن القصص أفاد المسلمين فائدة جزئية عن طريق الدعاية للخلفاء والملوك والسلطانين ، ولكن هذا القصص آخر بنواحٍ ثلاث وهي :

ناحية الحديث النبوي ، وناحية التاريخ الإسلامي ، وناحية الديانة الإسلامية نفسها عن طريق الإسرائييليات – هذا ماحدث في صدر الإسلام ولكن بتحول الخلافة الإسلامية إلى ملك حقيقى على يد معاوية أصبح القصص شأن كبير في تحفيز الجنود للقتال فضلاً عن الدعاية لخلافة جديدة أو مذهب جديد ونحو ذلك .

لقد كان القصص عنصراً أساسياً في جيوش المسلمين ، وعليه اعتمد أولو الأمر في شد أزر الجنود في الفتوح الإسلامية والخروب الدينية ومن أشهرها الخروب الصليبية المعروفة في التاريخ .

• • •

وبعد – فقد كان بكل نبي من الأنبياء السابقين معجزة ، وكانت هذه المعجزة في ذاتها أقوى وسائل الدعاية لنجاح النبي في دعوته إلى التي بعث بها من قبل الله تعالى .

فكان لموسى معجزته التي حدثنا بها القرآن الكريم وهي العصا ، وكانت لعيسى معجزاته التي منها أنه يرى الأكمه والأبرص بإذن الله ، ومنها أنه يحيي الموتى بإذن الله ، وهكذا ، أما محمد بن عبد الله فمعجزته القرآن ، ولم تتحدث عن القرآن بحيث إنه معجزة لهذا المعنى ، وما يريد أن تتحدث عن كتاب الله من هذه الناحية ، ذلك أننا نحرص على أن نكتفى بالجانب العلمي من جوانب

الإعلام والاتصال بالجاهير في الإسلام ، وليس معنى ذلك أن العلم ينكر المعجزات أو أن العلماء كلهم في تاريخ العالم منكرون لها ، ولكن يعنينا من الحديث عن المعجزة من الزاوية الإعلامية الخاصة أننا سنتقى بكثير من الباحثين يأخذون علينا هذا السلوك ، ومن هنا تحدثنا عن القرآن في مجال الإعلام والاتصال بالجاهير ، وذلك بالطرق والأساليب التي يفهمها البشر في كل زمان ومكان ، وكفانا ذلك عن الحديث عن القرآن الكريم من حيث إنه المعجزة الكبرى الوحيدة أو الفريدة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :



الفصل السادس مواسم الحجج من عظيم وسائل الدعوة

أجمع الباحثون على أن الإسلام دين السلام والحبة ، ودين الاجتماع والوفاق والوحدة، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه الدين الذي أدرك قيمة الإعلام السليم وقيمة الاتصال بالناس على قاعدة مبنية من قواعد الألفة والصدق والإخلاص والأخوة .

وفي الشريعة الإسلامية كثیر من العبارات التي تدل دلالة واضحة على هذا المعنى، فصلاة الجمعة تقام خمس مرات في اليوم والليلة، وصلاة الجمعة تقام في كل أسبوع مرة، وذلک على نطاق واسع وتجمع أكبر ، وفيها يقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً العلّكم تفلحون » ، ثم هناك صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى وفيها تهليل وتكبير وذكر الله كثيراً يصلح من جميع المصائب على شكل نشيد جميل يترك أعظم الأثر في نفوس المسلمين، ويعبر عن شكر جميع المسلمين لله تعالى على النعم التي أفالها عليهم والانتصار الذي خص به نبيهم ودينه حتى أظهره على الدين كله .

وأخيراً نأتي إلى التجمع الأكبر الضخم، والمؤمن الأعظم وتعني به يوم الحجج الأكبر ، وفيه يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومحاربها مستجربين لنهاد الله ، هاجرين بقلوبهم إلى الله متجردين من عبادة الله ، وذلک بالطريقة التي رسّها لهم لا يحيدون عنها قيد شعرة .

لقد أخبرهم الله تعالى بقوله : (إن أول بيت وضع الناس الذي بعثك

مباركاً و هدى للعالمين ٠ فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان
آمناً ٠

كما أعلمهم الله تعالى أنه كلف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأن
يدعو الناس للحج والطواف بالكعبة فقال تعالى (وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ
يَأْتُوكُرِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ فَيْحٍ حَمِيقٍ ٠ لِيَشْهِدُوا مَنَافِعَهُمْ ،
وَيَذَكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ)

* * *

ونحن لاتتحدث عن الحج من حيث هو ركن من أركان الإسلام ولا
من حيث هو نوع من الهجرة إلى الله والتجرد الكامل لعبادة الله، كما لا تتحدث
عن الحج من حيث حكمته البالغة في جمع كلمة المسلمين من شتى بقاع
العالم، ولا من حيث الغاية التي شرع من أجلها لأتباع هذا الدين، فكل هذه
البحوث ليست من قصتنا ولا هي هدف لنا وإنما هدفنا هو التحدث عن
الحج من حيث إنه من أكبر وسائل الدعوة الإسلامية حيث إنه مقرون
بكثير من المظاهر الإعلامية والأشكال الدعائية التي صحبته أداء هذه
الفرضية من أواها إلى آخرها ٠

ربما كان أول شكل من هذه الأشكال الدعائية هذا التشيد الذي يرددده
المسيحيون وهم مقيلون على مكة ، ويرددونه في أثناء طوافهم بالكعبة وهو
التشيد الذي وضعه لهم رسول الله ﷺ وفيه يقول (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك
لَكَ لَبِيكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبِيكَ ، وَإِنَّ الْمَخْرَجَ كُلُّهُ في
يَدِكَ لَبِيكَ) ٠

مشهد رائع جميل من مشاهد الدين يثبت العقيدة في نفوس المسلمين
ويزرع الإيمان والسكينة زرعاً آخر في قلوب المؤمنين ، والأناشيد الحماسية
في كل ثورة دينية أو سياسية أثرها الذي لا يحتاج منا إلى شرح ٠

من أجل ذلك جعل الله الحج ركناً من أركان الدين وفرض على كل
مستطاع أن يقوم به من المسلمين ، وذلك في قوله تعالى : (وَلَهُ
عَلَى النَّاسِ حِجَّةُ الْبَيْتِ مِنْ أَسْتَطْعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) ٠

وقوله **بِرَبِّكُمْ** (أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا) فقال رجل من الحاضرين : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت النبي حتى قاما الرجل ثلاث مرات ، فقال عليه الصلاة والسلام (لو قلت نعم لوجبتم ولما استطعتم) ، **ولحكمة جليلة أيضاً** جعل الله العمرة مثل الحج لقوله تعالى (وأنتموا الحج والعمرة لله) .

وهي فرض على المسلم كالمجحمرة واحدة في العمر ، ولكن ذلك مشروط كما في الحج بالقدرة مالا وصحوة . وها — أي الحج والعمرة — مفروضات على كل مسلم ومسلمة ، وفي **الحديث** قالت السيدة عائشة (يارسول الله هل على النساء من جهاد) قال : نعم ، عليهن جهاد لافتال فيه ، الحج والعمرة ^(١) .
ونتساءل : ما هي هذه المنافع التي يشهدها الناس في الحج بجانب العبادة والتجرد لله تعالى ؟ إن مما لا شك فيه أن التجمعات السلمية في كل زمان ومكان لا تخلو من الفوائد التي تعود بالخير على الإنسان ، فمن هذه الفوائد التجارة وتبادل السلع المادية ، ومن هذه الفوائد أيضاً الإعلان وتبادل السلع الإخبارية والمواد الروحية ، وليس من حق مفسر القرآن مهما عظم شأنه أن يتجاهل الناحية الأخيرة ، ونعني بها السلع المعنوية أو الاعلامية فما الحج في جانب من جوانبه إلا سوق كبيرة تعلو على جميع الأسواق المشهورة في الأمم القدمة والحديثة ، وما كانت هذه الأسواق في يوم من الأيام مقصورة على البضاعة التجارية دون البضاعة المعنوية إلا إذا كان هناك سلطان خاشق يحول بقوته ومبراته دون تبادل السلع المعنوية .

ودعنا مرة أخرى نوازن بين (النادي) (والحج الأكبر) ولو أن القياس هنا مع الفوارق العظيمة ، فإذا كان النادي وسيلة من أقوى وسائل الإعلام في العصور القدمة والحديثة ، في القرية أو المحى .. أو المدينة في الدول الصغيرة أو الكبيرة فكيف ينادى كبير ليس له نظير في العالم كله ، كنادي الحج يجتمع فيه المسلمين من أقصى الأرض حول مكان واحد ،

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة من ٤١٣ .

هو الكعبة أو جبل (عرفات) ، وفي وقت واحد هو شهر ذى الحجة ،
إن المسلمين في جميع أقطار الدنيا لو دبروا أمرهم و هيئوا نفوسهم لمثل
هذا الاجتماع الكبير أو المؤتمر العظيم لما استطاعوا تنظيم ذلك بخير
من الحج .

في هذه البقاع المقدسة يجتمع المسلمون لا فرق بين كبير و صغير ولا بين
أبيض وأسود ولا بين أحمر وأصفر ولا بين غنى و فقير ولا بين سيد و مسود
ولا بين رجل و امرأة فيتعارفون و يتألفون و يزورون تلك البقعة التي شهدت
موالد الرسول ، وكان فيها نزول القرآن الكريم وكان فيها جهاده ^{عليه} ضد
المشركين والمنافقين ، ودارت فيها الحرب الباردة بينه وبين اليهود كما دارت
فيها الحرب الساخنة بينه وبين الكافرين ، كما يشهدون تلك الأرض التي
هاجر إليها الرسول وشهد فيها من النصر والتأييد ما أنعم به الله عليه وعلى
دينه الحنيف .

وانظر معى بعين الخيال مرة أخرى إلى بقية مظاهر الدعوة الإسلامية
والأشكال الدعائية التي اقررت بهذه الفرضية الدينية وهى فرضية الحج .
فن ذلك الطواف حول الكعبة سبع مرات طواف قديم أو إفاضة
وطواف توديع ، وغير ذلك من ضروب الطواف الذى أمر بها الرسول .

ثم انظر معى إلى الصور التي اختارها النبي ^{عليه} لهذا الطواف .
لقد أمر النبي أصحابه أن يتجردوا من ثيابهم المعهودة أو التي تعودوا لبسها
كل يوم ، وأن يرتدوا ثياباً أخرى غير مخيطة ، ويتألف كل ثوب من إزار
يغطي النصف الأسفل من الرجل [ورداء يجعل وسطه تحت منكبه الأيمن
ويجعل طرقه على منكبه الأيسر ، وقد سميت هذه السنة من سن الحج
(بالاضمبلاب) ^(١) .

أتدرى ما هي الحكمة التي دعت الرسول إلى أن يأمر أصحابه بالتخاذل
هذه الهيئة في تنظيم الجسم في أثناء الطواف ؟

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة من ٣٢ :

لقد كان الرسول يذهب إلى الحجج وهو بالمدينة، فمحرص على الظهور هو وأصحابه على هذه الهيئة التي يغطى فيها أحد كتفيه ويكشف فيها عن الكتف الأخرى لكي يظهر للمشركين هو وأصحابه بظاهر الأقواء المفتول العضلات الدين يستطيعون مع قلتهم أن يقاوموا المشركين مع قوتهم ومتانة بنيائهم الجسدي .

إن الطواف إذن – لا يخلو من معنى (المظاهرة) الكبرى التي قصد إليها الرسول قصداً ، وذلك بغية الإعلان عن الدين ، وبغية الظهور بظاهر القوة البدنية إلى جانب القوة الروحية للمسلمين وفي ذلك تحريف للمشركين في مكة وإرهاب لرعوس الكفر في تلك البلدة التي اضطررت النبي وأصحابه إلى الهجرة .

الحق – إن في كل شعيرة من شعائر الحجج فضلاً عن معنى التجرد والعبادة كما قلنا – معنى من معانى الدعوة الإسلامية ، وإشارة بليةنة إلى قوة هذه الدعوة .

ومن أهم هذه الإشارات البليةنة أو الدعائية – التلبية والطواف .

وفي وقفة عرفات – وذلك في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة – يجتمع المسلمون ككلاث من كل أقطار الأرض في هذا الوادي القريب من مكة في وقت واحد ويقلب واحد وعيد واحد من أكبر أعياد المسلمين ، وينضمون لأنفسهم أو ينظم الله لهم موقعاً ثانياً كمؤتمرهم حول الكعبة ، وفي هذا المؤتمر العظيم ، يستطيع المسلمون – لو أرادوا – أن يتبادلوا الرأى فيما يعود على الأمة الإسلامية كلها بالخير ، وينمود عنها الشر وينصرهم على العدو . وإن أسلوب المؤتمرات هو السمة الأساسية للاتصال الشخصي في عالمنا الحاضر ، ولكن مؤتمر الحجج مختلف عنها من حيث تجتمع له كل مقومات التجاج العقائدية والروحية والفكرية .

وشعيرة أخرى من شعائر الحجج – هي رمي الحصى أو الجمرات – إذ يأخذ كل واحد منهم تسعاً وأربعين حصاناً من أرض يقال لها (المزدلفة)

فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى (مَنِي) وَيَبِيِّنُونَ فِي تَلَكَ الْجَهَةِ حَتَّى إِذَا أَشْرَقَ الصَّبَاحُ ذَهَبُوا
بِجَمِيعِهِمْ إِلَى مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ (الْعَقْبَةُ) وَهُنَّاكَ يَأْخُذُونَ فِي رِمَى الْحَصَى أَوْ
الْجَسَرَاتِ فَإِذَا أَنْهَوْا مِنْ ذَلِكَ ذَبَحُوا ذَبَاحَهُمْ وَأَطْعَمُوا الْفَقَرَاءَ .

أَلِيَّسْ هَذِهِ الْأَعْيَادُ مِنَ الْأَمْرِ الَّتِي تَتَدَرَّجُ بِهَا الدِّعَاءِيَّةُ فِي كُلِّ زَمَانٍ
وَمَكَانٍ ؟ وَمَاذَا يَفْعُلُ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ مِنْهُ الْقَدْمُ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا ؟ إِنَّهَا إِذَن
مَظَاهِرَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرَاتِ الَّتِي أَقْبَرَتْ بِالْحَجَّ الْأَكْبَرِ، وَلِنَّهَا لِلْمُرِيَّةِ
مِنْ أَقْوَى ذِرَاعَيِّ الدِّعَوَةِ لِلْإِسْلَامِ وَالْإِتْصَارِ لِنَبِيِّ الْإِسْلَامِ وَالْاحْتِفَالُ بِهِ عَلَى
النَّحْوِ الَّذِي يُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ خَصْمَوْهُ وَأَعْدَائِهِ .

وَشَعْرَةٌ أُخْرَى مِنْ شَعَائِرِ الْحَجَّ هِيَ سَعْيُ الْمُجَيِّجِ بَيْنَ الصَّفَّا وَالْمَرْوَةِ
وَلِنَّهَا لِمَظَاهِرَةٍ كَبِيرَةٍ لَا تَقْلِيلٌ فِي رَوْعَتِهَا عَمَّا سَبَقَهَا مِنَ الْمَظَاهِرَاتِ فِيهَا يَعْلُو
الْمَدَافِعُ لِلْإِسْلَامِ، وَنَبِيُّ الْإِسْلَامِ، وَفِيهَا يَكْثُرُ الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْفَرَّاجِ،
وَبِهَا يَزِدُّ دَادُ الْمُسْلِمِينَ تَعْلِقاً بِالرَّسُولِ وَإِصْرَاراً عَلَى التَّمَسُّكِ بِعِبَادَتِهِ الْعَالِيَّةِ .

وَقَبْلِ أَنْ يَغَدُ الْمُسْلِمُونَ مَكَةَ الْمَكْرُمَةِ يَعُودُونَ إِلَى الطَّوَافِ حَوْلَ
الْكَعْبَةِ الْمُتَشَرِّفَةِ طَوَافَ وَدَاعَ، وَقَلُوبُهُمْ تَفَيَّضُ بِالْإِيمَانِ وَقُوَّةُ الاعْتِقَادُ بِهَا
الَّذِي أَرْشَدُهُمْ إِلَى مَوَاطِنِ الرُّفْعَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ .

فَأَيْنَ الرَّعْيُ الْدِينِيُّ أَوِ السِّيَاسِيُّ أَوِ الْأَجْهَائِيُّ الَّذِي يَسْتَطِعُ تَنْظِيمُهُ مِثْلُ هَذِهِ
الْجَمِيعَاتِ أَوِ الْمُؤْمَنَاتِ ؟ وَأَيْنَ الْفُرْصَةُ الَّتِي تَتَاحُ لِلْإِتَّصَالِ بِالْجَهَائِيرِ وَتِبَادُلِ
الْأَفْكَارِ وَالآرَاءِ وَالْأَخْبَارِ وَالْمَعْلُومَاتِ مِثْلُ هَذِهِ الْفُرْصَةِ الَّتِي تَتَاحُ لِلْنَّاسِ فِي
الْحَجَّ ؟

وَلَعِلَّ ذَلِكَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَوْلِهِ (لِيَشْهِدُوا مِنَافِعَ طَمِ) كَمَا سَبَقَ
الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ، فَلَيْلَتُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْعَصْرِ يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ الْوَسِيلَةُ الْإِعْلَامِيَّةُ
الْقُوَّيَّةُ، لِمَنْ يَسْتَطِعُونَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا مِنْ مَوْسِمِ الْحَجَّ فِي كُلِّ عَامٍ مُؤْمِنًا إِسْلَامِيًّا
عَالَمِيًّا يَعْرِضُونَ فِيهَا آرَاءَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ وَمُشَكَّلَاتِهِمْ وَقَضَائِيَّاهُمْ وَمِنْهَا قَضِيَّةُ
فَلَسْطِينِ^(١)

(١) أَذْكُرُ أَنِّي أَدِبَتُ فِرِيسَةَ الْحَجَّ حَامِ ١٩٩٨ وَأَدِبَتُ شَعَائِرَ الْحَجَّ مَا اسْتَطَعْتُ حَتَّى وَصَلَّتْ بِهِ
الْحَجَّ إِلَى جَبَلِ عَرَفَاتٍ — وَكَانَ يَوْمًا عَظِيمًا شَرَتْ فِيهِ بِسْمَادَةِ رُوسِيَّةٍ لِمَنْ أَذْكَرَ مِثْلَهَا فِي حَيَاقِ، —

ودعنا نختم هذا الفصل بهذه الآية الكريمة التي تعطينا أكبر دليل على أن (يوم الحج الأكبر) تميزاً — له عن الحج الأصغر وهو العمرة — أكبر إعلان للإسلام وال المسلمين ، وتحذيرًا في الوقت نفسه للمشركين والكافرين : قال تعالى : (وَأَذَانَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بِرِّيَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تَبْتَمِ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تُولِّهُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَرِّيَ اللَّهِ، وَبِشَرِّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِذَابِ أَلِيمٍ) .

— ولكن الذي أحرزني في ذلك اليوم وحزن في نفسى كثيراً أنى لم أجدهما كنت أنتظرهما وأتخيلهنهما في قبيل ذلك : فقد كنت أنتظران أن أشهد أضخم مؤتمر إسلامي هناك يخطب فيه الخطباء في قضية فلسطين ، وهي القضية التي كانت تشغل بال المسلمين في ذلك الحين . وبعد قليل سمعت خطيباً واحداً أخذ يخطب الجماهير في هذه القضية ولكنه لم يطال كلامه توقعاً ولم يعقب عليه خطباء آخرون فلم يشجعنى ذلك على أن أكون واحداً من أولئك المعقدين سـ بـ رـ غـ رـ أـ نـىـ كـ نـتـ فـ غير كـاملـ صـحـقـ في ذلك اليوم .

لقد كانت هذه الفرصة ثمينة يتحدث فيها زهاد المسلمين في أمور كثيرة من أهمها قضية اللاجئين ، ولكن ذلك لم يحدث فترجمت من عرفات في ذلك اليوم وأنا حزين وأريد أن أمني نفسى من الاستطراد في الحديث .

الفصل السابع العلاقات الإنسانية في صدر الإسلام

نسمع في العصر الذي نعيش فيه عادة جديدة من مواد الإعلام هي عادة (العلاقات العامة) غير أن هذه المادّة إنما تعتبر جزءاً من علم أوسع هو علم العلاقات الإنسانية، وينقسم هذا العلم إلى قسمين: العلاقات الداخلية أو الخاصة، وال العلاقات الخارجية أو العامة ، ولا غنى للمؤسسات الحكومية أو الأهلية عن القسمين معاً .

أما العلاقات العامة فهي علاقات المؤسسات بالجماهير من الخارج ، وأما العلاقات الخاصة فهي علاقات المؤسسة في الداخل .

فإذا طبقنا ذلك على الظروف التي أحاطت بالرسول والخلفاء الراشدين في صدر الإسلام وجدنا أن علاقتهم بال المسلمين من سكان المدينة تمثل العلاقات الداخلية ، وأما علاقتهم بغير المسلمين في داخل المدينة وخارجها فتتمثل العلاقات العامة ، وقد جمع الرسول وجمع الخلفاء الراشدون من بعده بين هذين النوعين من العلاقات الإنسانية – ولكنهم كانوا قد بدأوا بالعلاقات الداخلية ثم وجهوا عنایتهم إلى العلاقات الخارجية .

ولعل أكبر شاهد على ما نقول أن رسول الله ﷺ بدأ رسالته بدعوة أهله وعشيرته إلى الإسلام وذلك عملاً بقوله تعالى (وأنثر عشيرتك الأقربين) فبدأ بدعوة زوجته السيدة خديجة وغلامها ياسر وسمية زوجة ياسر ، هذا في المرحلة السرية من مراحل الدعوة ، ثم بدأ المرحلة العلنية بدعوةبني هاشم كما سنشرح ذلك في موضعه .

والعجب أن النظريات الحديثة في العلاقات الإنسانية تقول إن هذه العلاقات ينبغي أن تبدأ من الداخل ثم تنتهي بالعلاقات العامة أو العلاقات من الخارج ، فانظر كيف اهتمى الرسول إلى ممارسة هذا النوع من أنواع

الإعلام — وهو العلاقات الإنسانية — بطريقة يقرها العلم الحديث ، ذلك أنه بدأ بزوجته وبني قرابته ثم بأدفي الأصدقاء إلى نفسه ، وهو الصديق أبو بكر ومن في درجته ، ومضى في طريقه حتى بلغت الرسالة غايتها بعد ذلك .

ويشبه العلماء المحدثون ممارسة العلاقات الإنسانية على هذا النظام المتقدم أعني به البدء بالإعلام الداخلي والانتهاء بالإعلام الخارجي بالحجر يلقي به في الماء ، فيحدث فيه حركة شديدة ، وإذا بدوائر أو حلقات من الأمواج تتكون حول الحجر ، وتتسع شيئاً فشيئاً ، وهذه الدوائر أو الحلقات إنما تتكون من الداخل أولاً وتسع في اتجاهها إلى الخارج شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بعد ذلك . بناء على هذه القاعدة الحديثة من قواعد العلاقات الإنسانية ، يمكن التأكيد بأن الإعلام الداخلي يجب أن يكون سابقاً على الإعلام الخارجي ، بل إن الإعلام الخارجي إنما هو انعكاس لا بد منه للإعلام الداخلي ، ومن ثم كان من الأخطاء التي ترتكبها بعض الدول في وقتنا هذا أن تسلك في الإعلام خطوة عكسية ، فلاتصيّب هدفاً إعلامياً ذا بال ،

ثم إن العلاقات الإنسانية لا تنشأ إلا في جو ثقاف وحضارى يؤمن بقيمة الإنسان من حيث هو إنسان له كرامته وله حقوقه على الآخرين ، وعليه واجبات نحوهم ، وقد توفرت هذه المعانى في المجتمع الإسلامي وهو المجتمع الذى خلقه وتولى بناءه الرسول الأمين ﷺ ، ومن الخطأ كل الخطأ أن يزعم المؤرخون أن هذه المعانى لم توجده إلا بقيام الثورة الفرنسية في أوائل القرن الثامن عشر ، وفي القرآن آيات كثيرة تتفق على ذلك منها على سبيل المثال : « ولقد كرمنا بني آدم . . . » وفي الحديث قول الرسول ﷺ : (الناس جمیعاً سواسية كأسنان المشط) .

فضلاً عن هذا وذاك فإن لفظ (الإنسان) أو ابن (آدم) كثير الورود في القرآن الكريم يعنى الكرامة والاحترام ، ويوصفه سيداً للطبيعة التي سخرها له الله تعالى وفضلها على أي مخلوق سواه ، ويضاف إلى كل ذلك

ما سبق أن قلناه من أن الاسلام حض على الشورى وأمر المسلمين بها ، بل أمر النبي نفسه باتباعه مع أنه المثل الأعلى للانسان وأنه أرجح عقلا وأكثر علما وأعظم منزلة من جميع الذين عاصروه واتبعوه في دعوته ، وفي مثل هذه الأجواء من الديمقراطية يهيا الرأى العام وتهيا العلاقات الإنسانية وتظهر على أحسن وجه .

وهكذا وفر الاسلام بتعاليمه بجوا من الاخاء والمساواة جعل من العلاقات الإنسانية زماماً صالحاً للتربيه الاسلامية فأصبحت هذه العلاقات الإنسانية سمة من سمات المجتمع في صدر الاسلام ، أعني في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين من بعده .

ثم حدث بعد ذلك أن انعكست هذه العلاقات الإنسانية في داخل المجتمع الاسلامي الضيق في المدينة على الجهات البعيدة عنها ، وعلى الدول الكبيرة المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، كما ظهر ذلك في الوفادات أو التشيل الدبلوماسي بلغة العصر الحديث ، وهو التشيل الذي تحقق بشكل ملموس في بعثات النبي صلوات الله عليه إلى الأمراء والملوك المجاورين .

وستتحدث عن ذلك بوضوح في الفصل الذي عنوانه : (الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها) .

وعلى ذلك فنحن لا نبالغ إذا قلنا أن الإعلام الاسلامي هو الذي وضع النواة الأولى لفن العلاقات الإنسانية بشقيها: العلاقات الداخلية وال العلاقات الخارجية ، كما أنه وضع الأساس الأول لفن الدبلوماسية والتعامل الإنساني المتحضر مع الآخرين .

والحقيقة أن عبقرية الدين الاسلامي عبقرية اعلامية في جوهرها كما أشرنا كذلك إلى أنها لم تكن سحراً كما كان الأمر في الموسوية في عصر فرعون مصر المعروف باسم « منفتاح » ولم تكن المعجزة طبًّا كما كان الأمر في المسيحية أيام الرومان .

ثم إن الرسول عليه الصلوة والسلام فطن كذلك إلى أهمية الشرح

والتفسير باعتباره جزءاً من الإعلام ، وكان يبعث بالوفود من القراء والفقهاء لتفسير الدين وشرح القرآن الكريم ، كما يفعل خبراء الإعلام من المعلقين والممثلين في العصر الحديث .

وإختصاراً نجد أن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام كانت من أبرز صور النشاط الإعلامي الذي مارسه الرسول ومارسه الخلفاء الراشدون وعليها أن تقيم الأدلة على صدق هذه القضية ، وذلك من حياة الرسول وأصحابه على النحو التالي :

١ - فن ذلك أن الرسول كان يحسن استقبال الوفود العربية التي تقد إليه في المدينة وترغب في اعتماد الإسلام على يديه .

٢ - ومن ذلك أيضاً أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من التأني بين المهاجرين والأنصار منذ هاجر وهو وصاحب أبو بكر من مكة وتبعه أصحابه من المكين في ذلك .

٣ - ومن ذلك أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من العلاقات السياسية بينه وبين اليهود المقيمين معه في المدينة ، وذلك بقصد التعايش السلمي معهم كما نقول في لغة العصر الحاضر .

٤ - ومن ذلك ما أشرنا إليه منذ حين - من أن الرسول نجح في إيجاد العلاقات الدبلوماسية بينه وبين أمراء العرب ، ثم بينه وبين ملك الحبشة وملك الروم وكسرى وعزيز مصر وغيرهم من الملوك المعروفيين في زمانه ، وكل هذه الجهود التي بذلها الرسول تعتبر في نظر الباحث الحديث صوراً من العلاقات الإنسانية .

٥ - ثم من ذلك طريقة المعاشرة ، المعروفة أن النبي ﷺ كان له زوجات كثيرة ، ولكن ذلك لم يكن دليلاً على ميله لشهوات - ولو كان من طريق الخلال - ولكن ذلك كان نوعاً من أنواع العلاقات الإنسانية - كما سنشرح ذلك فيما بعد .

والواقع أن كل فكرة جديدة أو عقيدة جديدة لا نستطيع أن نجد لها

غنى عن فن العلاقات الإنسانية ، وهذا كلام ينطبق على كل نظام جديد أو كل حكومة جديدة أو كل فرق من الفرق السياسية أو الاجتماعية أو الدينية تظهر في المجتمع .

ولذا كانت العلاقات الإنسانية بشقيها يمكن مزاولتها في العصر الحديث عن طريق الصحف والإذاعة ونحو ذلك فإن العصور القديمة كانت تزاولها بالطرق التي تيسر لها إذ ذلك كالخطابة ، والشعر ، والندوات والزيارات الرسمية . ومنها الزيارات التي كان يقوم بها عمر بن الخطاب إلى الأقاليم الإسلامية من حين لآخر رغبة منه في الوقوف على أخبار الرعية من جهة ، وتوطيداً للعلاقات الإنسانية بين المسلمين وولاتهم في هذه الأقاليم من جهة ثانية .

ونقطة أخرى لا بد من توضيحها في مجال العلاقات الإنسانية بفهمها في العصر الذي نعيش فيه : فهناك المؤسسات الحكومية أو الأهلية . وهناك المنظمات أو الجمعيات التي تهدف إلى الأرباح المالية من طريق التسويق والتسويق وسجهه قبل أي شيء ، ومن الأمثلة على هذه المنظمات ما تراه من الشركات التجارية أو المنشآت الصناعية ، وكل هذه الشركات أو المنشآت في العصر الحاضر إنما تحتاج إلى قوتين في وقت معًا ، هما قوة الإدارة من جانب ، وقوة العلاقات العامة من جانب آخر .

غير أن هناك منظمات ومؤسسات ليست بحاجة إلى الربح المالي ومن الأمثلة عليها الجامعات والمستشفيات والجمعيات الخيرية كالمبرات ونحو ذلك ، ومن غير المقبول أن يكون بهذه المنظمات هدف إلى الكسب المادي ، أو بعبارة أخرى ليس لها هدف التسويق ، فالجامعة عملها نشر العلم ، والمستشفى لعلاج المرضى ، والبرة أو الجمعية الخيرية لمساعدة الفقراء ، وهكذا .

والمنظمات الفكرية والفرق المذهبية لا بد أن تكون من النوع الآخر ، ليس لها هدف التسويق وإنما هدفها الوحيد هو ترويج المذهب الجديد أو (م ٧ - الإعلام في صدر الإسلام)

العقيدة الجديدة ونحو ذلك ، ومن هذا القبيل تلك الدعوة التي دعا بها رسول الله صل الله عليه وسلم ، وهي الدعوة إلى الإسلام ، ومن أجل ذلك مارس الرسول فن العلاقات الإنسانية بالطرق التي أشرنا إليها ، وكان يعتبر بالأئياء الذين سبقوه إلى مثل هذه الدعوة ، فلا يطلب من العرب أجرًا على الجهد الذي يبذلونه في سبيل الدعوة ، بل كان يقول لهم ماقاله الأنبياء من قبليه : **(قل ما أسلكم عليه من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد)** .

• • •

بنى أن نستشهد بعض الأمثلة على هذه العلاقات الإنسانية التي زاولها الرسول **عليه السلام** وقام بها بعض الخلفاء من بعد ، وسنكتفي بالأمثلة الآتية :

أولاً : طريقة القراء أو الفقهاء الذين يبعث بهم الرسول إلى القبائل العربية التي اعتنقت الإسلام ، وكان على أولئك الفقهاء أن يقوموا بأعمال كثيرة منها :

شرح تعاليم الدين الجديد ، وتفسير بعض آيات القرآن وبيان الحديث الشريف ، ومنها تقوية الروابط بين أفراد هذه القبائل من ناحية والتي وصبه وبقية المسلمين من ناحية ثانية ، وإذا كان المدف الأول من العلاقات العامة في كل زمان ومكان هو إيجاد هذه الروابط الإنسانية السليمة في المجتمع وضمان التفاهم الصحيح بين طرفين مما : الطرف الذي يمثل مصدر الرسالة أو المرسل (بكسر السين) والطرف الذي يمثل المستقبل (بكسر الياء) نقول إذا كان هذا هو المدف الأول والأخير من العلاقات العامة ، فقد نجح مبعوث الرسول في أداء هذه المهمة كل النجاح ، وواجهوا في سبيل هذه الغاية حق الجهاد ، وقد وطنوا أنفسهم على التعرض لكل الأخطار في سبيل ذلك .

والحق لقد كانت هذه المهمة الجليلة محفوظة بالأخطار العظيمة . فقد كان بعض الخونة غلاظ الأكباد من العرب يستدعون الفقهاء بقصد التلطف في

الدين فإذا خلوا بهم قتلواهم غدرًا ووحشية وانتقاماً من الإسلام ، حدث حادث كهذا في مكان يقال له (بئر معونة) وذلك في صفر من السنة الرابعة للهجرة (١) وتعرف هذه الواقعة بسرية القراءة وكانوا سبعين قارئاً يؤلفون هذه السرية .

فقد قدم أبو براء — سيد قبائل بني عامر — إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه هدايا ، وطلب من النبي أن يبعث معه بعض رجال من الصحابة إلى أهل نجد فخاف النبي على أصحابه أن يغدر بهم أهل نجد ورغم ذلك أهدايا ، كمارفون أن يبعث برجاله ، ولكن أبو براء أجازهم وضمن سلامتهم ، فبعث النبي معه سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فلما وصلوا إلى بئر معونة وجلوا أنفسهم محاصرين بجيش كبير ، وضررت أعناق الرجال الأربع الذين كانوا يحملون رسالات السهام ولم يضر منهم إلا كعب بن زير وحمرو بن أمية ، فبلغ النبي خبرهم فوجد لهم أشد الوجد وحزن عليهم أعمق الحزن وقال: هذا عمل أبي براء ، فقد كنت لهذا كارهاً متذوقاً ، فبلغ أبو براء ما قاله النبي عليه السلام فمات عقب ذلك أسفًا على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيلي .

ووقدت مأساة كهذا في الرجيع سوهاجماء هذيل بين مكة وصفان (١) غير أن وقوع هاتين الحادثتين المؤلمتين اللتين تركتا في النبي عليه السلام أعمق الآسى والحزن لم يمنع النبي من المضي في خطته هذه ، وإرسال القراء إلى القرى العربية للقيام بفهم المسلمين مبادئ الدين ، وإفهام المشركين أنهم لن يزعزوا عقائد المسلمين عن طريق الغدر والخيانة التي يمكثها هذا الدين ولا يقرها ولا يعتمد عليها ، وبجعل عملها وسبيطه من وسائل الاتصال بالناس سعيًا وراء نشر الدين وغرس الفضائل الحقيقية التي يغرسها في نفوس المسلمين ، وهي طريقة العلاقات الإنسانية .

ثانية: ونعني بها المصادرات التي عقدتها الرسول مع بعض الصحابة من جانب ، وبعض القبائل العربية من جانب آخر .

(١) بئر معونة: مكان يبلاد قبيلة هذيل بين مكة وصفان .

فقد أصهر النبي إلى يكر وعمر وإلى عثمان ، كما أصهر النبي إلى بعض القبائل العربية ، ليس ذلك لرغبة في اللذة أو الرغبة في المال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك من الأغراض التي تدفع الناس إلى الزواج ، ولكن لتقوية الروابط بينه وبين ^{عائشة} وبين جميع هؤلاء ١

وصبح أن الناس في حصرنا هذا قد لا ينظرون إلى المصاورة بمثل هذه النظرة ، ولكن يرون الملوك والرؤساء في جميع عصور التاريخ يعتقدون بهذه الرؤى لتقوية العلاقات الودية بين دولتين من الدول ، أو بين دولتين من البلاد ، ويرون بأعينهم أن هذه الطريقة أكبر الأثر في الوصول إلى هذه النتائج ، وفي حياة الرسول ^{عائشة} شواهد كثيرة على صدق ما نقول ٢ . ونكتفي منها بشاهد واحد يغنى عن بقية الشواهد الأخرى ، ويوضح ذلك في غزوة ^{بني المصطلق} ٣

وقدت هذه الغزوة في السنة الخامسة للهجرة . وبين المصططلق فرع من قروع خزانة ، وهي قبيلة مرتيبة مع النبي برباط تحالف وثيق ، كان سيدهم الحارث من بني ضرار ، وكان يجمع الجيوش لقتال المسلمين ، وكان ذلك في الأعم الأغلب من تحرير قريش . فسمع النبي بذلك واستوثق من صحته ، فأسرع إلى الخروج من المدينة لأخذ جيوش الحارث على غرة ، فقر الحارث ببيشه ولكن سكان المكان الذي يعيش فيه الحارث — بواسمه المريسيع ، ويبعد تسعة أيام من المدينة أبوا على أنفسهم إلا أن يخربوا المسلمين ، فانهزموا ووقع في أيدي المسلمين منهم سبعة أسير ، كان من بينهم جويرية بنت الحارث ، فدفع النبي فديتها فطلبت منه الزواج بها فقرز وجهها . فلما شاع خبر زواجهها من الرسول ^{عائشة} أطلق المسلمون من بأيديهم من الأسرى إكواتاً لمحاصرة النبي إلى ^{بني المصطلق} ٤

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « لقد أعتق بزواجه الرسول من جويرية أهل مائة بيت من بيوت ^{بني المصطلق} ، فما أعلم امرأة أعظم على قومها بركرة من هذه المرأة » .

(١) عبد الوهاب حودة . ساعات حرجة في حياة الرسول ، من ١٠٢ - ١١٣ .

ثالثاً : وكما كان الرسول ﷺ نموذجاً أعلى للعلاقات الإنسانية —
كما رأينا — فكذلك كان صاحبته من بعده ،

ولعل حاكماً من الحكماء لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفته في الدين
مبلغاً أكرم ولا أرقى مما وصل إليه عمر ، فقد أجرى الصدقة على فقراء اليهود
والنصارى ، ومن ذلك كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : أنه أجرى
الصدقة على شيخ يهودي مكفوف البصر ، وقال في ذلك : ما أنصفناه أن
أكلنا شبيبه^(١) ثم نخليه عند المرم .

وقد جعل ذلك سنة فيمن يليه أمرهم من الضعين والمعوزين . ففي
أرض دمشق يقوم بمحظتين (أي مصايبين بعرض الجذام) من النصارى فأمر
يلاعظهم من الصدقات ، وأن يجري عليهم القوت ، ولوه — رضي الله عنه —
أني هناباب توادر وأخبار لا يتسع لذكرها هذا الكتاب .

ألا ما أعظم العلاقات الإنسانية وما أقوى سرها وما أنيل مقاصدها في
سموال الإعلام والاتصال بالناس ! وصدق من قال : إن شرف الوسيلة من
شرف الغاية التي تهدف إليها .

٤
(١) أكلنا شبيبه : يعني انتفعنا به أو انتفعت الدولة به في شبابه حتى هزم :

الباب الثاني الدعوة في عهـد الرسول وأسـالـيـبـ نـجـاحـهـ

« يـأـيـهـ النـبـيـ إـنـاـ أـرـسـلـنـاـكـ شـاهـدـاـ وـمـبـشـرـاـ وـنـسـيرـاـ وـدـاعـيـاـ إـلـىـ اللهـ بـإـذـنـهـ وـسـرـاجـاـ مـبـرـاـ » وـبـشـرـ المؤـمـنـينـ بـأـنـ هـمـ مـنـ اللهـ فـضـلـاـ كـبـيرـاـ «
وـلـاـ تـطـعـ السـكـافـرـينـ وـالـمـنـافـقـينـ وـدـعـ أـذـاهـمـ وـتـوـكـلـ عـلـىـ اللهـ وـكـنـىـ
بـالـهـ وـكـيـلاـ »

(صلوة الله العظيم)

تمثيل الدعوة والإعلام والدعائية في الإسلام

ما لا ريب فيه أن الإسلام كان ثورة كبيرة اعتمدت في نجاحها على طرقين لا ثالث لها . وهما :

الكلمة من جهة ، والسيف من جهة ثانية ، وستنظر في هذا البحث إلى غزوات النبي ﷺ على أنها كانت هي الأخرى ضرباً من ضروب الدعوة للنشر الإسلام ، وقد ثبت من التاريخ أن هذه الغزوات التي قام بها الرسول ﷺ لم تكن لها غاية وراء ذلك .

أجل – انتشرت دعوة الإسلام بالوسائل المعروفة في ذلك الوقت ، ولتكن كان القدماء منذ ظهور الرسول لا يعرفون هذا المصطلح الحديث: مصطلح الإعلام والاتصال بأنواعه الثلاثة: الشخصي والجماعي والجماهيري؛ واستخدمو ما كانه المصطلح المعروف عندهم وهو مصطلح الدعوة، والدعوة إلى شيء هي الترغيب في هذا الشيء ، أو بمعنى آخر الدعاية له ، ونحن لانسى إلى الدين فإذا قلنا أن العمل الذي قام به الرسول السكري من أجل هذا الدين هو دعاية طيبة له ما دامت الدعاية في ذاتها لها معنيان على الأقل : الدعاية الطيبة أو البيضاء . والدعاية الخبيثة أو السوداء ، ونحن نعلم علم اليقين أن الرسول كان مسؤولاً أمام ربه عن عمل واحد فقط هو الإعلام أو التبليغ ، قال تعالى : « إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » وقال تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا هُمْ وَلَكُنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » والخلاصة أننا مع القدماء في إطلاق اسم (الدعوة) على الجهود التي بذلها الرسول ، ولستأتميل إلى تسمية هذه الجهود النبوية بغير هذا الاسم وهو (الدعوة) بمعنى الاتصال والدعائية لهذا الدين . حتى يعرفه الناس ،

وقد مارس الرسول طائفة من طرق الدعوة والاتصال بالناس في سبيل نشر الدين ، ويشرح هذا البحث كيف نجح الرسول في كل ذلك بمحاجة منقطع النظير ، وكيف أن الله تعالى زوده بجميع الأخلاق التي لا بد منها للداعي إلى هذا الدين الجديد ، وربما كان من أولى الصفات التي يحتاج إليها الداعية المثالى صفة (الصدق في القول) وصفة (الصبر على العمل) ، ونحن نعلم جيداً أن الجهود التي بذلها الدعوة ورجال الإعلام والاتصال بالجماهير لا تكمل بالنجاح ما لم تعتمد على قاعدة الصدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؛ ولذلك كانت هذه الصفة من أولى صفات الرسل والأنبياء كما حدثنا القرآن الكريم .

وكان ^{عليه السلام} مثلاً أعلى في هذه الصفة بنوع خاص ، ومن أجل هذا صدقه العرب حين جاءهم برسالة السماء ؛ بل من أجل ذلك لم يكن عبشاً ولا من قبيل الصدق أن وجدنا محمداً عليه الصلاة والسلام في بداية المرحلة العلنية من مراحل الدعوة الإسلامية يقف بين أهله وعشيرته ويفيد الحديث معهم بقوله لهم :

هل سمعتوني يوماً أقول كذباً ؟ قالوا : لا ، إننا لم نعرف عنك غير الصدق . ثم سأ لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً سفح هذا الجبل ، أكتمت تصديقونى ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم .
ثم أدى لهم بالرسالة التي يبعثه الله بها على الفور .

معنى ذلك في نظر رجل الإعلام أن الاتصال بالناس لا يقوم إلا على الثقة التامة بين مصدر الرسالة من جهة ، والجمهور الذي الذي يتلقى الرسالة من جهة ثانية .

ومعنى ذلك أيضاً أن الإعلام بمعناه السليم هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات الصحيحة والحقائق الثابتة التي تساعد الناس على تكوين رأي صائب في واقعة من الواقع ، أو مشكلة من المشكلات ، فإذا حللت هذه العملية الإعلامية من الصدق لم تصبِح إعلاماً بالمعنى الصحيح ،

بل هي نوع آخر ، كأن تكون تضليلًا للجمهور ، أو مؤامرة سوداء ضد هذا الجمهور ونحو ذلك ، وقد بررت الدعوة الإسلامية من مثل هذه الصفات ، ولذا كتب لها النجاح التام ، ذلك أن محمدًا كان كما قلنا — مثلاً أعلى في الصدق إلى الحد الذي جعل العرب يصدقونه في كلامه ، ولو جاء بخبر السماء .

والذى نريد أن نخلص إليه من هذا الحديث الذى سقناه إلى الآن هو أن ما قام به الرسول من الجهد النشر الإسلام كان (أعلاماً) صرفاً بلغة العصر الحاضر ، (دعوة) صادقة بلغة المسلمين في العصور التي سبقتنا ، وحسبنا أن نعرف أنه كان من أهم الوسائل الإعلامية التي أتيحت للرسول إذ ذلك وسيلة (القرآن الكريم) والقرآن الكريم (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه تنزيل من حكيم حميد) ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين انقطع الوحي ، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فانقطع بذلك مصدر ثان من مصادر الإعلام والاتصال بالناس على أحسن صور هذا الاتصال ، وهذا المصدر الأخير هو الرسول نفسه ، ولكن القرآن الكريم والحديث بقيا بعد وفاة النبي نبراساً لجميع المسلمين منذ عصر الخلفاء الراشدين يعتمدون عليهما في هداية المسلمين وجلبهم إلى المثل الأعلى .

ثم أضيف إلى هاتين الوسائلتين من وسائل الإعلام وهما القرآن والسنة وسائل أخرى مارسها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الملوك والسلطانين قد شرح البحث أمثلة منها ، غير أنها سترى بوضوح أن تلك العصور التي أتت بعد الرسول لم تعد قادرة على الاعتماد على الإعلام وحده من ضروب الاتصال بالناس — ولكنها احتاجت إلى الاعتماد على (الدعائية) . معنى ذلك أن الخلافة في الإسلام لم تجد لها غنى عن هذه الوسيلة التي يحتاج إليها كل نظام جديد من أنظمة الحكم في أي زمان ومكان ، ومن ثم كان الفرق عظيماً بين (الدعوة) في عهد الرسول (والدعائية) في عهد الخلفاء

والملوك والسلطانين ، غير أن الاعتماد على الدعاية وحملها لم يظهر بوضوح كما ظهرت منذ نشوء الدولة الأموية ثم العباسية ثم الفاطمية ، أو يعني آخر من ذلك تحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض كما يقول المؤرخون السابقون .

والذى لاشك فيه أن الدعاية قوة سياسية كبيرة فى وسعها أن تقيم دولة وأن تهدم أخرى ، وفي وسعها أن تنشر مذهبها وأن تقتل آخر ، ومن ثم كانت الدعاية هي الداعمة التي قامت عليها جميع الدول الإسلامية منذ أن انتهى العهد بدولة الخلفاء الراشدين ، وكان من أقوى العوامل التي جعلت للدعاية كل هذه القوة والأهمية انقسام المسلمين إلى فرق دينية وحرص كل واحدة منها على أن تظهر على جميع الفرق الأخرى ، فلقد كانت الدولة الأموية عثمانية الهوى تكره علياً وأولاده وأنباعه كل الكراهة ثم جاءت الدولة العباسية فكانت تظاهرة بالتشييع لآل البيت أول الأمر حتى إذا نجحت في الوصول إلى خاتمتها احذلت من (الاعزال) مذهبها ، ودعت له وحاربت جميع المذاهب المختلفة ، ثم في عهد الفاطميين كان المذهب الشيعي هو المذهب الذى اعتمدته الدولة ، ثم جاء صلاح الدين فأعاد الناس إلى المذهب السنى وهكذا .

والنتيجة التي نخرج بها من هذا الحديث هي أن الفرق عظيم بين الدعاية والإعلام ، والدعاية . فالدعوة هي الجهد الذى يبذلها أصحاب الأفكار الجديدة أو العقائد الجديدة أو المذاهب الجديدة ومن أعظم الأمثلة عليها الدعاية التى أتى الرسول لنشرها وهى دعوة الإسلام ، والإعلام هو الجهد الذى يبذلها الناس لتأييد هذه الأفكار أو العقائد أو المذاهب . ومن ذلك جميع الجهود التى يبذلها الخلفاء الراشدون — وكلهم من صحابة النبي وحواريه — في تثبيت هذا الدين الجديد وذلك بعد أن فرغ الرسول من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة والقيام بالدعوة على أحسن وجه . والدعاية هي الأسلوب الذى يروج لفكرة أو عقيدة أو مذهب أو يدحض كل ذلك عن طريق التأثير

في عواطف الفرد أو الجماعة واستهواها بقدر المستطاع ، ومن ذلك ما فعلته الخلافة الأموية وما تلاها من الحكومات الإسلامية على اختلافها إلى اليوم . ولقد قامت كل من الدعوة والإعلام والدعائية على قن الاتصال بالغير ، وهو أنواع ثلاثة — الاتصال الشخصي والاتصال الجماعي والاتصال بالجماهير . والعصو الرقيقة هي التي عرفت النوعين الأولين الشخصي والجماعي . والعصو التي نعيش فيها هي التي انفردت بالاتصال بالجماهير ، وذلك منذ اختراع الوسائل الحديثة للإعلام مثل الصحف والراديو والتلفزيون وهي الأجهزة التي تستطيع الاتصال بالجماهير التي تمتد بالملائين .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال في الإسلام من بهذه الأطوار الثلاثة :

الأول : طور الدعوة الإسلامية ، وهو شخص بحياة النبي ﷺ وبه سميت جميع الجهود التي بذلها في سبيل هذا الدين الجديد .

الثاني : طور الإعلام وبه سميت معظم الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون وهم الذين كانت حياتهم في جملتها صورة من حياة الرسول ، أو على الأقل حرصوا كل الحرص أن تكون حياتهم كذلك .

الثالث ، طور الدعائية — وعليه قامت الخلافة الإسلامية والملوك والإمارات في الإسلام منذ معاوية بن أبي سفيان رأس الخلافة الأموية إلى يومنا هذا .

أجل — كان الطور الأول من أطوار الاتصال في الإسلام هو طور الدعوة ، ونري بأن نشهد على ذلك بالقرآن الكريم نفسه — فنحن إذا تبعينا القرآن نفسه من حيث تاريخ النزول وجدنا أن أول سورة نزلت على الرسول هي سورة (أقرأ) وهي السورة التي أعلمته صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة ، وبأنه مبعوث من قبل الله تعالى لنشر دعوة جديدة وهي الدعوة إلى الإسلام .

ثم تلتها في النزول سورة المدثر وفيها يقول الله تعالى ، « يَا أَيُّهَا الْمَدْثُرُ »

قم فأنذره وربك فكبر وثيابك فظهر والرجز فاهجر ولا تمن تستكثريه ولربك فاصبر .

ولا يأس من الوقوف قليلاً أمام هذه السورة الكريمة لأن فيها إشارة إلى تكليف الله تعالى رسوله محمدًا بنشر الدعوة وفيها إشارة أيضًا إلى الأسلحة التي لا بد له صل الله عليه وسلم من أن يتسلح بها في القيام بهذا العمل .

ففي قوله تعالى : (قم فأنذر) أمر من الله تعالى لرسوله بأن ينذر الناس بمعنى القيام ب الإعلام لهم وتنبيههم إلى الدعوة الجديدة ، وذلك أن الإنذار في اللغة هو الإعلام والتنبية وليس معناه الإرهاب والتخويف .

والدليل على ذلك أن الإسلام في أول خطوة من خطواته ليس بخاجة إلى هذا المعنى الأخير ، والرسول نفسه لا يستطيع أن يفتح رسالته على هذا النحو .

ثم في قوله تعالى : (وربك فكبر) أمر من الله تعالى لرسوله أن يكبر ربها ويعظمه ويقدسه ، فهذه هي العقيدة الجديدة التي بعث بها رسوله .

ثم في قوله تعالى : (وثيابك فظهر) أمر من الله تعالى لنبيه أن يقوم بتطهير نفسه من جميع الآلام والمعاصي وأن يحررها من كل دنس ، والعرب تقول فلان طاهر الثوب ، أو الدليل كناية عن أنه شريف طاهر النفس وذلك أنه لا يلازم الإنسان في جميع أطوار حياته ملازمة شئ ع مثل ثيابه ، فكأنها عنوان للذاته .

ثم في قوله تعالى : (والرجز فاهجر) ونرى أن الرجز في اللغة هو العذاب والقصد هنا البعد عن الآلام والمعاصي التي تسبب للإنسان العذاب في الدنيا والآخرة ، فهي في الدنيا تهلك الجسم ، وتبدد القوة والعافية وتهدم كيان الإنسان وتوهن القوى ، وفي الآخرة تعرض المرء لعذاب جهنم .

ثم في قوله تعالى : (ولا تمن تستكثريه) أمر من الله تعالى لرسوله الأمين (ألا يضعف) لأنه إذا أظهرضعف أمام هذه الرسالة أخذ يستكثر أعباءها ويستطيل طريقها ويظن نفسه غير قادر عليها بحال من الأحوال :

ثم في قوله تعالى لرسوله (ولربك فاصبر) أمر آخر من الله تبارك وتعالى لرسوله أن يصبر على أعباء الرسالة ويرطم نفسه على تحمل هذه الأعباء ولا سبيل له غير ذلك .

يقول الأستاذ عبد الوهاب حمودة تعليقاً على هذه السورة الكريمة بما معناه :

إن نجاح أي دعوة من الدعوات إنما يكون بطريق الاتصال المباشر بشرط أن يتسلح الداعي بأسلحة ثلاثة :

الأول : سلاح العقل الذي يهدى صاحبه إلى الدعوة الجديدة أو العقيدة الصحيحة وهي هنا في سورة المدثر عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

والثاني : سلاح النفس بمعنى تحريرها من الأخلاق السيئة والعادات التدميرية التي كان عليها العرب في الجاهلية وقت ظهور الدعوة .
والثالث : سلاح البدن وذلك بمحاباته من الآلام التي تهلك الأجسام وتهدم كيانها وتورن من قوتها فلا يستطيع صاحبها أن يقوم برسالة أو ينشر دعوة .
ويضاف إلى ذلك أن السورة الكريمة أشارت إلى سلاح رابع له أهميته وخطره في هذا الحال ، وهذا السلاح الرابع والأخير هو سلاح الصبر وبدونه لا يستطيع النبي أن يؤدي رسالته ولا يقوى زعيم من الرعماء على أن ينفذ خططه .

ونتظر بعد ذلك نظرة إجمالية في الآيات القرآنية التي تحمل معنى (الدعوة) فنجد بعض هذه الآيات نزلت بمكة المكرمة حيث كان النبي ﷺ يجاهد المشركين في ظلام ويلقى منهم من ألوان العنت والتعذيب ما تمتليء به كتب السيرة ، ومن هذه الآيات قول الله تبارك وتعالى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والمواعظة الحسنة وجادهم بما هي أحسن » .

وقوله : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لئن شئت منه مریب » فلذلك فادع واسقهم كما أمرت ولا تتبع أهواهم ، وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم
أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

والأيات المكية كلها تدعو إلى نشر العقيدة الجديدة بالطرق السلمية ،
أما الآيات المدنية فقد نزلت على الرسول الأعظم بالمدينة المنورة بعد أن
أصبح في ذروة القوة وطريقها مغايرة للهجة الآيات التي نزلت عليه في مكة.
المكرمة ومنها :

« وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا
وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (سورة آل عمران آية ٢٠) :
وقوله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسما هم ناسكونه ، فلا ينماز عنك في
الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم » وإن جادلوك فقل الله أعلم
بما تعملون » (سورة الحج ٦٧ - ٦٨) .

وقد أتى الأستاذ أرنولد بمعظم الآيات السابقة ثم قال : (١)
ينبغي ألا نلتقط الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في مآثر المحارب
المسلم - ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه وحمل القرآن
الكريم في اليد الأخرى ، وإنما نلتقطها في تلك الأعمال الودية المعاذنة التي
قام بها الدعاة الذين حملوا عقidiتهم إلى كل صقع من الأرض . . . وقد
جاء بها القرآن الكريم مشددا في الحضن على هذه الطرق السلمية كما يدل على
ذلك قوله تعالى :

« وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جيلاً وذرني والمكذبين أولى
النعمة وأمهلهم قليلاً » (سورة المزمل آية ١٠ - ١١) .

وقوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله
ليجزي قوما بما كانوا يكسبون » (سورة الجاثية آية ١٤) .

(١) توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ترجمة إبراهيم نعيم المجيد عابدين،
وإسحاقيل التحراري ص ٤٨ .

وقوله تعالى : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهيل على الرسل إلا البلاغ المبين » (سورة النحل آية ٣٥) .

وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بما هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكما وإلينا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (سورة العنكبوت آية ٤٦) .

وقوله تعالى : « ولو شاء ربكم لآمن من في الأرض كلهم جمِيعاً أقامت تكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين » (سورة يومنس آية ٩٩) .

كل هذه الآيات المتقدمة في الحض على الطرق السلمية نزلت على الرسول ﷺ بكة المكرمة ، وبالمدينة المنورة نزلت عليه آيات في هذا المعنى ومنها قوله تعالى :

« قل أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تُولُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِنْ تَطِيعُوهُمْ فَلَا يَهْدُوْهُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (سورة النور آية ٥٤)

على أن الدعوة التي بعث بها محمد – وهي دعوته للإسلام لم يقصد بها العرب وحدهم دون غيرهم ، بل كانت دعوة للناس كافة ، لا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم من الأمم .

فانظر إلى قوله تعالى في وصف القرآن الكريم :

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ » . (سورة ص ، الآية ٨٧)

وقوله تبارك وتعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » . (سورة الفرقان الآية ١)

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِّلنَّاسِ بُشِّرِّاً وَنَذِيرِّاً وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » . (سورة عِصْمَةُ الْآيَةِ ٢٨)

وقوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » . (سورة الأعراف الآية ١٥٨)

الفصل الأول المرحلة السرية

تقول دائرة المعارف البريطانية في مادة (قرآن) « جاء محمد بلدعوة جديدة هي دعوة الإسلام ، وكان هذا الرسول أُوفِرَ الأنبياء والشخصيات الدينية حظاً من النجاح . فقد أُنجز في عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين اليهود والتصارى رغم السلطة الزمنية التي كانت تساند هؤلاء ، ورغم أنه كان أمام الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والرثى والهار ومعاقرة الشحوم ، وأضطهاد الضعفاء ، والحروب الكثيرة بين القبائل العربية ومئات الشرور الأخرى » .

هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية نقلناه بقصه ؛ ونضيف إلى ذلك أن هذا النجاح الكبير الذي صادفه الرسول لم يتم إلا ب توفيق من الله تعالى وبوساطة إعلامية كثيرة مارسها الرسول ، وكانت من رسم القرآن الكريم ووحيه ونطحيته في أكثر الأحيان كما يتضح لنا ذلك في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب ، وكما سيتضح لنا كذلك في فصول الباب الثاني ؛ وتحدثنا كتب السيرة أن هذه الدعوة سارت في أربع مراحل بنوع خاص وهي :

- ١ - مرحلة الدعوة السرية .
- ٢ - مرحلة الدعوة العلنية .
- ٣ - مرحلة الاضطهاد الديني في مكة المكرمة .
- ٤ - مرحلة الهجرة .
- ٥ - مرحلة الاستقرار بالمدينة .

(٨ - الإعلام في صدر الإسلام)

وببدأ النبي حياته بالمدينة بسياسة رشيدة لا نعلم لها نظيرًا في أي عصر من عصور التاريخ البشري ، وقد بنيت هذه السياسة على أمرتين :

الأول : حركة المواجهة بين المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، والأنصار الذين هم السكان الأصليون بالمدينة المنورة والذين استقبلوا النبي أروع استقبال كما سيأتي ذكر ذلك .

والثاني : حركة التعايش السلمي بين المسلمين واليهود المقيمين بالمدينة ، وفي المدينة وبعد الاستقرار الذي أتى عقب الهجرة بدأت الغزوات أو الحروب التي دارت بين الرسول وأهل مكة ، ومن أهمها غزوة بدر ، وغزوة أحد وغزوة الأحزاب (أو التندق) وفتح مكة وغزوة حنين ، وهي غزوات كان لا بد منها للمحافظة على الإسلام نفسه ، فلولاها لاستطاع المشركون في مكة أن يثدوا الإسلام في مهده .

غير أن الحديث عن هذه المراحل التي مرت بها الدعوة إنما يهم المؤرخين وكتاب السيرة بنوع خاص ، أما نحن فسنتظر إلى هذه السيرة الحمدية من الزاوية الإعلامية ، أو بعبارة أخرى ننظر في وسائل الاتصال أو الإعلام التي مارسها الرسول في كل مرحلة من هذه المراحل ، وذلك بهدف واحد هو نشر الدعوة الإسلامية .

المرحلة السرية :

لم يؤذن لرسول الله أن يجهر بدعوته في هذه المرحلة القصيرة وفيها لم يكن عمل القرآن إلا إعلام الرسول نفسه بأنه مكلف من قبل الله تعالى بأداء رسالة من الله ، وذلك منذ نزول عليه عليه عليه عليه قوله تعالى :

« أقرأ باسم ربك الذي خلق » خلق الإنسان من علق « أقرأ وربك الأكرم » الذي علم بالقلم « علم الإنسان ما لم يعلم » .
ومنذ ذلك الوقت علم محمد أنه مكلف بالرسالة .

ووصفت لنا كتب السيرة حالة النعور والاختهار التي كان يشعر بها الرسول منذ نزول هذه السورة ، وتحكى لنا كتب السيرة أيضًا كيف

وَرَجَعَ إِلَى زَوْجِهِ خَدِيجَةَ وَهُوَ يَقُولُ لَهَا : « زَمْلُونِي دَلْرُونِي » لَا وَبَقَ عَلَى هَذِهِ
الْحَالِ حَتَّى أَفَاقَ مِنْ نُوْمَهُ وَرَجَعَ إِلَى حَالِهِ الطَّبِيعِيَّةِ ٠

ثُمَّ نَزَّلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

« يَا يَهَا الْمَدْثُرُ » قَمْ فَأَنْتَرُ « وَرِبِّكَ فَكِبْرُ » وَثِيَابِكَ فَظَهِيرُ » وَالرِّجْزُ
فَاهْجِرُ » وَلَا تَمْنَنْ تَسْكُنْ ٠ « وَلِرِبِّكَ فَاصْبِرُ » ٠

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنْ شَرَحَنَا هَذِهِ السُّورَةَ فِي فَصْلٍ مِنْ فَصُولِ الْبَابِ الْأَوَّلِ
يَعْنِي وَانْ « الاتِّصَالُ الْمُبَاشِرُ » مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الَّتِي مَارَسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٠

وَإِذْ ذَالِكَ عِلْمُ الرَّسُولِ أَنَّهُ مَكْلُوفٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِإِعْلَامِ النَّاسِ بِهَذِهِ
الرِّسَالَةِ وَتَبْيَهِهِمْ لِإِلَيْهَا ، وَكَانَ مِنَ الْأَمْرُ الْطَّبِيعِيَّةِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِعْلَامُ فِي
أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى نَطَاقِ ضَمِيقٍ — أَعْنَى نَطَاقِ الْأُسْرَةِ وَنَطَاقِ الْأَصْدِقَاءِ الْخَلِصَاءِ —
وَلِذَلِكَ وَجَدَنَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ آتَمَ بِهَذِهِ الدُّعَوَةِ السَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَعَلَى
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الصَّبِيَّانِ ، وَأَبْوَ بَكْرٍ مِنَ الرِّجَالِ ٠

وَمِهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْمَرْجَلَةِ السَّرِيَّةِ
وَسَيِّلَاتُهُ مِنْ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ أَوِ الْإِعْلَامِ وَهُنَّا :

١ - وَسِيلَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٠

٢ - وَسِيلَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِينَ ٠

أَمَّا وَسِيلَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَدْ تَحْدَثَنَا عَنْهَا ، وَأَمَّا وَسِيلَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِينَ
فَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

« وَالسَّابِقُونَ » أَوْلَئِكَ الْمُقْرَبُونَ » وَهُمْ دُعَاءُ الْإِسْلَامِ الْحَقِيقِيُّونَ
فِي هَذِهِ الْمَرْجَلَةِ السَّرِيَّةِ مِنْ مَرَاحِلِ الدُّعَوَةِ ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ
زَوْجُهُ الرَّسُولِ وَأَبْوَ بَكْرٍ الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ وَعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَبْنِ عَمِ الرَّسُولِ
وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةِ عَتْيَقَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ هُؤُلَاءِ رِجَالٍ كَثِيرِينَ ،
مِنْهُمْ عُثَمَانَ بْنَ عَفَانَ ، وَالزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفَ ،
وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ ، وَطَلْحَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَبَلَالَ الْحَبْشَى ، وَبَاسِرَ
(خَلَامُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ) وَزَوْجَهُ يَاسِرَ وَاسْمُهَا سَهْمَةُ ٠

ثم كان من السابقين الأولين ، عبد الله بن مسعود وابن أبي الأرقم الخزروي ، وكانت دار هذا الأخير - وهو ابن أبي الأرقم - مركزاً للنشاط السري الذي كان يبذله الرسول من أجل الدعوة وذلك خلال سنوات أربع من البعثة النبوية ، حتى ليتمكن أن يقال أنه في السنوات الثلاث الأولى من هذه الفترة بلغ عدد الذين دخلوا الإسلام أربعين رجلاً وامرأة .

وفي السنة السادسة دخل الإسلام حمزة عم النبي وأخوه في الرضاع وعمر بن الخطاب وبه قوى ساعد المسلمين كما اعترف بذلك الرسول ، وقد بذل الجميع أقصى الجهد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية بهذه الطريقة السرية وكانت وسائلهم في كل ذلك (القدوة الحسنة) التي سبق أن قلنا أنها كانت من أقوى وسائل الإعلام في الإسلام ، وضربنا عليها المثل بأبي بكر الذي دخل معه في الإسلام هؤلاء الذين ذكرناهم عندما أشرنا إلى عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ... إلخ .

فقد أسلحوه جميعاً على يد أبي بكر الصديق ، وكانوا جميعاً من السادة المعروفيين في الجاهلية .

أما العبيد فقد اشترى أبو بكر عدداً كبيراً منهم بالأثمان الباهظة التي طلبها سادتهم ثم اعتقهم جميعاً بعد ذلك ، ودعهم إلى دخول الإسلام فدخلوا طائعاً مطمئنين .

كل ذلك وأهل مكة من كفار قريش لا يحسون بحركات الرسول أو على الأقل - لا يعيرون بها ولا يقدرون نتائجها ، وبالفعل لو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الأمر على قريش ، ولما التفت عبدة الأصنام إلى هذا المنظر الداهم الذي يمكن ورائه هذه الدعوة السرية مهما كان عدد الرجال المشتبئين بها ، ومهما كانت أقدار هؤلاء الرجال المشتبئين إليها ٥

لقد كان من وراء كل رجل من أولئك الرجال الذين بادروا إلى قبول

الدعوة قصة عجيبة من القصص التي عنيت بها كتب السيرة ، ولكن البحث في الدعوة الإسلامية من الزاوية الإعلامية لا يعطينا الفرصة لإبراد هذه القصص الواقعية التي تقرن بكل شخصية من هذه الشخصيات الإسلامية القوية التي كانت من الشجاعة والجرأة بحيث تركت ما كان يعبد آباءها من الأصنام واستهانت بهذا التراث الضخم من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا واللبيس ، ومئات الشرور الأخرى كما جاء في دائرة المعارف البريطانية .

• • •

الفصل الثاني المرحلة العلمية

بقيت دعوة الإسلام تسرى في التفوس بقوة القرآن وبشخصية الرسول ، وكل ذلك في نطاق سرى حتى نزلت على الرسول سورة من سور المكية وفيها قوله تعالى :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ۝ وانخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (١) .

وإذ ذاك علم الرسول أن الله تعالى يأمره بتوسيع رقعة الدعوة بعض الشيء ، ففي هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى بأن يخرج الرسول من نطاق الدعوة السرية إلى نطاق الدعوة العلمية .

وينظر رجل الإعلام في هذه المرحلة فيجد أنه قد أضيفت إلى الوسائلتين السابقتين من وسائل الإعلام في المرحلة السرية . وهما وسيلة القرآن ووسيلة المؤمنين الأولين — وسائلتان آخريان وهما :

١ - وسيلة الخطبة التبوية .

٢ - وسيلة الاتصال المباشر بجماهير الناس ، وذلك بأن يعرض عليه نفسه على القبائل العربية ، ومثل ذلك الوقت بدأت الثورة ، وبالوسيلة الأولى من وسائل الإعلام في المرحلة العلمية وهي وسيلة الخطبة التبوية ألقى النبي عليه البيان الأول لهذه الثورة — فقد صعد رسول الله عليه يوماً جبل (الصفا) ونادى بأعلى صوته : يا معاشر قريش — قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألونه ماذا ي يريد ؟ فقال الرسول الأعظم : هل سمعتموني ذات يوم أقول كذباً ؟ فأجابوا الحاضرون بصوت واحد :

(١) سورة الشوراء الآيات ٢١٤ ، ٢١٥ .

لا... لم نعرف منك غير الصدق ؛ ثم سألهم الرسول: أرأيتم لو أخبرتكم
أن خيلاً بسفع هذا الجبل — أكنتم تصدقونني ؟ فقال الجميع: نعم ؛
أنت عندنا غير متهם ، وما جربنا عليك كذباً قط .

هنا استجمع الرسول الصادق الأمين كل قوته وقال لهم:
فإن لسكم نذير بين يدي عذاب شديد . ثم صاح بأعلى صوته وقال:
يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة
يا بني تميم يا بني حزروم يا بني أسد
إن الله قد أمرني أن أنذر عشرة الأفرين ، وإن لأملاككم من
الدنيا متفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا « لا إله إلا الله » .
ثم أكل بيانه هذا بأن دعاهم إلى نبذ الوثنية ، واجتذب الفواحش
والإيمان بوحدانية الله وانتهاج سبيل الخير .
وذلك هو البيان الأول — كما قلنا للثورة الجديدة — بلغة العصر الذي
نعيش فيه ٦

فيما من دعوة خطيرة اهتزت لها أرجاء مكة ، وأشعل بها الرسول
أول شعلة أضياء ظلمات الجاهلية ، ولكنها بعثت الحقد والغيفظ والشكد
والغيرة في نفوس القرشين — وخاصة الزعماء منهم — وكلهم أقرباء الرسول
وعشيرته ، وكان أكثرهم حقداً عليه عمه (أبو طه) وزوجته .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت الخطبة النبوية من أقوى أسباب الدعوة
الإسلامية ، وما ياش في أن هذه الخطبة الأولى أو البيان الأول للثورة قد
بعته خطب كثيرة دعت إليها الظروف الجديدة — كما دعا إليها وقع البيان
الأول على نفوس القرشين ، وقد أخذ هؤلاء يسأل بعضهم بعضًا عن
هذه الدعوة الجديدة وعن الأسباب التي حملت محمدًا للجهر بها من دونهم
وعن الغاية التي يهدف إليها من وراء ذلك ؟ فهل يهدف إلى نوع من
السيطرة عليهم في مكة المكرمة ثم فيها حولها من المدن الأخرى ؟

أم هل يريد أن يستكثر من الأنصار والأتباع لغرض آخر من الأغراض الدنيوية التي يعرفونها في حياتهم؟

ما لاشك فيه أن الناس انقسموا في أمره قسمين فنهم من استنكرون نداءه وأيقن في نفسه أنه سيرجع عن هذا النداء في أقرب الأوقات وهم الأكثريه ، ومنهم من أحسن لبيانه وقعاً جميلاً في أعماق نفسه ولكن خشى أن يجاهر في قومه بهذا الشعور .

ولذلك تبعت خطب النبي في هذه المرحلة ، وتابع نزول الوحي الذي رسم له سبيلاً وخطتها ، ومن ذلك قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما هي أحسن ، إن ربك هو أعلم من ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهكذا رسمت هذه الآية الكريمة للرسول العظيم طرق الدعوة العلنية وهو في مكانته المكرمة ، وهي طريق الحكمة أو استخدام العقل في أكمل صوره ، وطريق الموعظة الحسنة أو إبراء النصيح بالأخلاق وصدق ، وفي شيء كثير من إظهار الحب والودة .

وطريق الجدل بما هي أحسن أو التحدث إلى القوم بالحسنى ، وذلك في يسر وهدوء ويتقدم البراهين والأدلة . وقد سار الرسول في دعوته على هذا النهج ، واسهال إليه قلوب العرب حتى استجاب له الكثيرون منهم .

عرض الرسول نفسه على القبائل العربية

أما التربية الأخرى من ذرائع الإعلام في هذه المرحلة العلنية فهي ذريعة الاتصال الشخصي المباشر بالعرب المقصودين بهذه الدعوة ، وبعبارة أخرى ، هي عرض الرسول نفسه على القبائل العربية .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام في صدر الإسلام وذلك في الباب الأول ، ولاشك أنها كانت من أخطر المرايا الإعلامية في عصر تفشت فيه الأمية ، وانعدمت فيه وسائل الإعلام بالمعنى الذي تفهمه في العصور الحديثة .

وما لاشك فيه أن الاتصال المباشر بالناس كان ميسوراً في ذاته إبان المصور القدعة كلها ، وذلك لقلة الناس من حيث العدد وإن قلت طرق المواصلات التي كان في استطاعتها أن تساعد على هذا الاتصال الشخصي ٰ

لم يكن في مكة مطبعة تخرج كتاباً ولا صحيفاً ولا مديعاً ينشر أخباراً أو بيانات ، لكن كان بمكة رواة ينقلون الأشعار والأحاديث من مكة إلى كل مكان ، وكان بها منادون لا يكادون يبرحون الأسواق العامة ، وبالرغم من جميع هذه الصعوبات المادية ، فقد وجدنا الرسول يشق على نفسه كثيراً في ممارسة هذه التربية التي لابد منها من ذرائع الإعلان والاتصال بالناس ، فكان يذهب إليهم في أماكنهم ، وكان يلتقي ببعضهم في موسم الحج ، ولذلك لقى الرسول من هذه التربة الأخيرة من ذرائع الإعلام ، وهي ذرعة الاتصال الشخصي ، كل عنت وإناء ومشقة وذلك إلى الدرجة التي هي فوق طاقة البشر .

لذكر الرسول ذات يوم في الذهاب بنفسه — كما سبق أن ذكرنا ذلك — إلى ثقيف بالطائف ، وذلك ليعرض نفسه عليهم لما كان من آل ثقيف إلا أن أسعوا استقباله وعاملوه أسوأ معاملة ، وبالغوا في ذلك أقصى درجات المبالغة ،

ولدى ذلك الوقت كان يقف وراء النبي يسانده زوجته خديجة وحده أبو طالب ، وكان العرب يخشون هاتين الشخصيتين الكبيرتين ويعملون لها حساباً كبيراً — فلما ماتا هان محمد على العرب ، وظهر ذلك في حادث الطائف الذي مر ذكره ومع ذلك فإن ثقة النبي في ربه وفي نفسه لم تهن ولم تزعزع ،

خرج النبي إلى الطائف لعله يجد فيهم من يستجيب لدعوته وينصره على قومه وعشائره ، ولم يكن يصحبه في رحلته إلى الطائف أحد من أصحابه ، والطائف مدينة صغيرة حصينة على بعد سبعين ميلاً من مكة تسكنها قبيلة ثقيف .

ولما أتى النبي رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذه المدينة قصد إلى نهر من ثقيف ، هم يومئذ سادة هذه القبيلة فعرض عليهم الإسلام — ولكن خاب فأله —

فقد أغاروه جميعاً أذناً صماء ، وأقام بينهم عشرة أيام يخطب الناس ويتوسلون رسالته ولا من يجيب .

وكان مما احتاج به أهل ثقيف على الرسول أن قالوا له : أعجزت عن أن تقنع قومك برسانتك فجئت إلينا لتقنعننا بها ؟

ولما وصلت الأزمة بينه وبينهم إلى هذه الدرجة طلبوا منه أن يغادر الطائف ، وما كاد الرسول يهرب بعذارة المدينة حتى وجد أن أشرافها وسادتها قد أغرى به سفهاءهم يسبونه ويصيرون به وقد اصطفوا على جانبي الطريق على مسافات طويلة في داخل المدينة فلما مر من بينهم جعلوا يرشقونه بالحجارة حتى أصابت الحجارة رجليه وعقبيه وسائل منه الدم ، وكان كلما اشتد تزيف دمه وأعياد التعب جلس يستريح بعض الشيء ، ولكنهم لم يتركوه بل كانوا يأمرونه بمتابعة السير .

إذ ذاك أتجه الرسول إلى بستان عتبة بن ربيعة ، وجلس في ظل شجرة وتحركت نفس عتبة شفقة عليه فبعث غلامه فقطف له شيئاً من عنب ، فلما وضع النبي يده فيه قال : باسم الله ثم أكل . فنظر الغلام دهشًا ثم قال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فسأله الرسول عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصراوي من (نيتوى) قال له : أمن قبيلة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فسأله الغلام : وما يدرك ما يومنس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخني كاننبياً وأنا نبي ، فاكب الغلام على محمد يقبل رأته ، ويديه وأسلم .

ثم مضى النبي في رحلته والصبية والغلمان يتبعونه بالحجارة حتى وصل إلى شجرة يستظل بظلها ، وهناك أتجه إلى ربه قائلاً :

اللهم إلينك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي و هواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عفيفتك أوسع لي ، أغزوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تخل على سخطك ، لئلا العتبى حتى ترضى ، ولا حoul ولا قوة إلا بك ؛

هذه النفس الصافية الطيبة وبهذا الصبر الجميل والخلق السكري بمثابة قابل
الرسول قسوة البشر ولم ييأس قط من رحمة الله ، ولا من نصره وتأييده .

وهذا مثال واحد فقط على ما كان يلقاه الرسول من عنان القبائل التي
عرضن نفسه عليها ، أو التي كان يمارس معها وسيلة من الوسائل الإعلامية التي
هي من حق كل إنسان في الوجود من يوم خلق آدم إلى اليوم — وهي
وسيلة الاتصال المباشر .

على أن هذا وذاك يؤدي بنا إلى الحديث عن المرحلة الثالثة من مرحلة
الدعوة وتعني بها مرحلة الاضطهاد الديني .

الفصل الثالث

مرحلة الاضطهاد الديني

لا تعرف العظمة النفسية إلا في لوقات الحزن ، ولا يمتنع الكمال الخلقي بشيء قلر ما يمتنع بالأزمات والمتاعب .

وقد مرت بالرسول مرحلة الاضطهاد الديني بمكة المكرمة لبيلوه الله في هذه العظمة النفسية والكمال الخلقي ، ومن هنا كانت هذه المرحلة أعنف المراحل التي مرت في حياته صلوات الله عليه ، ولكنها قابل هذه المرحلة العنيفة بالصبر وإن كان لشدة حرصه على إيمان القوم يظهر كل الحزن لمعاملة التي عاملوه بها ، والأقوال الجارحة التي وجهوها إليه ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ويقول تعالى : « ولا تخزن عليهم ولا تلك في ضيق مما يمكرون » .

وقوله تعالى : « ولا يخزن تلك قويمهم ، إن العزة لله جمِيعاً » .

أجل كان محمد يكافع بأسلحة كبيرة من أوطاها وأقواها (سلاح الإيمان) وإن أشد ما يحتاج إليه الداعية هو (الإيمان) بالدعوة التي جاء بها وحرص شديد على نجاحها واتساعها ، ولم نسمع في التاريخ بداع يعزز الإيمان بدعويه والحرص على الغيرة على هذه الدعوة .

* * *

عجبت قريش من أن بعض العرب استجابوا لمحمد وخرجوا بذلك على إجماع أهل مكة وخذلوا بذلك هيبة القرشيين وتركوا ما كان يعبدون بازفهم وأجدادهم وألت قريش على نفسها منذ ذلك الوقت على أن تعطى كل ما في وسعها للقضاء على هذه الدعوة في مهدها ، وهكذا قضت سنة الله بأن يكون حملة المذابحة الإنسانية معرضين دائمًا لأقصى ألوان العذاب :

وذلك تصديقاً لقوله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون » .

وكانت قريش تمارس هذا الاضطهاد والتعذيب مع النبي نفسه حيناً ومع أتباعه من القراء والمساكين. حيناً آخر ، وفي ذات يوم كان الرسول ساجداً عند الكعبة فأتى أبو جهل على رقبته أحشاماً ناقة مذبوحة، وطبع أبياً جهل في هذه الأعمال القبيحة غيره من أهل مكة. فكانوا يلقون في طريق النبي بالقاذرات والأشواك ، وبالغ بعضهم في إهداه النبي حتى حاولوا أن يخنقوه برداه حتى يموت ، وكاد بالفعل أن يموت لو لا أن أدركه أبو بكر الصديق .

أما أتباع الرسول من العبيد فقد عرضهم القرشيون لأقصى أنواع الإهانة والتعذيب ، ومن أولئك العبيد عبد اسمه (بلال) أمره مولاه فاستلقى على الرمل المتقد تحت الشمس الحارقة في الصحراء ثم وضعت قطع ثقيلة من الحجارة على صدره وبقي على هذه الحال حتى أصبح مغشياً عليه وهو لا يقول إلا الكلمة « أَحَدٌ ، أَحَدٌ » ولا يزيد عليها .

وبنفس هذه الطريقة بل بأقسى منها تولى القرشيون تعذيب عبد آخر من العبيد وأسمه « ياسر » فقد شدت رجلاه إلى بعيرين ، ثم سبق البعيران في اتجاهين متضادين ، ومع هذا وذاك فلم يفلح المكينون في رد هؤلاء المسلمين المستضعفين عن هذا الدين الجديد، بل زادوا عليه ثباتاً وبه إعانتاً واستمساكاً ، وإذا ذلك لم يجد القرشيون بدأً من التفكير في طريقة أخرى - ليس هناك ما هو أشد منها وأنكى - وهذه الطريقة هي (مقاطعة) النبي وأصحابه. وكتبوا بذلك صحيفه وأعلنوا فيها إجاعهم على المقاطعة وفيها - أي في هذه الصحيفه التي علقوها على أستار الكعبة أنهم لا يبيعون المسلمين ولا يبتاعون منهم شيئاً ، وأنهم لا يزوجونهم ولا يزوجون منهم ، وأنهم يحرمونهم من وصول الأطعمة إليهم . فاما تهليفهم هذه الصحيفه المشوهة على أستار الكعبة فـ كان الغرض منه أن تكتسب صفة القدسية .

ومع ذلك فحتى هذه الطريقة الوحشية في المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية
لم تفلح في زعزعة المسلمين عن دينهم ، وتركتهم لرسولهم في هذه الفترة
المرجحة من فترات حياته .

إذا ذلك فسكتت قريش في العذول عن هذه المقاطعة وذهبت تنزع
الصحيفة من الكعبة ، فإذا بها قد أكلتها الأرضية ولم يبق من ألفاظها إلا لفظ
باسمك اللهم .

في تلك المرحلة المصيبة من مراحل الدعوة الإسلامية لم يكن في وسع
النبي وال المسلمين أن يسلكوا في سبيل دعوتهم وسيلة من وسائل الإعلام
المعروفه غير (الوسائل السلبية) .

وذلك أنها يجب أن تنظر إلى مواقف المسلمين الرائعة في الثبات على
دينهم وعقيدتهم ، وهي العقيدة التي تغلقت في أعماق قلوبهم إلى الحد
الذي أیأس منهم الكفار والمرشكين .

وبهذه الطريقة السلبية التي ثبت عليها النبي وال المسلمين المضطهدون استطاع
هؤلاء أن يكونوا أثثبي شئ ، ينقوس كبير بهذه الكفار والمرشكين ويوقف
ضيير الإنسانية في كل مكان ، ويشعر المكيين بأنهم أجرموا في حق المسلمين
المستضعفين وبأثتم مما قسوا عليهم فلن يتركوا دينهم ولن يخلوا نبئهم ،
ولن يفرطوا في عقيدتهم ، وفي هذا درس لهم وإعلام كبير بالرسالة التي
نزلت على رجل منهم ، وإعلان عظيم عن هذه الرسالة التي أتى بها .

وهكذا خلت مرحلة الاضطهاد الذي من أكثر الوسائل الإيجابية في اخلاع
القرآن والحديث ، ولكنها لم تخل من الوسائل السلبية التي أثبتت الزمن
أنها لا تقل مطلقاً عن الوسائل الإيجابية من حيث القوة .

وأقرب من هذه الوسائل السلبية في العصر الحديث إضراب زعيم مني
أو طائفة من العمال والنساء عن الطعام حتى يحدثوا بهذا الإضراب تنبئها قوياً
المصادر السلطة كالحكومة وغيرها — وذلك حتى تستجيب هذه المصادر
للمطالب التي وقع الإضراب عن الطعام بسببها ،

وماذا فعل الزعيم سعد زغلول في الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩
حين نفاه الإنجليز أكثر من مرة في جزيرة سيشل أو في مالطة ؟ ثم ماذا
فعل الزعيم خاندى بعد ذلك حين قاوم إنجلترا القوية بجيوشها وأساطيلها
بالأسلحة السليمة :

إن التاريخ حاول بالأمثلة التي تدل على هذه الطرق السلبية من
طرق الإعلام ؟

وعلى مقدرتها على القيام بوظائفها الإعلامية بنفس القدرة التي للطرق
الإيجابية بل ربما زادت عنها :

* * *

غير أن الرسول نفسه كان في مرحلة الاضطهاد الدينى من مراحل
الدعوة مستمراً في نفس الطرق التي كان يسلكها في المرحلة السابقة ،
ومنها ، أى من هذه الطرق ، طريقة الاتصال الشخصى والجماعى المباشرة
وأكثراً ما كان ذلك في موسم الحج من كل سنة .

وقد عرفنا في الباب الأول من أبواب المكتاب كيف أنه بطريق الحج
اكتسب الإسلام شعبية أخذت تكبر مع الأيام شيئاً فشيئاً ، فقد كان الناس
يتحدثون في الحج بما يجرى للرسول وأصحابه ويتسامعون بأخلاقه ،
وبما امتازوا به من الصبر والثبات على دينهم وما تحملوه في سبيل الحفاظة
على عقيدتهم ، وكانت هذه الأحاديث التي يهامسون بها ثيراً في أعمق
نفوسهم لاعجاباً عميقاً وتقديرها عظيم للرسول وأصحابه .

وفي السنة العاشرة للبعثة النبوية التي الرسول في موسم الحج بعدد من
أهل يرب من قبيلة المخزرج وعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم ستة ،
أغراهم بذلك أنهم مجاوروون لليهود في يرب (الاسم القديم للمدينة) وقد
حلّتهم اليهود عن ظهور دين جديد مذكور عندهم في التوراة ونبي جديد
ذكر عندهم أيضاً: فلما رجع الستة إلى يرب أشعلواها حماسة لهذا الدين
المجديد وملأوها حديثاً عن هذا الرسول الجديد ، وهو الرسول الذي
بشرت به التوراة والإنجيل ، وكان هذا كله لارهاضاً لحركة المظليمة التي
قام بها المسلمون بعد ذلك ، وهي حركة المجرة .

الفصل الرابع مرحلة الهجرة

بالغ المكيون في اضطهاد الرسول وأتباعه كما رأينا ، فلم يجد الرسول وأصحابه بدأ من التفكير في الهجرة ، وكانت هذه الهجرة في ذاتها على مراحلتين :

الأولى : هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة .

والثانية : هجرة الرسول نفسه وبعه أبو بكر إلى المدينة المنورة .

الهجرة إلى الحبشة

أشار الرسول على بعض أتباعه بالهجرة إلى بلاد الحبشة قائلا لهم :
إن بها ملوكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق فاذهروا إليها حتى يجعل
للله لكم فرجا مما ألمت فيه .

واستعد أول فوج من أتباع الرسول إلى الهجرة إلى تلك البلاد ، وكان
هذا الفوج يتكون من أحد عشر رجلا ، منهم أربعة اصطحبوا زوجاتهم
معهم ، ومن هؤلاء الأربعة عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول .
وكان ذلك في رجب من السنة الخامسة للدعوة ، وكان جعفر بن أبي طالب
أحد الذين هاجروا إلى هناك ، وله خطبة رائعة خطبها بين يدي النجاشي رد
فيها على الدعاية الخبيثة التي قام بها المكيون لإقناع النجاشي ببطلان الدعوة
الإسلامية ، فقد بعثت قريش بمنها إلى النجاشي لهذا الغرض ، وأنجذبوا
معهم المدايا الكثيرة التي تقربوا بها إلى رجال الدين لكي يستخدموا ثروتهم إلى
الملك ويقنعوا به المهاجرين إلى مكة قائلين للملك إن هذا الدين الجديد
يتعارض على حد سواء مع الوثنية ومع النصرانية في وقت معاً .

فما كان من النجاشي إلا إن دعا المسلمين المهاجرين إلى الرد على هـ
النـمـ الـى نـسـبـتـ إـلـيـهـ .
لـنـسـتـمـعـ الـآنـ إـلـىـ حـجـجـ الـجـاهـيـنـ :

أرسل القرشيون وفدهم إلى النجاشي — و منهم عبد الله بن أبي ربعة
و عمرو بن العاص — فقال هذا الأخير للنجاشي :

إنه قد جأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا
في دينك و جاموا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك
فيهم أشراف قومهم من آياتهم وأعمامهم وعشائرهم لترد عليهم فهم
أعلى بهم عينا (يريد أئمـهـ أبـصـرـهـ) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلمـ سـمـعـ النـجـاشـيـ كـلـامـ عـمـرـوـ بـنـ الـعـاصـيـ رـأـيـ منـ الـحـكـمـ أـلـاـ يـسـلـمـ إـلـيـهـ
الـمـهـاجـرـيـنـ حـتـىـ يـسـمـعـ كـلـامـهـ وـحـجـجـهـ ، فـأـرـسـلـ إـلـىـ هـؤـلـاءـ الـمـهـاجـرـيـنـ
وـاسـتـدـعـاهـمـ ، فـلـمـ جـاءـهـمـ قـالـ لـهـمـ :

ما هـذـاـ الـدـيـنـ الـذـيـ فـارـقـمـ فـيـهـ قـوـمـكـ وـلـمـ تـدـخـلـوـاـ فـيـ دـيـنـ وـلـادـيـنـ أـلـدـ

منـ هـذـهـ الـمـلـلـ؟

فـأـنـتـدـبـ الـمـهـاجـرـوـنـ جـعـفـرـيـنـ أـبـيـ طـالـبـ لـيـتـحدـثـ عـنـهـمـ فـقـالـ :

«أـيـهـ الـمـلـكـ — كـنـاـ قـوـمـاـ أـهـلـ جـاهـلـيـةـ ، نـعـبـدـ الـأـصـنـامـ وـنـأـكـلـ الـمـيـةـ ، وـنـأـنـىـ
الـفـوـاحـشـ ، وـنـقـطـعـ الـأـرـحـامـ ، وـنـسـىـ الـجـهـوارـ ، وـيـأـكـلـ الـقـوـىـ مـنـ الـصـعـيـفـ ،
وـكـنـاـ عـلـىـ ذـلـكـ حـتـىـ بـعـثـ اللـهـ فـيـنـاـ رـسـوـلـاـ مـنـاـ نـعـرـفـ نـسـبـهـ ، وـصـدـقـهـ ، وـأـمـانـتـهـ
وـعـفـافـهـ ، فـدـعـانـاـ إـلـىـ اللـهـ لـنـوـحـدـهـ وـنـعـبـدـهـ ، وـنـخـلـعـ مـاـ كـنـاـ نـعـبـدـ نـحـنـ وـآبـاؤـنـاـ
مـنـ دـوـنـهـ مـنـ الـحـجـارـةـ وـالـأـوـثـانـ ، وـأـمـرـنـاـ بـصـلـقـ الـحـدـيـثـ ، وـأـدـاءـ الـأـمـانـةـ ،
وـصـلـةـ الـرـحـمـ ، وـحـسـنـ الـجـهـوارـ ، وـالـكـفـ عنـ الـمـحـارـمـ وـالـدـمـاءـ ، وـنـهـانـاـ عـنـ
الـفـوـاحـشـ وـقـوـلـ الزـورـ ، وـأـكـلـ مـاـ الـيـتـيمـ ، وـقـلـفـ الـخـصـنـاتـ ، وـأـمـرـنـاـ أـنـ
نـعـبـدـ اللـهـ وـلـأـنـشـرـكـ بـهـ شـيـئـاـ ، وـحـرـمـ مـاـ حـرـمـ عـلـيـنـاـ ، وـأـحـلـ مـاـ أـحـلـ لـنـاـ ، فـعـدـاـ
عـلـيـنـاـ قـوـمـنـاـ ، فـعـدـيـبـوـنـاـ وـقـتـنـوـنـاـ عـنـ دـيـنـنـاـ لـيـرـدـوـنـاـ إـلـىـ عـبـادـةـ الـأـوـثـانـ ، وـأـنـ
نـسـتـحـلـ مـاـ كـنـاـ نـسـتـحـلـ مـنـ الـحـبـاثـ ، فـلـمـ قـهـرـوـنـاـ وـظـلـمـوـنـاـ وـضـيـقـوـاـ عـلـيـنـاـ ،

وحالوا بيننا وبين ديننا نخرجنا إلى بلادك ، وآخرناك على من سوالك ،
ورغبنا في جوارك ، ورجونا لا نظلم عنك . ثم تلا عليه بعض آيات من
القرآن الكريم ، فتأثر النجاشي بهذا الحديث تأثراً عميقاً ، ثم قال للوفد
الذي حضر من مكة :

« إن هذا الذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة — انطلقوا
والله لا أسلهم إليكم أبداً » .

وهكذا تغلب الإعلام الإسلامي الصحيح على الدعاية الوثنية التي
في حضرة النجاشي .

ضاقت صدور المشركين بمحمد ، وبلغ بهم الضيق غاية ليست وراءها
غاية ، وأجمع رأيهم على أن يطلقوا آخر سهم من سهام جعبتهم ، فاجتمع
بزعمائهم في (دار الندوة) قريباً من الكعبة ، وكان من بينهم أبو سفيان
وأبو جهل وأبو لهب والوليد بن المغيرة والنصر بن الحارث وحالفه بن الوليد
والحكم ابن أبي العاص وغيرهم من سادة قريش ، وأخذوا يتشاورون في
الأمر ، فقال أحدهم : أما آن لنا أن نتخلص من محمد ؟ لقد كنا نعمل
حساباً لعنه أبي طالب وقد مات ، وكنا نعمل حساباً لزوجه
خديجة ولقومها ، وقد ماتت ، ومن هنا بدأت المفترحات الكثيرة
لتخلص من محمد .

فأما أحدهم فيقترح أن يقيدوه محمد بسلاسل وأغلال ، وبخسسه حتى
يموت ، وأما الثاني فيقترح أن ينفي محمد من الأرض فتستريح منه قريش على
الأقل ، وأما الثالث فيقترح قتله بالسيف ، ويناقش القوم كل هذه المفترحات
فلا يقنع العقلاً منهم بواسد منها .

وآخرآ يجمعون الرأي على أن ينتدب من كل قبيلة من القبائل واحد
يمثلها ثم يشرك جميع الممثلين لهذه القبائل في جريمة القتل ، وبذلك يتفرق
هم محمد بين القبائل العربية ، ويستريحون منه .

ووقف عقبة بن أبي معيط مثلاً لبي عبد شمس ، ووقف النضيرين

الحارث مثلاً لبني عبد الدار ، ووقف أمية بن خلف نائباً عن جماعة ، ووقف أبو هب نائباً عن بنى هاشم ، وحضر القوم الليلة التي يقفون فيها لتنفيذ هذه الخطة وذهبوا إلى دار النبي وأحاطوا بها من كل جانب ، ولكن الله أحبط هذه المؤامرة كما هو معروف في سيرة النبي ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

وَإِذْ يَمْكِرُ بِكُلِّ الدِّينِ كَفَرُوا لِيَثْبُتوهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ ، أَوْ يُخْرِجُوهُ ،
وَيَمْكِرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١) .

وفي تلك الليلة أمر الله تعالى الرسول الكريم بالخروج من بيته ، فخرج ومعه رجل واحد من أصحابه هو أبو بكر ، وخرج الرجالان من مكة وواصلا سيرهما إلى الغار ، ثم مضيا في طريقهما حتى اقتربا من المدينة .

واستقبل أهل المدينة الرسول وصاحبه استقبلاً حسناً ، وبالغوا في الاحتفاء بهما ، وبذلك نجا الرسول من كيد قريش ، ونزل قوله تعالى :

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذَا أَخْرَجَهُ الدِّينُ كَفَرُوا ثَانِيَ النِّينِ ،
إِذَا هُوَ فِي الغَارِ ، إِذَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَيْهِ وَأَيْدِيهِ بِجُنُودِ لَمْ تَرُوهَا ، وَجَعَلَ كَلْمَةَ الدِّينِ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلْمَةَ اللَّهِ
هِيَ الْعَلِيَّةُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

ومنذ اللحظة الأولى من استقرار الرسول بالمدينة قام بحركة من أروع ما عرفه التاريخ البشري ، وهي حركة التأني بين المهاجرين والأنصار ، فقد كان المهاجرون قبل مجدهم إلى المدينة يحيون في مكة في رغد من العيش ، ولكنهم اضطروا بعد ذلك إلى التخلٍ عن ثرواتهم ومتلكاتهم ، وآثروا الفرار بدينهما إلى المدينة ، ولذلك عقد الرسول بينهم وبين الأنصار من أهل المدينة الأصلين نوعاً من الأخوة التي قلنا إن التاريخ لم يعرف لها نظيراً قبل ذلك ولم يعرف لها شبيهاً ، وإلى يومنا هذا ، فقد آوى كل واحد

(١) أَوْ لِيَقْبِلُوكُمْ بِالْأَغْلَالِ وَالسَّلاَلِ

من الأنصار أخا له من المهاجرين ، وشاطره ماله وقاسمه بيته ومتاعه ، حتى أن ممتلكات الأنصارى كانت إذا ما توفاه الله لا يرثها أخوه من أبيه ، بل يرثها أخوه المهاجر ، وبقى القوم على ذلك حتى حظر القرآن هذا النوع من الإرث ، وأوصى بأن ينتقل الميراث بالطريق الطبيعي إلى ذوى الأرحام قال تعالى :

(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم) .

وكان الأنصار أصحاب زراعة والمهاجرون أصحاب تجارة ، فحين عرض أنصارى على أخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف أن يأخذ نصف ممتلكاته شكر عبد الرحمن لأخيه الأنصارى ذلك وسأله أن يدله على سوق المدينة ، وفي السوق سعى عبد الرحمن في اكتساب الرزق عن طريق التجارة ، وما هي إلا فترة يسيرة حتى أثرى ثراء عظيما ، وعلى نحو مماثل انصرف سائر المهاجرين إلى هذا الميدان الذى يتفق وطبيعتهم التجارية .

ومن المهاجرين والأنصار فى المدينة انبعث عصبة المبشرين بهدا الدين وجماعة المعلمين الدينيين الذين حملوا مشعل الديانة الإسلامية إلى شئ أشلاء الجزيرة العربية ونجحوا في أداء مهمتهم نجاحاً منقطع النظير .

والحق أن الهجرة في ذاتها كانت وسيلة من أبلغ وسائل الإعلام في الإسلام ، ذلك أن مجرد خروج المسلمين من بلاد كانوا فيه منذ النشأة يخلق تساؤلاً كبيراً في المجتمع الذى فيه تزييف وتشويه لأنباء هذا الدين الجديدين بذك بفعل المشركين — وهو مجتمع مكة ،

وقد جعلت هذه الهجرة أهل مكة ب رغم هذا التزييف والتشويه يشعرون في داخل نفوسهم بأنه ما لم يكن هؤلاء المهاجرون على حق لما تركوا أمواهم وأهليهم وممتلكاتهم ووطنيهم الذى نشروا فيه ، فلابد إذن أن يكون الذى دعاهم إلى هذه التضحيات الجسيمة هو الحق والحق وحده . ثم إن هجرة المهاجرين خلفت فراغاً مادياً كبيراً في مكة ولفت هذا الفراغ الكبير أنظار

المكين للتغيرات التي حدثت في مجتمعهم ، ومن أهمها بطبيعة الحال ظهور هذا الدين الجديد . . ذلك ما حدث في مكة ، أما ماحدث في المدينة فأعظم وأعجب . فإن وجود عناصر مكية جديدة في المدينة لا بد أنه قد استرعى انتباه جميع من فيها ، وفي ذلك إعلان كبير من هؤلاء المهاجرين عن هذا الدين ، ثم جاءت حركة التأني بين الأنصار والمهاجرين دليلاً مادياً على نجاح هذه الوسيلة الإعلامية الكبيرة — وهي الهجرة من مكة إلى المدينة ،

ومن الجدير بالتنويه أن الله تعالى صور الهجرة نفسها في الآية الكريمة التي ذكرها «إلا تنصروه فقد نصره الله» ، إلخ بأنها انتصار للنبي صلوات الله عليه الأعزل من السلاح والعتاد على الكفار المزودين بالسلاح والعتاد ، وذلك في وقت كان فيه النبي في أخرج ساعة من ساعات حياته ، وخاصة حين وجد نفسه هو وصاحبه محبوبين في الغار ، والمشركون يخيفهم ورجلهم على باب هذا الغار ، بيدهم وبين أن يقتلوها أن يدخلوا هذا الباب .

الحق — لقد كانت الهجرة التي قام بها الرسول وأتباعه ثورة على الفساد في جميع أشكاله ، ثورة على الطغيان في الحكم والإجحاف بالحقوق ، ثورة على العبودية وتحكم الأقوياء في الضعفاء ، ثورة على فجور الجاهلية ، وحياتها المبنية على الشر ، ثورة على العصبية القبلية في نهاية الأمر ، فلا ولانية ، ولا إياضية ، ولا كسروية أو قيصرية ، ولكن حب وإخاء ومساواة وعدل وحرية وأخلاق إسلامية ، وسمو بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات .

وباختصار شديد . . لقد كانت الهجرة في ذاتها حركة إعلامية كبيرة قل أن يكون لها نظير في التاريخ ، وحسناً ذلك لتكون في الوقت نفسه ذريعة من أكبر ذرائع الإعلام في نشأة الإسلام ، وعلى يد صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

الفصل الخامس

مرحلة الاستقرار بالمدينة

استقر الرسول بالمدينة ، وبها بدأ – صلى الله عليه وسلم – صفحة جلديدة من صفحاته المجيدة سوف لا ننظر فيها على أنها صفحة من كتاب في التاريخ ، أو كتاب في الدين ، أو كتاب في الأدب ، أو كتاب في الأخلاق ، أو كتاب في فن الحرب . فقد قال كل واحد من رجال التاريخ والدين والأدب والأخلاق وال الحرب كل منه في هذه الصفحة وبقيت كلمة رجل الإعلام والدعابة والاتصال بالناس ، وهو ما تناول أن نعرض له بإيجاز في هذا الفصل .

والحقيقة التي لا ينبغي إنكارها بحال من الأحوال أنه بقدر ما ضاقت سسائل الإعلامية الإيجابية للإعلام في فترة الاضطهاد الديني – أو في العهد الملكي المتأخر – اتسعت أمام الرسول مجالات الإعلام بالطرق الإيجابية الجديدة ، ويمكن أن نشير من هذه الطرق إلى ما يلي :

- ١ – طريقة الأذان لإقامة الصلاة .
- ٢ – إقامة العلاقات الودية بين الرسول واليهود في داخل المدينة يقصد التعايش السلمي بينهم وبين المسلمين .
- ٣ – إقامة العلاقات الودية كذلك بين الرسول والقبائل العربية المجاورة للمدينة وذلك تأميناً للمسلمين في داخل المدينة ، وتمهيداً لدخول الإسلام في هذه القبائل .
- ٤ – اتخاذ الاحتياطيات الإعلامية التي لا بد منها في ظروف الحرب ، كالأرصاد واليهود التي تأقى الرسول بأخبار العدو .
- ٥ – بعثات الرسول إلى الملوك والأمراء ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام وهي حركة إعلامية لا توازنها في مجال الإعلام إلا حركة المجرة .

- ٦ — استقبال الرسول للوفود العربية التي وفدت عليه بالمدينة لكي تسلم على يديه وكان النبي يبعث مع كل وفد من هذه الوفود بالقراء والمعلمين الذين يفهّمونهم في الدين ويفسرون لهم بعض آيات القرآن الكريم .
- ٧ — التهامس بين الناس في أخبار الرسول وأخبار هذا الدين الجديد وأوضاع ما كان ذلك في حادث الهجرة وفي فرات الصلح بين المسلمين والشركين كما كان الأمر في صلح (المديبية) ، وسنسرح ذلك فيما بعد .
- ٨ — غزوات النبي باعتبارها إعلاناً كبيراً عن الإسلام . فقد أمسك النبي بالقرآن في إحدى يديه ، وأمسك بالسيف — كما أمره القرآن الكريم — في يده الأخرى .
- ٩ — سرايا النبي وبعوته الخربية إلى تخوم الروم تأميناً لحدود المسلمين بالمدينة من جهة ، وإنذاراً لأعداء الإسلام من العرب وغيرهم بقوة هذا الدين الجديد وهبته حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده .
وهذا كله فضلاً عن الخطب النبوية التي سمعها بفضل من فضول هذا الباب ، وفضلاً عن حركة (الإخاء) التي بدأ بها النبي صلوات الله عليه حياته بمقره الجديد وهو المدينة المنورة ، وقد تحدثنا عنها .

* * *

وقد سبق لنا في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب أن شرحتنا ما عرفه الإسلام من وسائل الاتصال بالناس ، وأتينا بعض المعلومات التي تعين على فهم ما يبيّن من هذه الوسائل ،
ووقفنا عند القرآن الكريم بوصفه أكبر هذه الوسائل على الإطلاق ،
وكل ذلك منذ بداية الرسالة الحمدية إلى نهايتها .
ووقفنا عند الأحاديث النبوية بوصفها قوة دعائية وإعلامية ليس هناك أعظم منها في حياة الرسول صلوات الله عليه وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة العصور الإسلامية التي تلتها لي يومنا هذا ، والسبب في ذلك أن أبرز صفة من صفات الرسول هي قدرته على التأثير في الغير ، وقد كانت هذه الصفة بشكل أكبر خطراً واجهه المشركون في مكة .

ولهذا السبب الأخير عرضنا (للانصال الشخصي والجمعي) بوصفه من أنجح وسائل الإعلام في عهد الرسول ، وإليه يرجع الفضل الكبير إقناع العرب بدخول هذا الدين .

ووقفنا كذلك عند (القدوة الحسنة) بوصفها من أنجح طرق التربية والإعلام ، وهي الطريقة التي أحسنها الرسول والصحابة واكتسبوا بها عدداً كبيراً من الأصدقاء قوى بهم الإسلام وانشر في ربوع شبه الجزيرة .

وتحديثنا بإيجاز عن القصص غير القرآني وما كان له من عظيم الأثر في رفع الروح المعنوية عند المسلمين ولذلك سمع به عمر بن الخطاب على شيء من الخبر والتخوف ثم أذن عثمان بن عفان بدون شعور بالخدر أو التخوف ثم أصبح مادة لاغنى عنها جميع الخلفاء والأمراء في الإسلام بعد ذلك .

ويقى أن تتحدث في الفصول التالية من فصول الباب الثاني عن هذه المجالات الجديدة التي مارسها الرسول في حقل الإعلام ، وهي المجالات العشرة المتقدمة ، وليس معنى ذلك أن الإعلام في عهد الرسول حصر نفسه في هذه المجالات ، وأحتفظ لنفسه بالمجالات السابقة التي مارسها الرسول قبل عهد الاستقرار ، ولكن معناه أن هذه المجالات العشرة — مضافاً إليها مجال الخطاب والأحاديث والقدوة الحسنة وغيرها — ليست إلا أمثلة من النشاط الإعلامي على يد الرسول في عهد الاستقرار .

الأذان وإقامة صلاة الجمعة

كان المسلمون تحالل إقامتهم يمكّن بجدلون صعوبة كبيرة في إقامة الصلاة على شكل جماعة ، فلما تمت الهجرة إلى المدينة أصبحوا أحراراً في إقامة صلاة الجماعة ، وجلس الرسول وأصحابه يدرسون مختلف السبل التي يستطيعون بها إعلام المسلمين بمواقع الصلاة ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة ، وذلك عدا صلاة الجمعة وصلاة العيددين .

وفي الليلة السابقة لاجماع النبي وأصحابه كان عمر بن الخطاب يرى فيما يرى النائم أن رجلا يردد قوله بصوت مرتفع : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمد رسول الله ، إلى آخر صيغة الأذان المعروفة ، وكان صحيحا آخر قد رأى هذه الرؤيا ، فلم يسمع الرسول ﷺ إلا الرضا بهذه الطريقة التي يعلن بها عن إقامة الصلاة ليقوم بها المسلمون فرادى أو جماعات .

وعلى هذه الصورة أذن (بالل) للصلاة من يوم الجمعة بالمدينة المنورة .

وهكذا أصبح الأذان وإقامة الصلاة أكبر إعلان للإسلام ، وإذا كان فين الإعلان في ذاته قاتماً قبل كل شيء على (التكرار) فما بالك في هذا الإعلان الإسلامي ، وهو يذكر الناس بهذا الدين خمس مرات في اليوم والمليلة ، وفي كل مرة منها يسمع المسلمون ويسمع غيرهم هذا النداء العظيم ،

الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمد رسول الله ، حي على الصلاة . حي على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر ، لا إله إلا الله . إنه إعلان كبير للإسلام لفت أنظار الناس جميعاً في المدينة ، ومنها انتشر في بقية أجزاء شبه الجزيرة .

لقد قلنا فيما سبق أنه كان من وسائل الإعلام القديمة وسيلة (المنادى) وبالإسلام أضيفت إليها وسيلة من نوعها هي وسيلة (المؤذن) . وهو الذي ينادي على الناس لإقامة الصلاة في مواقتها . ولذا كانت هذه الوسيلة الأخيرة من خير ما وفق إليه محمد وأصحابه في الإعلان عن الإسلام ، والإعلام بأن الصلاة ركن من أركانه .

٣

الثانية العلاقات الودية مع اليهود

وقد سبق لنا أن ربطنا هذا النوع من العلاقات بما يسميه رجل الإعلام في العصر الذي نعيش فيه (بالعلاقات العامة) لأن الغاية من هذين النوعين واحدة، وهي التعريف بشئء جديداً يحرص رجل العلاقات أن يثبته في ذهن الطرف الآخر .

وننظر في سيرة الرسول ﷺ - فنجد أنه قد مارس هذا النوع من أنواع الإعلام وبذل فيه أكبر جهد ممكن .
نظر الرسول ﷺ (المدينة) التي انتصر بها سكّنها ثلاثة عشر شهراً يهودية كبيرة وهي :

- ١ - بنو النضير .
- ٢ - بنو قريظة .
- ٣ - بنو قينقاع .

وأما بقية سكان المدينة فكانت تتألف من قبيلتين هما :

- ١ - قبيلة الأوس .
- ٢ - قبيلة الخزرج .

وكانت الكثرة من هاتين القبيلتين قد دخلت في الإسلام « .
نظر الرسول في هذا السكّان العربي الذي تألفت منه المدينة ، وفي الأجزاء التي يتألف منها هذا السكّان ، وإذا ذاك فكر أول ما فكر في عقد (ميثاق) بين المسلمين واليهود وعرضه عليهم ، وكان هذا الميثاق يتألف من البنود الآتية :

- ١ - أن يتعايش المسلمون واليهود في داخل المدينة وكأنهم أمة واحدة وهذا معبر عنه في العصر الحديث بكلمة (التعايش السلمي) .
- ٢ - أن يلزم كل من الفريقين دينه وألا يتدخل في دين الآخر .

٣ - يجب على كل من الفريقين في حالة نشوب الحرب مع فريق ثالث أن يبادر لنصرة الآخر ، ولكن بشرط أن يكون الفريق المعتمد عليه مظلوماً وأن يكون الفريق المعتمد هو الضال .

٤ - في حالة الهجوم على المدينة نفسها يجب على الفريقين أن يتعاونا في الدفاع عنهاعاً .

٥ - على الفريقين أن يتشارقا في الصلح إذا رغبوا فيه .

٦ - ينظر الفريقان إلى المدينة على أنها بلد حرام لا يحل فيه سفك الدماء .

٧ - في حالة النزاع بين الفريقين يكون الرسول هو الحكم الأخير .

إن العمل على إنشاء مثل هذه العلاقات الودية يعتبر عملاً سياسياً وأجتماعياً وأعلامياً في وقت واحد . وهو في نظرنا عمل إعلامي من الدرجة الأولى ذلك أنه يهدف إلى التعايش السلمي على أحسن وجه ، وبه ينظر التاريخ إلى الرسول على أنه رجل ممتاز في جميع هذه الميادين التي أشرنا إليها .

ولو صدقت نية اليهود تجاه (الميثاق) ولو درسوه دراسة بريئة من الحقد والهوى لأراهموا أنفسهم وأراهموا المسلمين منهم من عناء وعيث كثيرون ولعلموا علم اليقين أن هذا الدين الجديد دين سلام ووفاق ، ولوس دين خصام وشقاق ، وأن التعايش السلمي في ذاته من أسمى غايات هذا الدين ومن أوجب واجباته ، ولكن التاريخ أثبت أن اليهود بيتوا منذ اللحظة الأولى لتصوّص هذا الميثاق سوء النية واشتركوا جميعاً في إشعال نار الفتنة ، وشكلوا في المدينة خطرًا داخلياً لا يمكن التلاوة منه إلا بأمر واحد فقط هو القضاء عليهم واستئصالهم وإطفاء هذه الفتنة ، وذلك ما وجد الرسول نفسه مضطراً إلى سلوكه معهم ، كما سيتضح ذلك فيما بعد .



العلاقات الودية مع القبائل المجاورة

نظر الرسول وأصحابه كذلك فإذا هم محاطون بأعداء من كل جانب :
(أما من الداخل) فهناك عدوان خطيران هما اليهود من جانب ،
و(عبد الله بن أبي) رأس المذاقين بالمدينة من جانب آخر .

(وأما من الخارج) فهناك قريش من جهة ، وهناك القبائل المجاورة للمدينة من جهة ثانية ، وبذلك أصبح الرسول مهدداً بخطررين عظيمين هما :
المجوم عليه من خارج ، وخيانة اليهود له من الداخل ، وكلما الخطرين وشيك الوقع في كل لحظة .

وهذه الظروف هي التي دعت الرسول إلى إقامة علاقات ودية مع القبائل العربية المجاورة للمدينة على نحو ما أقام هذه العلاقات بينه وبين يهود المدينة ،
ولذلك أخذ الرسول عهوداً ومواثيق على بعض هذه القبائل المجاورة ، من ذلك العهد الذي أخذه على (بني حمزة) ، وقد نص هذا العهد على أن
أرواحهم ومتلكاتهم ستكون في أمان تام ، وإذا هاجمهم علو سارع المسلمون
لنصرتهم حتى يرجع العدو أدراجه .

ومرة أخرى نقول إنه عمل سياسي وإعلامي في وقت معاً ، فبدون هذه
العهود ما كانت العرب لتعرف شيئاً له قيمة الإعلامية عن الرسول ولا عن
الدين ، ولا عن الغاية التي من أجلها ظهر هذا الرسول بهذا الدين ، فهو لم
يظهر في العرب ليسلفك دماءهم ويشتت رجالهم ويحدث الشقاقي بين أعضاء
العشيرة الواحدة كما زعمت قريش ، وكما قالت بذلك الدعاية السنية التي نشرها
القرشيون حول الرسول ولكن الله بعنه لغایات كريمة ، وأهداف سلمية
وإصلاح هذه الدنيا بعد أن فسدت واستهمال صلاحها إلا عن هذا الطريق .

الاحتياطات الإعلامية وال الحرب

أمر الرسول من قبيل ربه بالحرب ، ولذلك حمل الرسول وأصحابه القرآن في يد والسيف في يد ، وفي أثناء الحروب تعرض الرسول لطائفة كثيرة من المحن امتحنه الله بها ، وال ساعات الحرجة والمواقف الممتازة التي عرف التاريخ قدره بها ، وقد كان من أخطر الأعداء الذين حاربوه صلى الله عليه وسلم عدوان كبيران هما اليهود من جانب وقريش من جانب آخر :

أما اليهود فقد كان الرسول قادرًا عليهم ، يقظًا كل البقظة لأدنى حركة من حركاتهم ، متقطنًا لمؤامراتهم وتدابيرهم ، أما قريش فكانت هي الداهية الدهباء والعقبة الكادمة والمشكلة التي كادت تستعصى عن الحل ، لأنها كانت مصراً على اقلاع جذور الإسلام بكل الطرق التي تملكتها ، وزادت إصراراً على ذلك من ذلك نجح الرسول عليه السلام في الهجرة من مكة إلى المدينة ،

من أجل ذلك كان لا بد من وقوع الحرب بينها وبين الرسول : قريش تقوم دائمًا بالهجوم ، والرسول يقوم دائمًا بالدفاع ، ونزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » ، وقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وعلى هذه القاعدة القرآنية — وهي قاعدة الدفاع وعدم الاعتداء — دخل الرسول ضد قريش ، واتخذ لنفسه بعض الاحتياطات الإعلامية منها :

أولاً — حاول بطرق غير استفزازية أن يفهم قريشاً ويعلمها بهذه الحقيقة وهي أن المسلمين لا يغى لهم عن الحج ، وأن تجارة قريش تصبح في خطر كبير إذا حاولت قريش أن تصدهم عن أداء هذه الفريضة .
ثانياً — تقطيم سراياها استعلامية تأثيره بعلميات عن تحركات العدو .
ومنها — على سبيل المثال — سرية بقيادة عبد الله بن جحش ، وقد دفع الرسول إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من صدوره ، ثم يكتفى

لَا أَمْرُ الرَّسُولِ يَهُ ، وَلَا يَسْتَكِرُهُ مِنْ أَهْلَابِهِ أَحَدٌ ، فَلَا فَتْحٌ عَبْدَ اللَّهِ
الْكِتَابِ — كَمَا أَمْرُهُ الرَّسُولُ سَوْجِدَهُ يَقُولُ : إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَلَمْ يَمْضِ
حَتَّى تَنْزَلَ (نَخْلَةً) فَتَرْضِيَهَا قَرِيشًا ، وَتَعْلَمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِ :
مَعْنَى هَذَا أَنْ مَهْمَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ كَانَتْ بِهِ رَدِ إِجْرَاءٍ وَقَائِيٍّ ،
وَإِعْلَمَى خَشِيَّةً أَنْ يَأْخُذَ الْعَدُوُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حِينَ غَرَّةٍ ،

غَيْرُ أَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ مَا كَادَ يَصْلِي إِلَى (نَخْلَةً) حَتَّى خَالَفَ أَمْرَ
الرَّسُولِ وَهَجَّمَ عَلَى عَيْرَ لِقَرِيشٍ فِي طَرِيقِ عُودِهِمْ مِنَ الشَّامِ وَقُتِلَ أَوْ احْدَى
مِنْهُمْ ، وَيُعَتَّبُ هَذَا الْحَادِثُ — بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا فِيهِ مِنَ الْخَالِفَةِ لِأَمْرِ النَّبِيِّ —
مِنَ الْحَوَادِثِ الْعَادِيَةِ بَيْنَ الْعَرَبِ ، لَوْلَا أَنْ قَرِيشًا كَانَتْ تَظْلِمُ إِلَيْهِ
وَتَلْهُفُ عَلَى الْحَرْبِ ، وَتَنْهَزُ أَنْفَهُ الْأَسْبَابِ لِلشُّوْبِ الْمُحْرَبِ ، فَكَانَ ذَلِكَ
مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي مَهَدَتْ (لِغَزْوَةِ بَدْرٍ) .

ثَالِثًا — اعْتِمَادُ الرَّسُولِ عَلَى سُهْلَةِ الْأَخْبَارِ وَهُمُ الَّذِينَ نَسَمُوهُمْ فِي الْعَصْرِ
الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ (مَنْدُوبُ الْأَخْبَارِ) أَوْ (الْمَرَاسِلُونَ الْمُحْرَبِينَ) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمِ (١) فِي الْكَلَامِ عَنْ غَزْوَةِ الْمَخْدَقِ (أَنْ بَعْضَ
الصَّحَّاحَةِ قَالَ : رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لِيَلَّةَ الْأَحْرَابِ «أَوِ الْمَخْدَقِ» وَقَدْ
أَخْدَلْنَا رَيْحَ شَدِيدٍ وَقَرْبَةً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبْرِ
الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَنَتْنَا وَلَمْ يَجِدْ مَنْ أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا
رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبْرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَنَتْنَا وَلَمْ يَجِدْ
مَنْ أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ ^{بَلَّقَةً} : قَمْ يَأْخُذِيهِ فَأَتَنَا بِخَبْرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذَعْرُهُمْ
عَلَى (٢) .

قَالَ حَدِيفَةُ : فَلَمْ أَجِدْ بَدَا إِذْ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ بِاسْمِ أَنْ أَقْوَمْ ، فَلَمَّا
وَلِيَتْ مِنْ عَنْدِ رَسُولِ اللَّهِ شِعْرَتْ كَأْنَمَا أَمْشَى فِي حَمَامٍ . (يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ

(١) أَبْرَ، ١٢، فِي الْكَلَامِ عَنْ غَزْوَةِ الْمَخْدَقِ :

(٢) يَسْنَى وَلَا تَسْبِبْ لَهُمْ ذُعْرًا فَيَجِدُوا عَلَى بَلْ سَأَوْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِأَخْبَارِهِمْ دُونَ أَنْ
تَشْرِهُمْ بِهِمْ .

أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِبَرْدِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا كَانَ يَشْعُرْ بِهِ قَبْلَ خَرْوَجِهِ مِنْ عَنْدِ رَسُولِ اللَّهِ بَلْ هَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ بَرْكَةَ طَاعَتِهِ لِلنَّبِيِّ ، وَمُضِيَتِ فِي طَرِيقِ حَقِّ أُتْبِيْهِمْ ، فَرَأَيْتَ أَبَا سَفِيَّانَ يَصْلِي ظَهَرَهُ بِالنَّارِ ، (وَذَلِكَ مِنْ شَدَّةِ الْبَرْدِ) ، فَوَضَعَتْ سَهْمَاهُ فِي كَبَدِ الْقَوْسِ وَأَرْدَتْ أَنْ أَرْمِيهِ بِهِ : فَتَذَكَّرَتْ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا تَذَعَرُهُمْ عَلَى ، وَلَوْ رَمَيْتَهُ لِأَصْبِتَهُ ، وَرَجَعَتْ وَأَنَا أَمْشِي فِي مَثْلِ الْحَيَّامِ ، فَلَا أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ أَخْبَرْتَهُ بِخَبْرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتَ وَقَرْتَ (أَى عَادَ إِلَى الشَّعْوَرِ بِشَدَّةِ الْبَرِّ) فَأَلْبَسْتَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ فَضْلِ عِبَادَتِهِ الَّتِي كَانَ يَصْلِي بِهَا ، فَلَمْ أَرْلِ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتَ «

رَابِعًاً — وَآخِرًا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي عَمِدَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ فِي مُجَاهَدَةِ قَرِيشٍ فِي أَثْنَاءِ حِرْبِهِ مَعَهَا وَسِيلَةً (الْمُدَعَايَةِ) أَوْ سَخْدَانَ الْمُدُوِّ ،

وَرَدَ فِي كِتَابٍ (صُورَةُ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ) (١) قَوْلُهُ : وَكَانَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَنِّي (نَعِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَمِيُّ) إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْنَاهُ إِسْلَامُهُ قَاتِلًا لَهُ :

« يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ . وَلَمْ يَعْلَمْ قَوْمٌ بِإِسْلَامِيِّ ، فَرَنَى يَمَاشِشِي » فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ غَطْفَانٍ ، فَلَوْ خَرَجْتَ فَخَذَلْتَ مَا أَسْتَطَعْتَ كَمَا أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ بِقَاتِلَكَ مَعْنَاهُ فَأَخْرُجْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَادِعَةٌ » .

فَخَرَجَ نَعِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَنِّي بَنِي قَرِيطةٍ (وَهُمْ عَشَائِرُ الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا) ، وَكَانَ نَعِيمُ يَنَادِيهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالُوا لَهُ :

« يَا بْنَى قَرِيطةٍ — لَقَدْ عَرَفْتُمْ وَدِي إِلَيْكُمْ وَخَاصَّةً مَا يَبْيَنِي وَيَبْيَسْكُمْ » . قَالُوا : قُلْ فَلَسْتَ عَنَّدَنَا بِعِتْمِنْ .

فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ قَرِيشًا وَغَطْفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَقَدْ ظَاهَرَتْ عُوْنَمُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ رَأَوْا نَهْزَةً أَصْبَاهُوا ، وَإِنَّ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَهُمْ بِيَلَادِهِمْ ، وَخَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ (يَرِيدُ النَّبِيِّ) ، وَلَا طَاقَةٌ لِكُمْ

(١) تَأْلِفُ أَبِينَ دُوَيْدَارِ مِنْ ٤٢٨ .

(بابى قريظة) ، به ، فلا تقاتلا مسع القوم (يريد مع قريش) حتى
تأنخلوا منهم رهنا من أشرافهم .

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريشاً فقال لهم :

« لقد عرفتم ودي لكم « عشر قريش وفرات محمدًا ، وقد بلغنى أمر أرى
من الحق أن أبلغكموه نصيحة لكم فاكتسوا على » .

قالوا : نفعل ذلك .

قال : تعلمون أن عشر يهود قد ندموا على ما كان من خدلاً لهم محمدًا ،
أرسلوا إليه ، إنما قد ندمنا على ما فعلنا . . . (المخ . . .

ثم أتى غطفان وقال مثل ذلك .

فلياً كانت ليلة السبت — وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله
والمؤمنين - أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة في المدينة (عكرمة بن أبي
جحيل في نفر من قريش وغطفان) يقول لهم : إنما أستأي بدار مقام ، فقد هلك
الخف والخافر ، فاستعدوا صبيحة غد للقتال حتى تناجز محمدًا » .

فأرسل إليهم بنو قريظة بالمدينة يقولون : « إن اليوم سبت ، وهو
لا نعمل فيه شيئاً ، وقد علمتم ما قيل فيمن تدعى منا في السبت . ومع
ذلك فلا تقبل الحكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ،
فإنما تخشى إن ضرستكم الحرب وأشدد عليكم القتال أن تتشمرروا إلى بلادكم ،
وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » .

فلياً رجع الرسل بذلك قالوا :

« صدق والله نعيم بن مسعود » وردوا إليهم يقولون : « والله لانعطيكم
هذا أبداً . فانخرجو معنا إن شئتم ، وإلا فلا عهد بيننا وبينكم » .

فقال بنو قريظة :

« صدق والله نعيم بن مسعود » .
ونخلل الله بينهم واحتلقت كلمتهم .

ترى معى أىها القارىء لهذا النص الأخر كيف أن رسول الله ﷺ
حمد إلى الدعاية إلى لابد منها في وقت الحرب ، وهى الدعاية التي
تهدف إلى إحداث التفرقة بين صفوف الأعداء ، وهى المقصود بقوله ﷺ
لنعم بن مسعود « فخذل عنا ما استطعت » أى أحدث بينهم تخديلاً وشعوراً
بالهزيمة حتى لا يثق بعضهم في بعض . وبذلك يتفرقون وتضعف قواهم
وينصرنا الله عليهم . وهذا ما فعله نعم بن مسعود حين مشى بين قريش
وغضطافان وبهود المدينة المتممرين إلى قبيلة بني قريظة ، وكان بين هذه القبائل
الثلاث تحالف قوى ضد النبي . وقد تنبأ النبي ﷺ إلى تمزيق هذا التحالف بالدعاية
الهزمية ونجح في بلوغ هذه الغاية بتفريق من الله تعالى وبدكاء نعم
بن مسعود .

جاء في كتاب (تيسير الوصول في أحاديث الرسول) تأليف الشيباني
ما نصه :

« عن أمياء بنت زيد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ
الكذب كله على ابن آدم حرام إلا في ثلاثة خصال : رجل كذب في
الحرب فإن الحرب خدعة » أخرجه الترمذى وأخرجه مسلم في إحدى
روياته .

ثم إن من معانى الحديث النبوى : « خذل عنا ما استطعت » معنى يؤمن
به نواعي الحرب في العصور الحديثة ، وهذا المعنى الأخير هو وجوب نشر
روح المزيمة في معسكرات العدو ، والنظر إلى هذا العمل على أنه من أدوات
النصر على هذا العدو .

يقول التاريخ : إن الإنجليز في الحرب العالمية الأولى كانوا يسمخون
الصحافة ل الحرب من هذا النوع ، وكان الصحفى الإنجليزى نوثكليف هو
المنظم الحقيقى لهذه الدعاية وكان أسلوب هذا الصحفى يقوم على نشر
روح المزيمة في داخل ألمانيا معتمداً في ذلك على القاعدة التى تقول :

«إن روح المزية إنما تبدأ أولاً في الجبهة الداخلية للعدو» (١)

* * *

ج

بُنِيَّ أَنْ نَسَأَلُ أَنفُسَنَا هَذَا السُّؤَالُ :

أَلَمْ نَقُلْ فِي التَّهِيدِ لِهَذَا الْبَابِ أَنَّ الْجَهُودَ الَّتِي يَذْهَبُ إِلَيْهَا الرَّسُولُ فِي سَبِيلِ نَشَرِ الدِّينِ لَا يَصْحُّ أَنْ يُطَالَقَ عَلَيْهَا غَيْرُ أَنَّهُ وَاحِدٌ فَقَطُّ هُوَ (الدُّعْوَةُ)؟ وَأَمَّا الدِّعَايَةُ فَهِيَ الْأَمْمُ الَّتِي أَطْلَقَ عَلَى جَمِيعِ الْجَهُودِ الَّتِي يَذْهَبُ إِلَيْهَا الْخَلْفَاءُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَعْارِيْةِ يَعْنَى أَبِي سَفِيَّانَ إِلَى الْآنِ؟

بِلَّا - قَلَّا ذَلِكُّ؛ وَنَحْنُ مَصْرُونَ عَلَى مَا قَلَّنَا.

أَمَا هَذِهِ الْوَاقِعَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِلرَّسُولِ مَعَ نَعِيمَ بْنَ مَسْعُودَ فَلِئَلَّهَا لَا تَهْدِمُ هَذَا الْحُكْمُ الَّذِي حَكَمَهَا بِهِ عَلَى جَهُودِ الرَّسُولِ؛ وَتَغْيِيرُ الْأَسْمَاءِ الَّتِي أَطْلَقَنَا عَلَى هَذِهِ الْجَهُودِ، وَهُوَ (الدُّعْوَةُ)؛ وَذَلِكُّ لِأَسْبَابٍ مُّنْهَا.

أَوْلًا : إِنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ فَرِيْدَةٌ مِّنْ [أُنْوَعِهَا فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ]، وَلَمْ يَقُعْ مِنْ نُوْحِهَا الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

ثَانِيًّا : إِنَّ هَذِهِ الْحِيلَةَ اسْتُخْدِمَتْ فِي ظَرُوفِ الْحَرْبِ، وَالْحَرْبُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ إِنَّمَا تَقْوِيمُ عَلَى الْحَيَاةِ وَالْمُكَيْدَةِ وَالْمُكَرَّ وَالْخَدِيْدَةِ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَخْلُو حَيَاةُ الرَّسُولِ مِنْ كُلِّ ذَلِكِ عَنْدَ الضرُورَةِ وَإِلَّا اسْتَهَانَ بِهِ الْأَهْدَافُ وَتَغْفِلُوهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَكْلُوهُ لِقَمَةَ مَائِقَةٍ.

ثَالِثًا : إِنَّ الرَّسُولَ وَاحِدٌ أَهْدَاءٍ كَثِيرِينَ وَأَنَّهُ أَقْلَى مِنْ أَحَدِهِمْ أَهْدَاءً وَعَدَهُ فَلَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَحْمِي نَفْسَهُ بِسَكْلِ الْوَسَائِلِ الْمُسْكَنَةِ، وَمِنْهَا وَسِيَّلَةُ الْمُكَيْدَةِ.

(١) عَبْدُ الْعَلِيِّ حَسَنَةُ، كِتَابُ : الْإِلَامُ وَالدِّعَايَةُ، الطَّبِيعَةُ الْأُولَى، ص ١٦١.

٥

بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك

حدثنا كتب السيرة أن الرسول عاد من صلح (المديبية) فدعى المسلمين إلى اجتماع عام أوضاعهم فيه أن الإسلام جاء رحمة للناس كافة، وأن العرب ليسوا هم المقصودين وحدهم بهذا الدين، وأن الوقت قد حان لحمل الرسالة الإسلامية إلى جهات أخرى في داخل بلاد العرب وفي خارجها، وأنه يجب البدء بالملوك والأمراء المجاوريين لهم ومنهم يومئذ: قيصر الروم، وكسرى فارس، ونجاشي الحبشة، والملقبون، وعزيز مصر، وأمير البحرين وصاحب دمشق، وأمراء اليمن، وهذا كله فضلاً عن أمراء العرب الذين لم يدخلوا بعد في هذا الدين، ومنهم الأمير شرحبيل وغيره.

واستقر رأي النبي ﷺ على أن يبعث إلى كل واحد من هؤلاء بوفد من قبله ﷺ ومع الوفد رسالة خاصة يدعوه فيها إلى عبادة الله وحده وإلى الإيمان الذي جاء به محمد.

وقيل إنه للأسف الشديد لم يحفظ التاريخ بكل هذه الرسائل النبوية، وذلك فيما يُعد الرسالة التي وصلت إلى المقوص، والرسالة التي وصلت إلى هرقل ورسائل أخرى قليلة، فقد ذكر التاريخ أن المقوص أحسن استقبال الوفد الذي حمل إليه الرسالة وأنه حفظ هذه الرسالة نفسها في صندوق ثمين وبعث مع الوفد الذي عاد إلى الرسول بجملة من المدح والثناء بغلة وجاريتان، تزوج الرسول بواحدة منها، وهي مارية القبطية، وأهدي الأخرى - واسمها شيرين - إلى شاعره حسان بن ثابت، وأما الرسالة نفسها فقد جاء فيها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » مِنْ مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَيْهِ الْمَقْوُصِ عَظِيمِ الْقِبْطِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنْبَعَ الْهَدَىٰ أَمَا بَعْدَ ، فَلَئِنِ ادْعَوْكَ بِدِعَائِيَةِ إِلَيْسَامِ ،

أسلم تسلم ، يزورتك الله أبهرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخصّل بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا الشهدوا بأننا مسلمون » .

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلعة فتوجه إلى مصر فوجد المقوس بالإسكندرية فذهب إليه فوجده في مجلس مشرف على البحر ، فركب سفينته إليه ، وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رأه أمر باحضاره بين يديه ، فلما جيء به إليه ووقف بين يديه ، ونظر في الكتاب فقضه وقرأه ، وقال حاطب : ما منعك أن يدعوك على من خالقه ، فقال له حاطب : وما منع عيسى أن يدعوك على من خالقه أن يسلط عليهم ؟ فاستعاد منه الكلام مرتين ، ثم سكت فقال له حاطب : إنك قد كان قبلك رجل يزعم أنه رب الأعلى فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بذلك ، قال : إن لنا ديناً لنندعه إلا ما هو خير منه ، فقال حاطب : ندعوك إلى دين الله وهو الإسلام الكافي به الله قدع متساوية ، إن هذا النبي « حصل الله عليه وسلم » دعا الناس فكان أشدّهم عليه قريشاً وأعداهم له يهوداً وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشاره موسى بعيسى إلا كبشرية عيسى بمحمد ، وما دعاونا إياك إلى القرآن إلا كدعائنا أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكلّ نبي أدرك قوماً فهم من أمتنا ، فالحق عليهم أن يتبعوه ، وأنت من أدرك هذا النبي ، ولستا نهائك عن دينك ، ولستا نأمرك به ، فقال المقوس ، إنني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمعصية ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الفسال ولا المجاهل الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة : بالخروج للنبي والإخبار بالنجوى وسأنظر وأخذ كتاب النبي عليه السلام فجعله في حق من عاج ودفعه بخارية له ، ثم دعا كاتبها له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَهُمْ دَنَى مَنْ عَزَّى الْمُقْوَسَ عَظِيمَ الْقَبْطِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ (أَمَّا بَعْدُ) فَقَدْ
قَرَأْتُ كِتَابَكُمْ وَفَهَمْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيهِ، وَمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ
نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الشَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكُمْ وَبَعْثَتُ
إِلَيْكُمْ بِحَارِيَّتِنَّهُ مَسْكَانًا مِنَ الْقَبْطِ عَظِيمٍ . . . وَكُسْوَةٌ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْكُمْ بَغْلَةً
لِرَكْبَهَا وَالسَّلَامُ (١) .

وَلَمْ يَرِدْ عَلَى هَذَا، وَلَمْ يَسْلُمْ .

مَنْدُوبُ الرَّسُولِ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْأُمَّارَ :

بَعْثَ الرَّسُولِ ﷺ رَسْلًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَتَبَ مَعْهُمْ كِتَابًا إِلَى الْمُلُوكِ
يَدْعُوْهُمْ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ :

- ١ - فَبَعَثَ دُحَيْبَةَ بْنَ خَلِيفَةَ الْكَلَبِيَّ إِلَى قَيْصِرَ مَلِكِ الرُّومِ .
- ٢ - وَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَدَّافَةَ السَّهْمِيَّ إِلَى كَسْرَى مَلِكِ فَارَسِ .
- ٣ - وَبَعَثَ عُمَرَ بْنَ أُمَّةِ الْفَسَرِيِّ إِلَى النَّجَاشِيَّ مَلِكِ الْجُبَشِيَّةِ .
- ٤ - وَبَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَاتِعَةَ إِلَى الْمُقْوَسَ مَلِكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ .
- ٥ - وَبَعَثَ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِ الْسَّهْمِيَّ إِلَى جَيْفَرَ وَعَبْدَ أَبْنَيِ الْجَلَنْدَسِيِّ
مَلِكَيِّ عَمَانِ .
- ٦ - وَبَعَثَ سَلِيْطَ بْنَ عُمَرَ إِلَى (عَامِةَ بْنَ آثَالَ وَهَوَازَةَ بْنَ عَلِيٍّ) عَلَى
الْخَنْقَبِيَّنِ مَلِكِيِّ الْيَامَةِ .
- ٧ - وَبَعَثَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيَّ إِلَى الْمَنْذُرَ بْنَ سَاوِيِّ الْعَبْدِيِّ مَلِكِ
الْبَحْرَيْنِ .
- ٨ - وَبَعَثَ شَجَاعَ بْنَ وَهْبِ الْأَسْدِيِّ إِلَى الْخَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرِ الْغَسَانِيِّ .

* * *

مَلِكُ تَخُومِ الشَّامِ (٢) .

(١) المُتَخَبَّبُ مِنَ الْسَّنَةِ + بِعْدَ طِ ٢ ، الْقَاهِرَةُ سَنَةُ ١٩٥٢ مِنْ ٢٦٩ وَمَا بَعْدَهَا .

(٢) سِيرَةُ النَّبِيِّ لَابْنِ هَشَامِ ٢٤ مِنْ ٢٧٨ مُطَبَّعَةُ سِجَارِيِّ بِالْقَاهِرَةِ سَنَةُ ١٩٣٨ تَحْقِيقُ
عَلِيِّ الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ .

قام الرسول بهذه الحركة الإعلامية الواسعة النطاق ، وأوقف العثبات إلى جميع الجهات بعد أن نزلت الآية الكريمة : « قل يأهله الكتاب تعالىوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون » .
يقول مولانا محمد علی ، تعليقاً على حركة العثبات النبوية (١) :

إن الظروف التي أحاطت بتوجيهه هذه الرسائل النبوية للملوك والأمراء ل تستحق شيئاً من التأمل والاعتبار ، فلو أن الرسول وجه هذه الرسائل بعد إخضاع بلاد العرب برمته لتفوذه ، إذن لكان في إمكان الباحث أن يعتبرها عملاً أو حريضاً به الطموح إلى التوسيع في الملك ، فقد كان المسلمون إلى ذلك الحين أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان المشركون لا يزالون هم أصحاب السلطة الحقيقة حتى لقد فرضوا شروط الصلح (يريد صاحب الحديثة) على النبي ﷺ .

فصحيح إذن أن الرسول لم يكن يهدف من وراء هذه الحركة الإعلامية إلى التوسيع في التفوذ أو إلى جساه أو سلطانه أو نحو ذلك ، إنما كان الرسول يحرص من خلال هذه الحركة أن يفهم المسلمون أن الإسلام لم يقصد به العرب وحدهم ، ولكن يقصد به الناس كافة .

ولنا تعليق آخر من الناحية الإعلامية على تعليق مولانا محمد على الذي أوردهناه الآن على حركات العثبات النبوية ، وللشخص تعليقاً فيها يلي :
نفهم من دوائر المعارف الإنجليزية والأمريكية أن الدبلوماسية ذاتها فن حضري بحت — يعني أنه لم يعرف إلا في العصور الحديثة — وفي العصر الذي نعيش فيه بنوع خاص .

ولعل أقصى ما ذهب إليه المؤرخون المحدثون هو أن الدبلوماسية لم تعرفها البشرية قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، وهم يقولون إن هذا الفن إنما بدأ في (القاراتيكان) على يد أحد البابوات منه أخذ البابا يبعث بالوفود إلى

(١) مولانا محمد علی : حياة محمد ورسالته — الترجمة العربية لشير المولى الحكيم من ١٩٧ - ١٩٨

الملوك والأمراء لأغراض دينية وأخرى سياسية ^(١)

ولتكن نظرة واحدة إلى الحركة التي قام بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل ذلك بتسعة قرون من الزمان يدلنا على أن هذا الرسول هو أول من مارس هذا الفن الذي يقولون عنه إنه حضري بخت — ونعني به فن الدبلوماسية ، وليس أدل على ذلك من أنه قام بتنظيم حركةبعثات إلى الملوك والأمراء ، فنهم من رحب بهذه الدعوة كما فعل المقوس بنواع خاص ، ومنهم من رفض هذه الدعوة ، وأسماء الرد على صاحب الرسالة ، كما فعل كسرى .

وهكذا أثبتت التاريخ أن محمدًا أول من زاول (الاتصال الشخصي المباشر) من وسائل الإعلام القدية والمحدثة وذلك عن طريق الوفادة وطريق الرسالة ، وما لاشك فيه أن العرب في الإسلام كانوا أقدر على ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام منهم في الجاهلية لا لشيء إلا لاختلاف القيم التي كانت تحكمهم في الجاهلية . ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه القيمية عند الكلام عن القرآن الكريم باعتباره أكبر الوسائل الإعلامية في صدر الإسلام ، وقد رأينا أن القيم التي كانت تحكم المجتمع العربي في الجاهلية كانت مبنية في أكثرها على العنف والشر ، بينما كانت القيم التي حكمت العرب في الإسلام تبني على التقوى والإيمان ، وفي ظل هذه القيم الأخيرة نجح الفن الذي مارسه الرسول صلوات الله عليه وهو فن (الدبلوماسية) .

* * *

٦

استقبال الرسول للوفود

ما لاشك فيه أن حركة الاستقبالات — كحركة البعثات — تعتبر نوعاً من (العلاقات العامة) ، ولكننا حرصنا على أن نخص كلاً من هاتين

(١) راجع كتاب (أسماء على الدبلوماسية) للأستاذ أحمد عبد الحميد .

الحركاتين بكلمة مستقلة بذاتها ، وذلك لأهميتها في تاريخ الدعوة الإسلامية ، ولأنها من أكبر مظاهر النشاط الاعلامي لرسول الله ﷺ ، وبدون ذلك تكون قد قصرنا في التنويه بهذا النشاط .

في أواخر السنة التاسعة للهجرة ، وطول السنة العاشرة تدفقت على المدينة وفود تمثل مختلف القبائل والعشائر المعروفة في شبه جزيرة العرب ولذلك سى العام العاشر للهجرة (عام الوفود) ، وإليك أسماء بعض هذه الوفود على سبيل المثال .

١ - وفد تقييف .

٢ - وفد بني شعيم .

٣ - وفد تغلب .

٤ - وفد نجران من الوفود النصرانية أيضاً .

وكان عدد الوفود سبعين رجلاً ، وزعيمهم عبد المسيح عبد المخارث :

٥ - وفد بجبلة من القبائل اليمنية التي كانت تملك هيكلاً اسمه (الخلاصة) وكان في اليمن يعبر عبادة (السکعه) في مسكة ، وقد هدم المسلمين هذا الهيكل بأمر من النبي ﷺ .

٦ - وفود أخرى من اليمن وعمان واليامنة والبحرين (وأميرها إذ ذلك هو المنذر) .

٧ - وفد وائل بن حجر الكندي والأشعث بن قيس ، وهما زعيمان حضر موت جاعوا في أعداد كبيرة ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية ، فلما سألهم الرسول : هل تحبون أن تعتنقوا الإسلام ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، فقال لهم : اخلعوا هذه الملابس الحريرية ، ففعلوا ولبسوا غيرها .

وقد قيل إنه في عام الوفود هذا نزلت سورة النصر وفيها يقول الله تعالى :

«إذا جاء نصر الله والفتح» ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفر له إنه كان توأياً .

وقيل كذلك إن هذه السورة نزلت في حجة الوداع ، وكانت آخر ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ .

ولسكنى أميل إلى الرأى الأول ، لأن هذه السورة إنما تشير إلى حادث الوفود ، وتعتبر حركتهم نصراً من الله وفتحاً .

وهكذا عم الإسلام جميع أرجاء الجزيرة العربية باستثناء بعض الحاليات القليلة لليهود والنصارى .

* * *

ومع كل وفد من الوفود السابقة كان الرسول يبعث بواحد من أصحابه لكي يصحبهم في عودتهم إلى القبائل التي أتوا منها ، وهذا ما سمي به في الباب الأول من أبواب الكتاب (بحركة « القراء ») المتفقين في الدين الذين صحبو هذه الوفود لكي يعلموا القبائل التي أتوا منها ويفقهوهم في الدين وينجحوا لهم إلى كل ما يسألونه من الأسئلة في موضوعات هذا الدين وأركانه وفرائضه ونحو ذلك ، ولكي يفسروا لهم بعض آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وبذلك يزداد أفراد هذه القبائل العربية علمًا بالدين وعلماً بأوضاعه وأحكامه ، ومن ثم كان العمل الذي قام به القراء عملاً دينياً وإعلامياً في وقت معاً .

وقد نجحت هذه التجربة الإعلامية أول ما نجحت على يد المعلم الأول لهذه الأمة ونعني به محمدًا ﷺ ، وذلك عندما التقى في موسم الحج بثمانية عشر رجلاً من المزرج — وعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا ، فبعث معهم بأحد أصحابه ، وهو هنا (مصعب بن عمير) ليهدىهم ويرشدتهم ويعلّمهم القرآن الكريم والسنّة النبوية ، فذهب معهم مصعب هذه الغاية ، وكان ذلك في السنة العاشرة للبعثة ، والرسول يومئذ لم يزل موجوداً بمكة ، ولم يُؤذن له بالهجرة منها إلى المدينة .

وكانت الوفود إذا أقبلت على الرسول أقبلت معها خطباؤها وشعراؤها فتكلموا وتناشدوا ، وكان خطباء المسلمين وشعراؤهم يردون على خطباء

الوفود وشعرائهم ، وقد شهد التاريخ بأن خطباء المسلمين المستقبليين لهذه الوفود كانوا أبلغ في كل مرة من خطباء الوفود ، ولا غرابة في ذلك فقد كان خطباء المسلمين المخاورين للرسول والصحابة إنما يستمدون معانيهم من القرآن الكريم ومن السنة ومن معاشرة الرسول نفسه ومعاشر الصحابة عليه ، كما كان خطباء المسلمين مختلفين بالعواطف الدينية الجياشة ، والمشاعر الاملامية النبيلة بالقدر الذي يمكن للوصول بخطبهم إلى درجة كبيرة من درجات البلاغة والتأثير في نفوس العرب .

وهذا الذي قيل في الخطباء المسلمين قيل مثله في شعرائهم ، وإن كان الخطباء — كما سبق أن أوضحنا ذلك — أبلغ في صدر الإسلام من الشعراء للاسباب التي سبق أن أشرنا إليها في موضعها من هذا الكتاب .

* * *



حركة الهمس وأثرها في نشر الدعوة

يعتبر التهامس بين الناس في كل عصر من العصور عاملًا قويًا من العوامل التي تؤثر في (الرأي العام) ولذلك لم يغفل عنه حاكم من المحكم في الأزمنة القديمة والحديثة على السواء ، وقد عرف عن بعض الخلفاء العباسيين أنه كان ينشر العجائز في بيوت الخاصة وال العامة لكي يأتوه بالأخبار والأحاديث التي تدور فيها ، ومنها يفهم الخليفة رضا الناس عنه أو سخطهم عليه .

وما لاشك فيه أن سيرة الرسول ، وعظمته الخلقية ، وكماله النفسي ، وغير ذلك من الصفات التي امتاز بها البشر ، وهي الصفات التي عبر عنها القرآن الكريم مخاطبًا الرسول بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، نقول : لاشك أن هذه السيرة النبوية العطرة ، والمثل الأعلى في الأخلاق

والمعاملات ، والعبادات كانت مثار دهشة كبيرة من جميع العرب في مكة والمدينة وفي غيرها من أرجاء شبه الجزيرة العربية .

كان الناس يتحدثون عن هذه الصفات التي اكتملت للنبي إما جهاراً حين لا يخافون سطوة أحد ، وإما إسراراً أو عن طريق التهمس — حين يخافون شيئاً من ذلك ، وكان هذا التحدث أو التهمس في ذاته عاملاً قوياً من عوامل انتشار الإسلام ، وقد وجدنا مصداق ذلك في حادثتين بنوع خاص هما :

- ١ — حادث الهجرة .
- ٢ — صلح الحديبية .

فأما في الهجرة فقد سبق أن أشرنا إلى حركة التهams التي حدثت في مكة واقترنت بحدث الهجرة ، فقد عجب المشركون يومئذ من أن المسلمين يدعوا يتركون أموالهم وأولادهم ومتلكاتهم وحياتهم المماضية الخالفة بين أهليهم وعشيرتهم في مكة ويهاجرون إلى المدينة وأخذوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم : ما الغاية من كل ذلك ؟ وأجابوا على أنفسهم بإجابة واحدة ، وهي أن الأمر العظيم الذي صحووا من أجله بكل ذلك — وهو الإسلام — لا بد أن يكون خليقاً بهذه الحركة ، ولا بد أن يكون محمد صادقاً في دعوته ، شرحنا ذلك في موضعه من الكتاب ، ولا نحتاج إلى إعادة القول .

صلح الحديبية :

وأما صلح الحديبية فقد كان فرصة أخرى لهذا التهams الذي كان له أبعد الأثر في نشر العقيدة الإسلامية .

* * *

بدلت قريش كل مافي وسعها للقضاء على الإسلام . وذلك في معركة (بدر) ، ثم معركة (أحد) ثم في معركة (الخندق) أو الأحزاب ، ولكنها لم تفلح ، ومنذ ذلك الوقت يئس قريش كل اليأس من الهجوم على المدينة ، وتخيل للMuslimين إذ ذاك أن قريشاً ومعها قبائل البدو الموالية لها سلن تغتصبهم

في ذهابهم للحج بعد اليوم؛ وبعد عام من معركة الأحزاب فكر رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخروج للحج . فخرج ومعه ألف وأربعين رجلاً من المسلمين أمرهم الرسول أن يضعوا السيف في أغمادها ، لأنهم لما خرجن للحج للحرب ، فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم ، وتبين أن تعرضاً طريقةهم فلما علم الرسول بذلك بعث إلى قريش يقترح عليها عقد صلح بين الفريقين إلى أجل غير مسمى ، فرفضت قريش هذا العرض ، ثم بعث الرسول إلى قريش بمعرفة آخر من قبله فأمسحت معاملته ، وعقرت ناقته ، وأخيراً بعث الرسول فيهم بعثان بن عفان فاحتاجزوه عندهم وسرت شائعة بأن قريشاً قتلت عثمان ، وتأزم الموقف كل التأزم ، فالمسلمون عزل من السلاح وعددتهم قليل بالقياس إلى الأعداء ، والعدو مصمم على التهاز الفرصة فإذا يفعل الرسول في تلك اللحظة الخروجة ؟ لقد دعا أصحابه لباقيه من جديده ، فباقيه جميراً تحت الشجرة ، وسميت هذه البيعة في التاريخ (بيعة الرضوان) ، وبها عاهدوا الرسول على القتال معه حتى آخر رجل .

علمت قريش بهذه البيعة ، وعرفت أنها تعب عن أقصى ما يمكن التعبير به عن ارتفاع القوة المعنوية ، وأدركت أن هذه القوة كافية لأن تغى المسلمين عن كثرة العدد والعدة ، فخافت على نفسها من نتائج ذلك ، وعدلت عن فكرة الحرب ودخلت في مفاوضات جديدة مع الرسول بقصد الصلح لمدة عشر سنوات ، وتم هذا الصلح ، وكانت أهم بنوده ما يلي :

- ١ - يرجع المسلمون عاهم هذا ، فلا يزدون فرضية الحج .
- ٢ - يجوز لل المسلمين أن يقدوا في العام القادم على مكة بشرط لا يلبيوا فيها أكثر من ثلاثة أيام .
- ٣ - لا يحق لل المسلمين أن يصطحبوا مسلماً يقيم في مكة ، ولا يحق لهم أن يعرضوا سبيل أمري منهم قد يرغب في التخلف في مكة ،

٤ — من أحب من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ،
ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. إلخ .

وقرأ المسلمون شروط هذا الصلح فأحدثت في نفوسهم ثورة ، ولكنهم
تكلفوا المدحه انتظاراً لرأي النبي ، ثم عجز عمر بن الخطاب عن ضبط
نفسه بعد ذلك فسأل الرسول : ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولئك
بالمسلمين ؟ قال : بلى . ثم قال : أنا عبد الله ورسوله صلوات الله عليه . فإن أخالف
أمره . ولن يضيعن ، ثم سأله عمر : ألم تقل لنا إننا سوف نؤدي فريضة
الحج ؟ قال الرسول الأعظم : أنا لم أقل إننا سنؤدي فريضة الحج
هذا العام .

وفي طريق عودة الرسول وأصحابه إلى المدينة نزلت الآية السكرية :
« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ونم
نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيناً * وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

وتلا الرسول هذه الآية على من معه من المسلمين فانقلب حزنهم سروراً
وقال لهم اطمئناناً ، وعلموا أن للرسول حكمة في قبول هذا الصلح .

ويقول مولانا محمد على تعليقاً على هذه الحادثة ^(١) « لقد أثبتت الأيام
أن صلح الحديبية كان نصراً حقيقياً للإسلام ، بذلك على ذلك أن الرسول
حين وفد على مكة بعد عام ونصف عام رافقه عشرة آلاف من أصحابه
بدلأ من ألف وأربعين ألفاً — وهو العدد الذي كان معه زمان الصالح ، فكيف
تعلل هذا الإزدياد العظيم في عدد المسلمين .

الواقع أن حالة الحرب التي سادت حتى ذلك الحين بين المسلمين
والمشركين كانت قد أقامت بينهما بروزخاً عريضاً يصعب اجتيازه ، وكان
الحقد العام على المسلمين قد حال بين المشركين وبين امتحاجهم بال المسلمين ،
فإذا بصلح الحديبية يعقد بين الفريقين للمرة الأولى منذ انطلاق الإسلام جسراً

(١) مولانا محمد على « حياة محمد ورسالته » الترجمة العربية لمير
بعلبكي ص ١٨٧ .

على ذلك البرزخ العريض ، وقد أتاح ذلك للمشركين فرصة التفكير المتأدي ^٢ في فضائل الإسلام الفطرية وعظمة الرسول الحقيقة ، ومنذ ذلك الوقت أدرك المشركون أن الرسول لم يبعثه الله لكي يقطع صلة الرحم ، ولا ليثير الشفاق والعداوة والبغضاء بين العرب كما زعمت قريش .

وتناول الناس في مكة وفي القبائل العربية الخاورة كل هذه الأحاديث ، وتهامسوا فيما بينهم حول عظمة الرسول ، وخطورة الرسالة الإلهية التي بعث بها هذا الرسول ، وكان لهذا التهامس المتأدي الجميل أثره الواضح الجلى في نجاح الدعوة الإسلامية وزيادة عدد المسلمين حتى ذهب إلى الحج بعد عام ونصف مع الرسول قريب من عشرة أمثال العدد الذي كان معه في صلح الحديبية ، وهذا كله ما عبرت عنه الآية الشريفة التي أشرنا إليها « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » الخ .

* * *

تحديثنا إلى الآن عن الوسائل الإعلامية التي مارسها الرسول في مرحلة الاستقرار ، ولم يبق من الوسائل غير واحدة هي (غزوات النبي ﷺ وأسراياه) ونريد أن نخص هذه الأخيرة بفصل مستقل هو الفصل الآتي : لستا نريد أن نتحدث عن غزوات الرسول من الناحية المخربة ولا من الناحية الدينية ، ولكننا سنتحدث عن هذه الغزوات من الناحية الإعلامية . إن نظرة واحدة إلى هذه الغزوات تدلنا على جملة من الحقائق الخطيرة :

أولاًها ، أن المسلمين في كل غزوة من هذه الغزوات لم يكونوا هم المعتدين ، وإنما كان المشركون هم الذين يعتدون عليهم ، وكان على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم .

الثانية ، أن المشركين كانوا في كل غزوة من هذه الغزوات أكثر عدداً وأقوى سلاحاً وأعظم استعداداً للحرب من المسلمين ، ولكن المسلمين كانوا يخربون بذمائهم وعقيدتهم ، ومن أجل ذلك كانت روحهم المعنوية أعلى بكثير من روح المشركين .

الثالثة ، أن الرسول لم يكن يبغى من وراء الغزوات إلى توسيع في الملك أو السلطان ونحو ذلك ، إنما كان يهدف إلى شيء واحد فقط ، هو تبليغ الدعوة ونشر الإسلام ، فليس بينه وبين أعداء هذا الدين إلا أن يقولوا ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوا ها فقد عصموه منه دماغهم ، وتمتعوا جميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون »

الرابعة : أن النبي صلوات الله عليه كان يحارب في هذه الغزوات بأخلاقه كما كان يحارب بسيوفه ورماحه ،

ولنا بعد ذلك أن نقف وقفة قصيرة عند كل غزوة من غزوات النبي صلوات الله عليه لنتظر إليها هذه النظرة الإعلامية التي تؤيد ما نقوله ،

قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وعلى أساس من هذه القاعدة القرآنية كان اشتباك الرسول مع المشركين وكان على الرسول قبل اشتباكه معهم أن يقوم بطاقة من الإجراءات الوقائية والإعلامية التي لا بد منها ،

الفصل السادس بعض الغزوات المنبوية من الزاوية الاعلامية

غزوة بدر :

ومن هذه الإجراءات فيما يتصل بغزوة بدر تلك الحركة التي أزعز بها الرسول عن طريق (سعد بن معاذ الأشجبي) وهو من الأنصار . فقد أنهم قريراً في موسم الحج أن تجاراتها ستتصبح في خطر كبير إذا هي منعت المسلمين من تأدية فريضة الحج كما سبق ذكر ذلك ، وكان هذا التحذير كافياً في الحقيقة لردع قريش عن التفكير في الحرب .

لقد كان المسلمون إذ ذاك أضعف من أن يقوموا بأى عمل حربي ضد قريش ، وكان الرسول يشعر بمسؤوليته عن سلامة المسلمين ، وبنوع خاص لأن عددهم إذ ذاك ما زال قليلاً بالنسبة للمشركين .

مهما يكن من شئ فقد أشتبك الفريقان في معركة بدر و كان عددهم المسلمين لا يزيد عن ثلاثة و ثلاثة عشر مقاتلاً في جملتهم الغلمان ، وكلهم مسلحون تسلیحاً و دينماً على حين كان جيش العدو مؤلفاً من ألف مقاتل مزودين بالسلاح الكامل ، وكان المسلمون يشعرون إذ ذاك بالخوف والضيق والقلق والخرج ، ومع هذا وذاك لم يكن أمامهم إلا طريق واحد فقط هو طريق الدفاع عن النفس ، ولم ينتظروا أن في داخل المدينة حتى يذهبهم العدو بل عزموا على الخروج في هذه الحالة السيئة من التسلح ، وابتعدوا عن المدينة حتى وصلوا إلى بدر و دارت المعركة ، وهذا حدث مالم يكن في الحسبان — حدثت ظاهرة رائعة من ظواهر العون الإلهي ، فقد قتل في المعركة معظم زعماء قريش ، وكان أبو جهل واحداً من الذين لقوا حتفهم في ذلك الوقت وباغت سجدة القتلى من قريش في المعركة سبعين ، وأسر المسلمون منهم سبعين آخرين ، أما شهداء المسلمين فلم يزيدوا على أربعة

عشر ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولقد نصركم الله بيدك وأنتم
أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

لفتت هذه المعركة أنظار العرب في كل شبر من الجزيرة العربية من
أوها إلى آخرها ، فقد عجبوا كيف أن جيشاً ليس له حظ من عدد
أو سلاح يغلب جيشاً يزيد على ثلاثة أضعافه من حيث العدد والسلاح
ويضم قدماء المهاجرين من أبطال قريش ، ومعنى ذلك أن وجوه الضعف
كلها قد اجتمعت في ناحية المسلمين وأن وجوه القوة كلها قد اجتمعت في
ناحية المشركين ، وبرغم ذلك انتصر المسلمون على المشركين .

أليس في ذلك إعلام كبير عن هذا الدين الجديد ودعابة إلهية واسعة
النطاق لرسول هذا الدين ، وإيذان المشركين بأنهم لن يستطيعوا التغلب
على هذا الدين وعلى رسوله الكريم بالطرق التي يعرفوها كالغدر والقتل
والتهب والتهديد والوعيد !

غزوة أحد :

وفي غزوة أحد وقد تم تجهيز المشركين لها في عام كامل ، وكان
جيشهم يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل فيهم مائتا فارس ومنهم كذلك سبعمائة
بطل من خيرة أبطال قريش عدا الأبطال الكبار الذين ماتوا في معركة
بدر ، وزاد أبو سفيان - الزعيم الأول لقريش في ذلك الوقت - شيئاً
جديداً على هذه الحملة ، وهو أن أجبر النساء على الخروج لمرافقته الجيش
أملأ في أن يزدن في حماسه ويلهبن مشاعره بالأناشيد الحربية والأغاني
الحسامية ، وساررت الحملة صوب المدينة حتى عسكرت على ثلاثة أميال
منها عند جبل أحد .

أما عدد المسلمين إذ ذلك فلم يزد عن ألف مقاتل فيهم مائة رجل مسلح
وفارسان اثنان ليس بغير .

ولم يكدر عبد الله بن أبي - وكان قد أسلم تماماً ولم يسلم عن صدق -
لم يكدر هذا الرجل يرى جموع العدو حتى انسحب من جيش المسلمين
(١١ - الإعلام في صدر الإسلام)

يفرقته البالغ عددها ثلاثة ، وبي من الجيش الاسلامي سبعمائة لا قوة لهم
إذ ذلك غير قوة العقيدة التي هي عندهم كل شيء .

وتقدم رسول الله وأصحابه للقتال واختار الرسول موقعًا ممتازًا في
الميدان حيث جعل صخور (أحد) وراء المسلمين تحمي ظهورهم وأخذ
يصف أصحابه هناك فشغلوا جزءاً كبيراً من سفح الجبل . ولكن كان في
ناحية من نواحي الجبل شعب يسمح للعدو بأن ينقض منه على المسلمين
إذا غفلوا عنه . ففطن إليه الرسول ووضع على فه خمسين من الرماة
المسلمين لحمايته ، وأمرهم ألا يرسوا أماكنهم تحت أى ظرف .

وبدأت الموقعة بحركة إعلانية كبيرة من جانب المشركين حيث تقدم
النسوة يضرن بالذئف وعلى رأسهن هند زوجة أبي سفيان وهن يلشن
جملة من الأناشيد منها على سبيل المثال :

إن تقبلوا نعاقن
ونفرش الثارق
أو تدبروا نفارق .

فراق غير وامق ... الخ .

وبدأ القتال بداية ناجحة بالنسبة المسلمين واستطاع حمزة عم
الرسول أن يقتل حامل لواء المشركين وأوقع أمثال حمزة الاضطراب في
صفوف قريش ، وفي الحال على ذلك حتى استشهد حمزة نفسه ، قتله
مولى زنجي استأجرته هند زوجة أبي سفيان لهذا الفرض . وتقهقر المشركون ،
ولكن ما كاد الرماة المسلمين الذين يحرسون الشعب يرون ذلك حتى
غادروا أماكنهم مخالفين بذلك أمر الرسول ، ونظر خالد بن الوليد (الذي
كان إلى ذلك الحين قائداً من قواد قريش) إلى هذه الغلطة التي ارتكبها
الرماة المسلمين وهجم من نقطة الضعف يعاتي فارس وأحدث اضطراباً
في صفوف المسلمين المتضررين إلى ذلك الحين . وحين رأى المشركون
المهاربون ذلك التحول المفاجيء في سير الحرب لحقوا بخالد بن الوليد

وحاصروا المسلمين ، وأدرك النبي خطرة الموقف الذي وقفه المسلمون .
وكان يسعه إذ ذلك أن ينجو بنفسه ويضمن سلامته بالتجوء إلى مكان أمن
يختبئ به ويرث أصحابه للقدر . ولكنه لم يفعل ذلك بل وقف في مكانه
وحوله عدد قليل من أصحابه ونادى بأعلى صوته (هلموا إلى أنا رسول
الله) . فسمعه المسلمون وشقوا صنوف العدو حتى أدركوا النبي ودافعوا
عن حياته ، وصرعوا واحداً بعد واحد في سبيل الدفاع عنه .

أما الرسول نفسه فشج في وجهه وانشققت شفتيه ودخلت حلقتان من
مغفرة في وجنته . كل ذلك وهو لا يزيد على أن يقول : اللهم اغفر لقومي
فلا يهمهم لا يعلمون .

وهكذا عاد المشركون إلى مكة دون أن يظفروا بأية غبطة من الغنائم
ودون أن يكون في أيديهم أسير واحد ، بل عادوا إلى مكة وكان الجيش
الإسلامي نفسه لم يزل مسيطرًا على الموقف كله ، وعاد المشركون إلى مكة
بعد أن عجزوا حتى عن احتلال المدينة برغم أنها تركت يومئذ بآلاف قوة
دفاعية ، بل عاد المشركون إلى مكة ، وقد سعوا في الطريق بأن النبي يطاردهم
يجشه ، ولم يجرؤ أبو سفيان على العودة بأصحابه إلى موقع المسلمين
المطاردين له ..

وهكذا كانت نتيجة الموقعة أن المسلمين منوا بخسائر فادحة ولكنهم
لم يهزموا للمشركين بصورة من الصور . وهكذا أصبحت معركة أحد
حدث القوم في مكة ، وبها عرف المشركون حقائق كثيرة عن الرسول
وعن الإسلام ، وبها أيقنت قريش أن هناك سراً يختبئ عليها ، وأن هذا
السر يكمن في هذا الرسول وفي هذا الدين الجديد ، ولذلك فكرت في
محاولة أخيرة تقضي بها على الرسول وعلى الدين ، وهذه المحاولة الأخيرة
تتمثل في :

غزوة الأحزاب « أو غزوة الخندق » :

في السنة الخامسة للهجرة تصافرت قريش واليهود والقبائل البدوية المعادية للرسول على توجيه الضربة الأخيرة إلى الإسلام ، وتألف لفولاء جيش يتراوح عدده — في تقدير المؤرخين — بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألف مقاتل ، وبلغت القبائل اليهودية المقيمة داخل المدينة إلى الخيانة في آخر لحظة ، وتشاور الرسول مع أصحابه في هذا المخطر الداهم ، فأشار عليه سامان الفارسي بخفر خندق عميق يحيط بالمدينة من جميع جوانبها ، وبدأ الرسول في هذا العمل بنفسه .

وأقبل المشركون بجموعهم ، ووصف القرآن الكريم حالة المسلمين في تلك اللحظة الرهيبة بقوله : (إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِّنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرُ وَتَظَنَّوْنَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا) هنالك أبلى المؤمنون وزاروا زلزاً شديداً .

واستمر حصار المشركين للمدينة نحوأ من شهر ربط المسلمين في آذانه الحجارة على بطونهم من الجحوع ، وكان الرسول قد وهم في كل ذلك ، ثم شاءت إرادة الله أن ثبـع ربيع عاتية اقتحمت خيام المشركين وكفـلت قدرهم وأضطربت لها صفوـهم ، وإلى ذلك تشير الآية السـكريـة (يـأـيـهـا الـلـذـيـنـ آـمـنـواـ اـذـكـرـواـ نـعـمـةـ اللهـ عـلـيـكـمـ اـذـ جـاءـتـكـمـ جـنـوـدـ فـأـرـسـلـنـاـ عـلـيـهـمـ رـبـحـاـ وـجـنـوـدـاـ لـمـ تـرـوـهـاـ ، وـكـانـ اللهـ بـمـاـ تـعـمـلـونـ بـصـيرـاـ) .

ورأى المشركون ذلك فدبـلـ اليـأسـ إـلـىـ قـلـوبـهـمـ وـأـيـقـنـواـ أـنـ يـدـاـ خـفـيـةـ تـحـبـطـ أـعـمـالـهـمـ وـتـزـلـلـ أـقـدـامـهـمـ ، وـهـذـهـ الـيـدـ الـخـفـيـةـ هـيـ يـدـ اللهـ الـذـيـ بـشـرـ بـهـ مـحـمـدـ ، أـلـيـسـ فـيـ هـذـهـ الـحـادـثـةـ وـحـسـدـهـاـ مـاـ يـعـلـمـ إـعـلـانـاـ قـوـيـاـ عـنـ هـذـاـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ ، وـيـعـتـرـ نـصـراـ عـظـيـمـاـ لـلـرـسـوـلـ الـكـرـيمـ ؟

ونجا المسلمين من هذه الكارثة بطريقة عجيبة ، وحيـاناـ تـأـكـدـواـ مـنـ رـحـيلـ المـشـرـكـينـ بـجـمـوـعـهـمـ إـلـىـ مـكـةـ رـجـعـواـ إـلـىـ الـيـهـودـ الـذـيـنـ خـانـوـهـمـ بـالـمـدـيـنـةـ وـأـلـقـواـ

المحصار على قبيلة يهودية هي قبيلة بنى قريظة فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة . واختار بنو قريظة بأنفسهم (سعد بن معاذ) — وكان قبل إسلامه حليفاً لهم — لكي يحدد العقوبة التي يستحقونها على خيانتهم ونقض ميثاق الرسول أكثر من مرة ، فاختار سعد لهم العقوبة التي نص عليها (العهد القديم)^(١) وهي عقوبة القتل ! .

وهكذا حكم سعد — حسب الديانة اليهودية — بقتل أذكورة بنى قريظة وعدهم ثلاثة وبسيٰ نسائهم وأطفالهم ومصادرة أملاكهم وأموالهم .

أما القبيلتان اليهوديتان الأخريات وهما (بنو النضير) و (بنو قينقاع) فقد حكم الرسول عليهما بالذى خارج المدينة جزاءهما على خيانة المسلمين في أخرج الأوقات التي مرت بهم .

فتح مكة :

أثبتت صلح الحديبية كما أسلفنا — أنه عامل من عوامل نشر الدين الجديد وأن هذا الدين ينمو في جو السلم أكثر مما ينمو في جو الحرب . فاغتاظت الملك قريش وفكرت في نقض الصلح ، ومن ثم استعد الرسول لفتح مكة وتحت إرادة الله أن يتمحقق هذا الفتح العظيم بدون دم .

وتم الفتح في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ودخل الرسول مكة في عشرة آلاف من أصحابه ، واستسلم المككين من غير مقاومة في مقدمتهم أبو سفيان وقد وقف بين يدي الرسول ، فعفا الرسول عنه ، وكان سلوك الرسول هذا المسلك مع أقوى أعداء الإسلام — وهو أبو سفيان — مثلاً طيباً من الأمثال التي تحدث بها المسلمين وغير المسلمين ، وكان في الوقت نفسه إعلاناً كبيراً عن عظمة الإسلام ، وكم للرسول مع أعدائه من المواقف المشابهة لهذا الموقف ، ومعنى ذلك أن سيرة الرسول في ذاتها كانت من أقوى وسائل الدعاية له ولدينه الحنيف ، ثم أُعلن الرسول للمككين « أن

(١) سفر الشنفية ١٤/٢٠ .

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ودخل الرسول مكة وأخذ يخطم الأصنام القابعة حولها ، وكلما هدم منها واحداً تلا الآية السكرمة « وَقَالَ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهْوِاً » ، ثم وصل الرسول إلى مقام إبراهيم فصل ركعهن ، وإذا ذاك فتحت أبواب الحرم ودخله الرسول وصل بالناس كذلك ، ثم ألقى خطبة عبر فيها عن وحدانية الله وعن الأخوة في الإسلام ، ثم وجه الخطاب إلى زعماء قريش وكانتوا واقفين بين يديه وقوف الجناء المذين : وقال لهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فرد الجميس : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال الرسول الأعظم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ١

معركة حنين :

لعل العبرة الإسلامية بهذه المعركة الأخيرة تتحقق في أن الله تعالى أراد أن يعلم المسلمين درساً لنفسه أبداً ، أراد أن يعلمهم أن كل النصارى من الانتصارات التي حصلوا عليها إنما كان ثمرة شيء واحد فقط وهو العون الإلهي . فقد انتصر المسلمون على أعدائهم وكان عددهم لا يزيد على ثلث عدد الأعداء أحياناً أو ربع هذا العدد أحياناً وذلك فضلاً عن سوء السلاح عند المسلمين وتفوقه عند المشركين .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« لَقَدْ نَصَرْتُكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنٍ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حَنِينٍ إِذَا عَجَّبْتُمْ كُثُرَكُمْ فَلَمْ تَفْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ، ثُمَّ وَلَيْمَ مَدْبِرِينَ » .

ومضى أقل من شهر على فتح مكة ، وبلغ الرسول أن قبيلة هوازن المقيمة شرق مكة استعدت لمجوم عنيف على الإسلام لتكون المحاولة الأخيرة من جانب هذه القبيلة لعدم هذا الدين ، فأخذ الرسول يستعد لذلك وتألف جيش من المسلمين وصل عدده في هذه المرة إلى اثنى عشر ألف مقاتل ،

وقصد الرسول بهذا الجيش الكبير إلى وادي حنين ، وكان المسلمين في أثناء ذلك يشعرون بالرّزء لكثرّة عددهم وقوّة سلاحهم ودخل العجب قلوبهم وخالفت الغرور نفوسهم ، ومع ذلك فقد انهال عليهم الأعداء بهمّاتهم ونبالهم وأدخلوا الخلل في صفوفهم ، فولوا على أدبارهم ، وبقي الرسول وحده في الميدان لم يزعزع ولم يستشعر الضعف الذي شعر به أصحابه ، ثم أخذ يصيغ بأعلى صوته :

أنا النبي لا كذب .

أنا ابن عبد المطلب .

وكرر هذا النداء مرات كثيرة وتبعه حمّه العباس فأخذ ينادي بأعلى صوته : يامعشر الأنصار الدين آروا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الدين بايعوا تحت الشجرة ، وما كادت هذه النداءات تصل إلى آذان المسلمين المهاجرين من المعركة حتى رجعوا إليها بقوّة معنوية جديدة ونزلوا عن جيادهم ولبّلهم وخاضوا صفوف الأعداء بشجاعة نادرة وانقضوا عليهم انقضاضاً مسحوراً حتى وصلوا إلى مكان الرسول وهناك حاربوا الأعداء حتى سقط حامل رايتهم حتى تركوا نسائهم وأطفالهم واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منها أربعة وعشرون ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وأسر المسلمون فوق ذلك ستة آلاف من المشركين ،

وهكذا انتقلت المجزعة الشنيعة إلى نصر مشرف ، ومارس الرسول بعد ذلك أخلاقه الطيبة وحلمه الواسع وعفوه عند المقدرة ، وأرضى المهاجرين والأنصار وعفا عن كثير من الأمرى ، وكان الرسول إنما كان يحارب بالأخلاق كما يحارب بالسيوف والرماح ، وتلك ناحية لا يغفل عنها المؤرخ ولا رجل الدين كما لا يغفل عنها رجل الإعلام والدعاية .

بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتهما الإعلامية :

وذلك تأميناً للحدود الإسلامية وتحويفاً للأعداء من هيبة الإسلام وإعلاماً لهم بذلك حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده ، ومن أمثلة هذه البعوث « غزوة تبوك » التي وصلت إلى حدود الروم ، ومن الأمثلة عليها كذلك « بعثة أسامة بن زيد » وهي البعثة التي انتقل فيها الرسول الرحيم إلى الرفيق الأعلى قبل أن ينجزها ، وأنجزها من بعده أبو بكر الصديق الخليفة الأول للإسلام .

هكذا كان يشعر النبي دائماً بأن عليه واجبين كبارين هما :

١ - تأمين الدين الإسلامي في الداخل .

٢ - وحمايةه من الخارج .

ومن أجل ذلك كان لا يشتغل مع العرب إلا دفاعاً عن النفس وعن الدين ، وفي الوقت نفسه كانت هذه البعوث الحربية التي تصل إلى حدود شبه الجزيرة العربية من ناحية الدولة الرومانية تعتبر بعثة استطلاعية ، وكانت تستعين في هذا الاستطلاع بالقبائل العربية الموالية للنبي صلوات الله عليه ، ومن هذه البعوث النبوية جاءت « غزوة تبوك » التي بلغت تخوم الروم ، وعادت من تلك الحدود سالمة غامنة .

وبهذه الطريقة الأخيرة علمت الروم - كما علمت القبائل العربية الموالية لهم في الطريق - أن المسلمين قادرون دائماً على حماية حدودهم ، وقدرون كذلك على البطش بعدهم إذا حدثته نفسه بالاستخفاف بهم أو التقليل من شأنهم وشأن الإسلام .

• • •

بقيت كلمة في الخطاب النبوية باعتبارها من أقوى الوسائل الإعلامية الإسلامية ، وكلمة أخرى في القصيدة الشعرية وكيف شاركت هذه الوسيلة الأخيرة في الدفاع عن الدين وما اقرن به من القيم والمفاهيم ، وهذا وذلك ما تتحدث عنه في الفصلين التاليين :

الفصل السابع الخطبة النبوية

منذ أقدم العصور والخطبة من حيث هي تعبير أقوى وسائل الإعلام والدعائية والاتصال بالناس للتأثير في مشاعرهم وإلقاء عليهم بالأفكار الجديدة والعقائد الجديدة ، وبقى شأن الخطابة كذلك في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام وفي العلاقة الأمورية وما تلاها من حكومات ، بل بقى شأنها كذلك في كل ثورة حديثة على وجه البسيطة ، وذلك في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، وسيجيئ لها هذا الشأن حتى تبدل الأرض غير الأرض ،

من أجل ذلك عن بها النقاد في أثينا وكتب فيها أرسسطو كتابه الشهير (المخطابة) وعنها المسلمون وحظيت بعناية كبيرة من جانب (الباحثون) في القرن الثالث المجري ، وبقيت الخطابة موضع الاهتمام العظيم من جانب الدارسين والباحثين في مجال الأدب والتقد إلى اليوم ،

ولما في مجال الإعلام فقد نظر العلماء الباحثون في (علم الاتصال) ووجدوا أن الاتصال في ذاته أنواع ثلاثة وهي :

الأول - الاتصال الشخصي .

الثاني - الاتصال الجماعي .

الثالث - الاتصال بالجهاز .

وقد تحدثنا في الفصول السابقة عن النوع الأول ، ورأينا كيف مارسه الرسول عليه الصلاة والسلام في سبيل نشر الدعوة ، وكيف كان هذا النوع من الاتصال من أنجح السبل للوصول إلى هذا المدف .

أما النوع الثاني وهو الاتصال الجماعي - فهو المقصود بالخطابة والمؤثر والندوات والأماكن التي يتجمع فيها الناس يستمعون فيها إلى محدث واحد أو علدين من المتحددين ، وإن كانت الخطبة أبرز ظواهر الاتصال الجماعي

بلا نزاع ، وعليها — أى على الخطبة — اعتمد الرسول اعتماداً كبيراً في نشر الدعوة وفي شرح تعاليم الدين وغير ذلك .

أما الاتصال بالجماهير — وهو النوع الثالث والأخير — فهو من بداع العصور الأخيرة ومنها العصر الذي نعيش فيه ، ونحن نرى أن هذا العصر أصبح يعتمد في الإعلام بالدرجة الأولى على الأجهزة الجديدة والمخترعات الحديثة مثل الصحف والكتب والسينما ووكالات الأنباء والراديو والتليفزيون ونحو ذلك ، والواقع أنه بدون هذه الأجهزة الجديدة لا يتيسر للقادة وأصحاب الرأى في عصرنا هذا أن يتصلوا بالجماهير ، ونقول الجماهير ونعني بها الأعداد الضخمة من الناس في كل دولة من الدول الحديثة ، وهي الأعداد التي تعد بالآلاف والآلاف الكثيرة ، ثم هي الأعداد التي يستحيل جمعها في مكان واحد لتسمع إلى متحدث واحد كما كان هذا من الأمور الميسورة في العصور القديمة والبيئات القديمة .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال بالجماهير وهو التسمية التي تطلق على الإعلام والاتصال في العصور الحديثة أصبحت تعتمد على وسائل صناعية بحثة في هذا المجال ، وإن كانت لا تستطيع الاستغناء تماماً عن الوسائل الفطرية القديمة ومنها الخطابة أو القصيدة ، أو الندوة أو المعرض وغير ذلك .

* * *

وخلاصة القول أننا حين نتحدث عن الخطبة النبوية إنما نتحدث عن قوة من قوى الإعلام في عصر الرسول تأتي في الدرجة الثانية مباشرة بعد القرآن الكريم والحديث الشريف .

فما الحالات العامة للخطب التي أثرت عن النبي؟

إن نظرة سريعة في هذه الخطب تدلنا على أنها اشتملت على الحالات
الستة :

أولاً: الكلام في مجال الدين من حيث أركانه وعباداته ومعاملاته، وقد
استغرق ذلك معظم حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذبعثة إلى نهايتها.

ثانياً: الكلام في مجال الجهاد، وقد شرحتنا ذلك في بعض فصول الباب
الأول ومنها فصل بعنوان : الأحاديث النبوية قوة دعائية.

ثالثاً: الكلام في مجال الأخلاق . وهو من أطول الحالات التي تكلم
فيها الرسول . ذلك أنه - كما سبق القول في الفصل الذي عنوانه : القرآن
أكبر وسائل الإعلام في عهد الإسلام - كان مسؤولاً عن بناء مجتمع جديد
له مفاهيم جديدة وقيم جديدة؛ ومن ثم اشتمل هذا الحال على بيان الصفات
التي يحتملها الإسلام والصفات التي هي ضدها .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نشرح هذين الجانين ، وفيما أوردهناه من
الكلام في مجال الأخلاق الجديدة التي صورها القرآن ما يغطي عن المضي
في ذلك .

رابعاً : الثناء على الخالق سبحانه وتعالى بما هو أهل من الصفات ،
وتصويره تعالى في أذهان المسلمين بالصورة التي رسماها القرآن .

خامساً : الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم - وبنوع خاص - أبو بكر
وعمر وعثمان وعلى وحث المسلمين جميعاً على إكرامهم والرجوع إليهم في
كل ما أشكل عليهم من الأمر .

سادساً : أوصاف الحنة والنار كما جاءت كذلك في القرآن .
هذه أشهر الحالات التي سبحث فيها خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونريد أن
نختار منها مجالين فقط على سبيل المثال وهما :
١ - مجال الأخلاق .

٢ — مجال الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم

وسنأتي بمثل واحد فقط لكل واحد من هذين المجالين ، رغبة منها في الإيجاز ، وتدليلا في الوقت نفسه على الخانق الإعلامي أو الدعائى الذى قامت به الخطب النبوية خير قيام .

مجال الأخلاق

دعا رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكارم الأخلاق كما أوصى بها الكتاب الكريم وكما اقتضته ظروف الثورة الجديدة التي هي الإسلام ، فأنسر بجملة أشياء منها :

محاسبة النفس ، وحسن المعاملة ، وحسن الجوار ، والشعور التام بالمسؤولية الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعي ، كما يدل عليها الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) ، كما أمر المسلمين جميعاً بالعمل للآخرة وعدم إهانة الدنيا : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ، كما أمر الرسول أيضاً بتصحية المحاكم . ونهى رسول الله عن أشياء منها : الغيبة والنميمة وأكل مال اليتيم (وقتل النفس إلا بالحق) ، كما نهى عن الفخر وعن الظلم وعن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعن الغش وعن إيلاء المرأة والضعف ، وعن الإضرار بالجوار .

غير أن أهم الصفات التي دعا إليها الرسول وحثّر من تقديرها — صفة الصدق ، وصفة الإخلاص .

^(١) خطبته في معنى الإخلاص

عن علقة بن وقاص أنه سمع عمر بن الخطاب ، وهو يخطب الناس فقال :

(١) محمد خليل الخطيب : الخاقان الأنام يخطب رسول الإسلام ص ٧٠ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فنـى كانت هجرته إلى الله رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيـبـها أو امرأة يـزـوجـها فـهـجـرـهـا إلى ما هـاجـرـإـلـيـهـ ». .

و عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول الناس يقفـيـ عـلـيـهـ يوم القيـامـةـ رـجـلـ اـسـتـشـهـدـ فـأـنـىـ بـهـ ، فـعـرـفـهـ نـعـمـهـ فـعـرـفـهـاـ . فـقـالـ : فـاـعـلـمـتـ فـيـهـاـ ؟ فـقـالـ : قـاتـلـتـ فـيـكـ حـتـىـ اـسـتـشـهـدـتـ ، قـالـ : كـلـبـتـ ، وـلـكـنـكـ قـاتـلـتـ لـكـيـ يـقـالـ : جـرـىـ . فـقـدـ قـيـلـ . ثـمـ أـمـرـ بـهـ فـسـحـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ حـتـىـ أـلـقـىـ فـيـ النـارـ . وـرـجـلـ تـعـلـمـ الـعـلـمـ وـعـلـمـهـ ، وـقـرـأـ الـقـرـآنـ فـأـنـىـ وـقـالـ : تـعـلـمـتـ الـعـلـمـ وـعـلـمـهـ وـقـرـأـتـ فـيـكـ الـقـرـآنـ . قـالـ : كـلـبـتـ وـلـكـنـكـ تـعـلـمـتـ الـعـلـمـ لـيـقـالـ : عـالـمـ ، وـقـرـأـتـ الـقـرـآنـ لـيـقـالـ : قـارـىـ . فـقـدـ قـيـلـ ، ثـمـ أـمـرـ بـهـ ، فـسـحـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ حـتـىـ أـلـقـىـ فـيـ النـارـ ، وـرـجـلـ وـسـعـ اللـهـ عـلـيـهـ وـأـعـطـاهـ مـنـ أـصـنـافـ الـمـالـ كـلـهـ ، فـأـنـىـ بـهـ إـلـىـ رـبـهـ فـعـرـفـهـ نـعـمـهـ فـعـرـفـهـاـ ، قـالـ : مـاـ قـرـكـتـ مـنـ سـبـيلـ تـحـبـ أـنـ يـنـقـقـ فـيـهـ إـلـاـ أـنـفـقـتـ لـكـ ، قـالـ : كـلـبـتـ ، وـلـكـنـ فـعـلـتـ لـيـقـالـ : جـوـادـ . فـقـدـ قـيـلـ . ثـمـ أـمـرـ بـهـ فـسـحـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ ثـمـ أـلـقـىـ فـيـ النـارـ » (رواه مسلم والترمذى والنسائى)

النبي يشـنـىـ عـلـىـ أـصـحـاجـابـهـ (١)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « صعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : مالى أراكم تختلفون في أصحابي أما علمتم أن حب آل بيته وحب أصحابي فرضه الله تعالى على أمي إلى يوم القيمة ؟ ثم قال . أين أبو بكر ؟ قال : هـاـنـذـاـ يـاـرـسـوـلـ اللـهـ . قـالـ . اـدـنـ مـنـ . فـضـيـهـ إـلـىـ صـدـرـهـ ، وـقـلـ بـيـنـ عـيـنـهـ ، وـرـأـيـنـاـ دـمـوعـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ تـجـرـىـ عـلـىـ شـدـهـ ، ثـمـ أـخـلـدـهـ بـيـدـهـ وـقـالـ بـأـعـلـىـ صـوـتـهـ مـعـاـشـرـ الـمـسـلـمـينـ هـذـاـ أـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ ». .

هذا شيخ المهاجرين والأنصار . هذا هو صاحبى فى الغار ، صدقنى حين
كلبى الناس ، وأوانى حين طردونى ، واشتريتى لى بلا لا من ماله ، فعلى
مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين . والله منه برىء . فلن أحب أن يبرا من
الله ومنى فليبرا من أبي بكر الصديق ، ولليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ثم قال عليه السلام : أين عمر بن الخطاب ؟ فوثب إليه عمر وقال : هاندأ
يا رسول الله فقال : ادْنْ مِنِي . فدنا فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه
ورأينا دموع رسول الله عليه السلام تجري على خده ثم أخذ بيده وقال بأعلى
صوته : يا معاشر المسلمين ، هذا عمر بن الخطاب شيخ المهاجرين والأنصار ،
هذا الذى أمرنى الله أن أخذه ظهيراً ومشيراً . هذا الذى يقول الحق وإن
كان مراً ، هذا الذى لا يخاف في الله لومة لائم . هذا الذى يفرق الشيطان
من شخصه ، هو سراج أهل الجنة فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ،
والله منه برىء . ثم قال : أين عثمان بن عفان ؟ فوثب عثمان وقال : هاندأ
يا رسول الله ، فقال : ادْنْ مِنِي فدنا منه وضمه إلى صدره ، وقبل بين
عينيه ، ورأينا دموعه تجري على خده . ثم أخذ بيده ، وقال : يا معاشر
المسلمين : هذا عثمان بن عفان ، هذا شيخ المهاجرين والأنصار . هذا هو
الذى أمرنى الله أن أخذه سناً وختنا على ابنتى ، ولو كان عندي ثلاثة
لزوجها إيه ، هذا الذى استحبته منه ملائكة السماء . فعلى مبغضه لعنة الله
ولعنة اللاعنين ثم قال : أين على بن أبي طالب ؟ فوثب إليه وقال : هاندأ
يا رسول الله ؟ قال : ادْنْ مِنِي . فدنا منه وضمه إلى صدره ، وقبل بين
عينيه ودموعه تجري على خده ، ثم أخذ بيده ، وقال بأعلى صوته :
يا معاشر المسلمين ، هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا أخى وابن عمى
وختنى ، وهذا لحمى ودى وشجرى ، هذا أبو الحسن والحسين ، سيدى
شباب أهل الجنة ، هذا مفرج الكربل عنى . هذا أسد الله وسيفه فى أرضه
على أعدائه فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء وأنا منه
برىء ، فلن أحب أن يبرا من الله ومنى فليبرا من على بن أبي طالب ،

وليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ثم قال : اجلس يا أبا الحسن ، فقد عرفت ذلك ذلك » .

(أخرجه أبو مهلهل في شرف النبوة . الرياض النضرة ، ج ٢٩ ، ٥٣ ، إن الله اختار أصحابي) .

* * *

حسبنا هذان المثلان السابقان من خطب رسول الله ﷺ ، وفي الخطبة الثانية لون من ألوان الدعاية الطيبة قام بها الرسول ليعلن الرضا عن هؤلاء الأربع الكبار من أصحابه وهم الذين تولوا الخلافة من بعده كما هو معروف في التاريخ .

غير أنها لا تستطيع أن تترك فصل (الخطبة النبوية) دون الوقوف قليلاً عند أشهر خطب من خطب الرسول ، وهي الخطبة التي ألقاها في :

حججة الوداع

وفيها يقول ﷺ : . . .

(أما بعد) أيها الناس .

اسمعوا مني أين لكم ، فلاني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عالي هذا في
موقعه هذا . . .

أيها الناس . . .

إن دماءكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في
شهركم هذا في بلادكم هذا ! ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فن كانت عنده أمانة فليؤددها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية
موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عبي العباس بن عبد المطلب ، وإن
دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث
ابن عبد المطلب ، وإن مأثر الجاهلية موضوعة غير (السدابة) و (السقافية)^(١) .

(١) أي عدمة الكعبية وستقافية الناس بها .

أيها الناس . . .

إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرن من أعمالكم .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . . .

إن الناس لكم عليكم حفاً ولكم عليهم حق ، لكم عليهم ألا يوطئن فرشكم
غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه ببيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ،
فإن فعلن فإن اللئذ أذن لكم أن تعصلوهم وتهجروهم في المضاجع وتضرروهم
ضرراً غير مبرح . فإن التهون وأطعنتكم فعليكم رزقهم وكسوتهم
بالمعرفة . فانقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس :

إنما المؤمنون بخورة ، ولا يخل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب
نفس منه .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت
فيكم ما إن أخذتم به لم تصلوا بعده : كتاب الله وسنن (١) .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس :

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ،
أكبركم عند الله أتقاكم . وليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض على
أسود فضل إلا بالتفوي .

ألا بلغت ؟ اللهم فاشهد .

(١) دو روایة : کتاب آد و عترته آهل بیت .

قال السامعون : نعم .

قال رسول الله ﷺ : فليبلغ الشاهد منكم الغائب :

أرأيت هذه الخطبة الجليلة كيف كانت بياناً صريحاً للعرب وتطبيقاً
حقيناً لمبادئ القرآن ، وإعلاماً قوياً بالمبادئ التي بيها الإسلام :
إن أول شيء أوصى به رسول الله ﷺ أن ينسى المسلمين دينهم
التي كانت لهم في الجاهلية ، وأن ينسوا كذلك دعاءهم وثارهم هذه
الدماء التي أسفكت الجاهلية وأن يتركوا رباً الأموال التي أفرضوها في الجاهلية
وأن يبدأ بربا العباس عمده ودم عامر بن عبد المطلب .

ثم دعا النبي ﷺ كذلك إلى نبذ التفاخر بعما في الجاهلية ، واستثنى منها
مفسريين فقط هم السدنة أي: خدمة الكعبة ، والسفارة وهي سفي الحجاج
في الكعبة .

ثم دعا الناس إلى حسن معاملة المرأة ، وأوضاع لهم حتى الرجل عليها ،
وحقها عليه . وقال للعرب: «اتقروا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً»
ثم أوصى ﷺ قومه بمحافظة كل منهم على مال أخيه وعلى دمه ، فلا
يحل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ولا يحل لأمرىء قتل أخيه
إلا بالحق .

ثم قال لهم : لقد تركت فيكم شيئاً إن حافظتم عليهما وأخذتم بهما
لن تضلوا أبداً . هذان الشيئان هما كتاب الله وسنة رسوله ،
وأخيراً دعاهم إلى نبذ التفرقة العنصرية أو غير العنصرية ، وكان كلامه
في هذه التصيحة الأخيرة أوضح من ضوء الشمس . فقال لها المسلمين
كلمة صريحة وحازمة .

«ليس لعربي على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتفوى» ،
وكم كان رسول الله ﷺ كل البلاغة ومبيناً أوضح إبانة حين كان يختم
كل فقرات خطابه بهذه العبارة :

الا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

لقد عرف التاريخ خطباء كثيرين من اليونان والعرب كانوا يستخدمون هذه الطريقة من طرق الخطابة وهي أنهم يختمون كل فقرة من فقرات كلامهم بجملة معينة يكررونها ويملحون في تكرارها حتى تفصل بين فقرة وأخرى أو معنى ومعنى ، وتنقل السامع إلى الفقرة التالية أو الفكرة التي تأتي بعد ذلك وهكذا .. ولكن في التاريخ قد يعجز عن الإتيان بمثل هذه العبارة التي كان يختم بها محمد جزءاً من أجزاء خطبته وهي قوله ...
الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

إنها عبارة لها من قوة الإعلام وتنبيه الأذهان ، وتسجيل الشهادة على كل من حضر هذه الخطبة ما لا يمكن أن يكون لعبارة أخرى في موضع كهذا في موقف كهذا من رسول كريم كهذا الرسول .

سادساً:أعني السادس الحالات التي اتسعت لخطب النبي - مجال استقبال الوفود التي تأتي لتعان إسلامها بين يديه، أو يأتي بعضها بعد إسلامها لكي تستزيد من علاتها وتزداد به هداية ، وكان المؤمنون الأوائل من الصحابة يشاركون في هذه الفرص ويردون على خطباء الوفود إذا أذن لهم الرسول بذلك .

قدم وقد عبد القيس على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه . فقال : أيسكم يعرف قيس بن معاذة الإيادي ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله نعرفه ، قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه يعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس ، ويقول :

أيها الناس :
اسمعوا وعوا

من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت : إن في
السماء لخبراء ، وإن في الأرض لغيرها ، مهاد موضوع ، وستف مرفوع ،
ونجوم تدور ، وبحر ينفور ، أقسم قيس بالله قسها حقاً .. لئن كان في الأرض

رضا ليكونن بعده سخط . إن الله دينا هو أحب إلينه من دينكم الذي أنتم
عليه ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم
غركوا هناك فناموا ؟

ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروى شعره ؟

فأنشدوه بعضهم :

فِي الْذَاهِبِينَ الْأُولِينَ مِنَ الْفَرْوَنَ لَنَا بِصَائِرٍ
لَا رَأَيْتَ مُسَاوِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرٌ
وَرَأَيْتَ قَوَىٰ نَحْوَهَا يَسْعَىٰ الْأَصَاغَرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيْكُمْ وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ خَابِرُ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَالَةٌ حِثْ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرٌ
سَابِعًا : وَكَثِيرًا مَا ذَكَرُونَ خَطْبَ الرَّسُولِ عَلَىٰ شَكْلٍ وَصَابِرًا بِجَهَاعَاتِهِ
الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ لِعَضْ الرَّوْفَدِ الَّتِي تَفَدِ إِلَيْهِ فِيهَا ، وَمِنَ الْأَمْثَالِ عَلَىٰ
ذَلِكَ وَصِبَرَهُ لَوْفَدَ الْأَزْدَ

روى علقة بن يزيد الأزدي عن جده قال :

وفدت سابع سبعة من قوى على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه
وكلمناه أتعجبه مسارى من سمعنا وزيتنا فقال : ما أنت ؟ قلنا :
مؤمنون ، فتبسم رسول الله ، وقال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة
قولكم وإيمانكم ؟ قلنا : خمس عشرة حصلة ، منها خمس أمرتنا رسلك أن نؤمن
بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تحذقنا بها في الجاهلية ، ففتحن
عليها إلا أن نكره منها شيئاً ، فقال رسول الله : ما الخمس التي أمرتكم
بها رسلي ؟ قلنا : أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث
بعد الموت ، قال : ما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قلنا
أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله وأن نقيم الصلاة ونؤودي الزكوة ونصو姆
رمضان ونصحح البيت إن استطعنا [إليه سبيلاً] ، قال وما الخمس
التي تحذقتم بها في الجاهلية قلنا : الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء

والصدق في الحرب عند اللقاء، وترك الشفاعة بالأعداء، فقال رسول الله ﷺ: حكيماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال: وأنا أزيدكم خمساً فتم لكم عشرون خصمه: إن كنتم كما تقولون فلا تجتمعوا مالاتكلون، ولا تبنيوا مالاتسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه زائلون، وانقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارجعوا فيها عليه تقدمون، وفيه تخلدون.

فتفرقوا وقد حفظوا وصيغه عليه الصلاة والسلام .. وعملوا بها ^(١) ..

* * *

أتينا بهذه الوصايا الأخيرة لتكون نموذجاً من خطب الرسول ﷺ على هذه الصورة، وأسكنى تكون مثلاً حيّاً من طريقة الرسول في تعليم الدين، وهي مثل يقوم كما رأيت على الحوار اللطيف بين الأستاذ واللاميد، كما يقوم كذلك على مسيرة عقول الساءين، وإضافة المعاومات الجديدة على أساس المعلمات القديمة - فعل المعلم البارع والمربي ^إماهر والحدث اللبق،

الفصل الثامن الدعاية الشعرية في عهد الرسول

رأينا من قبل كيف أن أهم وسائل الإعلام في عهد الرسول وسيلة الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة ، أما الكلمة المسموعة فتمثلت في خطب النبي وخطب الصحابة وفي القصائد الشعرية ، وأما الكلمة المكتوبة فكانت لها صورة واحدة لم تكن تعودها إلى غيرها في حياة الرسول والصحابة ، ونعني بها صور الرسائل التي بعث بها النبي إلى الملوك ورؤساء القبائل المجاورة يدعوهם فيها إلى الإسلام ، وفي الرسائل التي وردت عن النبي والصحابة في غير هذا الغرض .

ولكن السؤال الذي يتबادر إلى أذهاننا الآن هو : ما منزلة الشعر بين الوسائل الإعلامية التي تعتمد على الكلمة المسموعة ؟ أو بمعنى آخر : أيهما كان أقوى تأثيراً في الجموع العربية وأدعى إلى نجاح الرسالة الحمدية ؟ الخطابة أم الشعر ؟ .

ما لاشك فيه أن الخطب – ونخص بالذكر منها خطب صاحب الدعوة – كانت أقوى في باب الإعلام والدعاية من جميع الوسائل الأخرى التي انتهت تحت عنوان : « الكلمة المسموعة » ومن السهل علينا أن نلاحظ قبل كل شيء أن العرب على عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين وإلى أواخر الدولة الأموية كانوا أهل خطابة أكثر منهم أهل كتابة ، ذلك أن الخطابة ملائمة للبداوة والكتابة وليدة الحضارة وأكثر ملاءمة لها من الخطابة ، ولذلك لم يعرف المسلمون الكتابة الفنية بالمعنى الصحيح إلا بعد دخول الأمم الأجنبية في الإسلام ، ومنها دولة الفرس بنوع خاص ، وهذا هو السبب في أن الخطابة بقيت أولى وسائل الإعلام ، والتأثير عند العرب طول العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين وجزء كبير من العهد الأموي ،

ثم هذا هو السبب في أن العرب في عهده بني أمية كانوا ينظرون إلى الخطيب نظرة أعلى من نظرتهم إلى الكاتب .

أما الشاعر فكان في المنزلة التي تلي منزلة الخطيب، ومن هنا كان النبي وخلفاؤه من بعده أشد حرصاً على الخطيب منهم على الشاعر ، ولو لا أن التقاليد العربية القديمة أعطت الشاعر أهمية عظيمة لكان من الجائز أن يحمله النبي والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم احتفظوا به وبشعره لأن شعره كان يترك أثراً في نفوس العرب الذين تعودوا سمعاً منه العصر الجاهلي .

وإليك هذين الخبرين : أحدهما عن شاعر والآخر عن خطيب :
فأما خبر الشاعر فهو هنا : (الأسود بن شريح) وقد جاء إلى النبي ينشده بعض المدائح واستحسنه مرتين ، إذ دخل عليهما عمر ، والشاعر لا يعرفه ، فصاح قائلاً : والكلاء - من هذا الذي أسكن له عند النبي ؟ فقال النبي : هنا عمر ، هذا رجل لا يحب الباطل .

يؤخذ من هذا الخبر أن الشعر كان ينظر إليه منذ ظهور الإسلام على أنه باطل ، وذلك مصداق لما جاء في القرآن الكريم : « والشعراء يتهمون الغاوون » ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » وأئمهم يقولون مالا يفعلون « إلا الذين آمنوا » .. إلخ .

معنى ذلك أن الشعر كان في زمن النبي والخلفاء الراشدين يعتبر وسيلة إعلامية من الدرجة الثانية بعد الخطبة .

وأما خبر الخطيب فهو هنا (سهل بن عمرو) وقد أسر في بدر فأشار عمر على النبي بكسر ثنيته السفلين ليصبح عاجزاً عن الكلام ، وكان مشتوق الشفة السفل ، فأبى النبي ذلك وقال : « عسى أن يقسم قياماً لأنتم » فما زال عمر حتى رأى في حروب الردة أيام أبي بكر يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام وصدقه فيه نبوة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ووضحت حجته في الحرص على هذا الخطيب الذي قد ينفع به في يوم من الأيام .

• • •

والخلاصة حتى الآن أن النبي ﷺ — وهو داعية الإسلام — لم يكن شاعراً « وما حلمناه الشعر وما ينبغي له » وإنما كان خطيباً ومحدثاً ، ومن ثم كانت خطبه وأحاديثه من أكبر وسائل الإعلام والدعابة للإسلام وذلك بعد القرآن ، ومع هذا وذاك فإن محمدًا لم يتجاهل الشعر ولم يردد الشعراء وهو يعلم جيداً أن هؤلاء مسكنة كبيرة في نفوس العرب منذ الجاهلية . ولذلك سمع الرسول شعراً في مدحه ومدح الدين الذي جاءه من أجله كما سمع الرسول شعراً في ذم قريش وهو منهم وهم منه . وكان كبير الشعراء الذين هجوا قريشاً أمام الرسول (حسان بن ثابت) ، وقد أغرب له الرسول عن تعجبه من أنه يهجو قريشاً وهم أهله وعشيرته ، فأجابه حسان : أنا أعلم ذلك بارسول الله ، ولكنني أستلئك منهم كما تسل الشعرة من العجين » . فسكت الرسول العظيم .

• • •

ولنا بعد ذلك أن نستعرض طائفة قليلة من الأشعار التي قالها حسان ابن ثابت في مدح النبي ﷺ (١) .

من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
يلوح كما لاح الصقيل المهد
وعلمنا الإسلام فالمحمد
 بذلك ما عمرت في الناس أشهد
 سواك إلهًا أنت أعلى وأجل
 فليساك نسبي ولياك نعبد
 نبي أثانا بعد يأس وفترة
 فأمسى سراجًا مستيراً وهادياً
 وأسلينا نارًا وبشر جنة
 وأنت إله الحق ربنا وخالق
 تعاليت رب الناس عن قول من دعا
 لك الخلق والنعاء والأمر كله

(١) سقط الأكله من ٧ مجلدات التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ من ٩٦ .

لأن ثواب الله كسل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد
الآتى مني أن شعر حسان في هذه الآيات يوشك أن يكون نظماً
لبعض آيات القرآن الكريم التي تذكر أن محمداً بعثه الله بعد فترة من الرسل،
 وأنه بعث والناس يعبدون الأصنام بدلاً من عبادة الله تعالى، وأن الله
أرسله إلى الخلق هادياً وبشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً، وأنه بشر بالجنة
وأنذر بالنار، وما بعد الحياة الدنيا شيء غيرها وأن الله تعالى أعلى مما يعبد الناس
غيره من الحجارة وغيرها، وأن الأمر كله لله، له الخلق وله الحمد وهو
وحده رب النعم التي ينعم بها الناس، وأن الجنة هي المكان الذي وعد به
كل مؤمن بالله تعالى ومقرر بوحدانيته.

وكل هذه المعاني إسلامية بختة وليس تأريب عهد بها قبل ظهور الدين الجديد - وانظر إلى شاعر آخر - وهو كعب بن زهير - كيف مدح الرسول ﷺ بقصيدة عظيمة أعجب الرسول نفسه بها فخلع بردته على قاتلها تكرعاً له ، وفيها يقول (١) :

إن الرسول لنور يستضاء به
في عصبة من قريش قال قاتلهم
ز الوافرزالأنكاس ولا كشف (٤)
شم العرائين أبطال أبوهم
لا يفرحون إذ نالت سهامهم
مهند من سيف الله مسلول
بيطن مكة لما أسلموا زولوا
عند اللقاء ولا ميل معاذيل
من نسج داود في المهيجة سراويل
قوماً ولبسوا مجاذعاً إذا نيلوا

* * *

على أن الشعراء الحبيطين بالنبي كان عليهم أن يقوموا بواجب آخر - فضلاً عن مدح الرسول - وهذا الواجب - في نظرهم - هو هجاء أعداء الإسلام من المشركين في مكة والهود في خير وضرها من المراكز اليهودية

(١) كتاب جمهورة أشعار العرب . طبعة بولاق سنة ١٣٥٥ هـ ص ١٥٠ .

(٢) أنسكار جمع نكسن بـ سـ كـ سـ نـ وـ هـ الـ جـ بـانـ وـ الـ سـ كـ شـ فـ بـضمـ الشـينـ الـ ذـينـ
نـ كـ شـ ثـ لـ وـ نـ الدـوـ .

ومن قول حسان في هجاء خير على سبيل المثال (١) :

لو كنت من هاشم أو من بني أسد
أو عبد شمس وأصحاب اللوا الصيد
أو من بني نوبل أو ولد مطلب
أو كنت من زهرة الأبطال قد علموا
أو من بني خلف الزهر الأماجيد
يا آل تم ألا تهسي سفيه سكرور
قبل (اللقاء) (٢) بأمثال الحلاميد
وقال يهجو أبا هلب (٣) :

أبا هلب أبا سعيد بأن مهدا
سيعلو بما أنت وإن كنت راغما
وإن كنت قد كذبته وخدلته
وحيداً وطاعت المجين الفراغما
ولو كنت حراف في أرومة هاشم
وفي سرها منهن منحت المظالم
سمت هاشم للمكرمات وللعلا

ونعوردت في كاب (٤) من اللؤم جائماً

وقال حسان يهجو أبا سفيان (٥) .

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم
هو الغصن ذو الأفان لا الواجد الوغسد
ومالك فيهم محتد يعرفونه
فلو نلث لصق مثلاً لصق القرد
فلاك من إصدار عزم ولا ورد
بنو عبد مخزوم ووالدك العبد
كريماً ولم يقرب عجاجيزك الجد
ولكن هجين ليس يورى له زند
كما نيط خاف الرأكب القدح الفرد
وأبا سفيان عن رسالته
ولأن سناء الجند من آل هاشم
وأبا سفيان عن رسالته
ولما ولدت أفناء زهرة منكرو
ولست كعباس ولا كابن أمه
وكنت دعياً نيط في آل هاشم

(١) في الأصل الثبات .

(٢) ديوان حسان ص ٨٤ .

(٣) مسكنى في الأصل .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ص ٨ .

(٥) الديوان ص ٩١ .

وأفحش حسان في هجاء أبي سفيان حتى قال فيه(١) :

غضبت بفرع من أبيك وخالة	غضبت بنو النجار بالسكر الرطب
فلست بخیر من أبيك وخالة	ولست بخیر من مفاصلة الكلب
ولست بذى دين ولا ذى امانة	ولست بخیر من لوى ولا كعب

* * *

ثم كان على الشعرا الملازمين للنبي ﷺ واجب ثالث وهو تهنة الرسول يوم النصر ورثاء القتلى من ذويه وأصحابه في ميدان الحرب :

قال حسان في يوم بدر يرثي قتلى المسلمين في هذه المعركة(٢) :

الا يا قوم هل لما حسم دافع	وهل ما مضى من صالح العيش راجع
----------------------------	-------------------------------

تدكرت عصرآ قد مضى فتهافتت

بنسات الحشا وانهل مني المدامع

صباية وجد ذكرنى أحبة	وقتلى مضموا منهم نقيع ورافع
وسعده فأضحي في الجنان وأوحشت	منازلهم والأرض منهم بلا قع
وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم	عذاب المثاب والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق وكلهم	مطیع له في كل أمر وسامع
فا بدلاوا حتى توافقوا جماعة	ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهم يرجون منه شفاعة	إذا لم يكن إلا النبيين شافع
وذلك يا خير العباد بلا تنا	ومشهدنا في الله والموت نافع
لنا القدم الأولى إليك وخلفنا	لأولئنا في طاعة الله نابع
ونعلم أن الملك لله لا بد وحده	وأن قضاء الله لا بد واقع

* * *

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) الديوان ص ٦٨ .

وقال حسان يوم فتح مكة من قصيدة أوها :
 عفت ذات الأصابع فاجروا إلى عشراء منزها خلاته
 ومنها :

فإما تعرضا عن اهتمنا
 وكان الفتح وانكشف الغطاء
 يعين الله فيه من يشاء
 وإنما الأنصار عرضها اللقاء
 وقال الله قد يسرت جندا
 لنا في كل يوم من معد
 قتال أو سباب أو هجاء
 فنحكم بالقوافي من هجانا
 ونضرب حين تختلط الدماء
 وقال الله قد أرسلت عبدا
 يقول الحق إن نفع البلاء
 شهدت به وقوى صدقه
 فقلت : ما تجتب وما تشاء
 وجريل أمين الله فينا
 وروح القدس ليس له كفاء

ومنها :

ألا أبلغ أبا سفيان حتى
 فافت بجوف نحب هواء
 هجوت محمدأ فأجلت عنه
 وعند الله في ذلك الجزاء
 أهجهوه ولست له بكافء
 فشر كما تخبر كما الفداء
 فمن يهجو رسول الله منكم
 ويذبحه وينصره سواء
 لسانى صارم لا عيب فيه
 وبحرى لا تكدره الدلاء

وآخر آكان ، من عمل الشعراء الملتقطين حول النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أنهم يردون على
 الشعراء الذين كانوا يهجونه صلوات الله عليه وآله وسلامه تقرباً للمشركين ، ومن هؤلاء شاعر
 يقال له (ابن الزبرى) وقد ظلل يهجو النبي حتى أسلم فانقلب شاعراً من
 شعراه وأنصاره بعد أن كان من أعدائه ونخصومه ، وقد رد عليه حسان
 ابن ثابت في قصائد كثيرة منها على سبيل المثال (١) .

لاطت قريش حياض الحد فاقتربت سهم فأصبح منه حوضها صبرا

(١) الديوان من ٧٨ .

وأوردوا وحياض الحج طامية فدل حوضهم الوراد فانهدا

ومنها :

يا آل سهم فإني قد نصحت لكم
لأبعن على الأحياء من قبراء
كان (الزبرى) لتعل (ثابت) خطرا
كم من كريم بعض الكلب مثروه
ثم يفر إذا أقيمه حجرا
لولا النبي وقول الحق مفضية
لما تركت لكم أثى ولا ذكرا

* * *

و هكذا كان الشعر يقوم في خدمة النبي ﷺ بكل هذه الواجبات التي
ألقاها على كامله ظهور الإسلام .

ولكنا نعود فنقول إن الرسول — فيما يظهر — كان لا يغول كثيرا على
هذه الوسيلة الإعلامية أو هذا الشكل من أشكال الدعاية ، وذلك أن
الشعر مهما عظم شأنه في تلك الفترة لا يمكن أن يفاس من هذه التواحي
بالقرآن الكريم أو بالحديث الشريف أو بخطب الرسول ﷺ أو بالقدوة
الحسنة التي امتاز بها المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام .

ومالاشك فيه أن الأفضلية كانت لهذه الوسائل الإعلامية التي أشرنا إليها
ووقفنا عند كل واحدة منها ، وكانت كلها مقدمة على وسيلة الشعر الإسلامي
الذى لأن أسلوبه يظهور هذا الدين ولم يصلح في جزالة الشعر الجاهلي ومتانة
نسجه وقوه بنائه ، ذلك أن الشعراء في الإسلام لانت عريكتهم ورقت
عواطفهم وامتلأت نفوسهم بالمعنى الجديدة والمفاهيم الجديدة والقيم الجديدة
وهي القيم التي من شأنها أن تخلق من العربي في الإسلام رجلا بعيداً عن
العنف وعن الحرق وعن البطش وعن الظلم ، والشعر عند العرب في الجاهادية
كان يبني على الشر في أكثره ، وذلك بغض النظر عن بعض الحكم الذي
وردت في الملحقات والتي كانت تعبيراً عن تجاربهم في الحياة .

ولنا أن نأخذ الدليل على ذلك من حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ :

فقد القسم النقاد القدماء حول حسان قسمين :

القسم الأول : وهو الأقل - يحکم له حکما مطلقا ويقول إنه من أجود
الشعراء في الجاهلية والإسلام .

القسم الثاني : وهو الأکثريه من القناد ومعهم حسان بن ثابت نفسه -
يوازن بين جودة شعره في الجاهلية وسقوطه في الإسلام .

ومن أشهر رجال القسم الأخير الأصمسي ، وقد أثرت عنه ثلاثة
روايات :

الرواية الأولى وتقول : إن الشعر نكد ، يقوى في الشر ، فإذا دخل
في الخير ضعف ، وهذا حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية - فلما
جاء الإسلام سقط شعره^(١) .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر .
ثم قطع متنه في الإسلام لحال النبي ﷺ^(٢) .

والرواية الثالثة تقول : طريق الشعر إذا دخلته في باب الخير لأن
«أى ضعف» . ألا ترى حسان بن ثابت كان قد علا في الجاهلية فلما دخل
شعره في باب الخير : من مراثي النبي ﷺ وحمرة وجمفر رضوان الله
عليهما لأن شعره . وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل أمرى القيس
وزهير والنابغة في صفات الديار والرحال والهجاء والتشبيب بالنساء والخمر
والخيل وال الحرب والافتخار ، فإذا دخلته في باب الخير لأن^(٣) .

وقيل لحسان بن ثابت نفسه ، لأن شعرك وهرم يا أبا الحسام .

فأجاب عن ذلك بقوله :

يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب فلا يحيى ، الشعر جيدا^(٤) .

(١) أسد الثابة ج ٢ ص ٤٠ .

(٢) الموسوعة من ٦٢ .

دأبت هذه الروايات الثلاث في كتاب (حسان بن ثابت شاعر الرسول) الدكتور سيد سعى
حسين - الملفقة رقم ٣٠ من مسلسلة أعلام العرب من ٤٣ .

(٤) أسد الثابة ج ٢ ص ٤٠ .

الباب الثالث

مختصر

نريد أن نلقي على أنفسنا هذا السؤال :

ماذا كان عليه الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين؟ مادام شكل الإعلام ونظام الاتصال بالناس مبنياً في كل زمان ومكان على شكل الحكومة القائمة؟

أجل - لكل نوع من أنواع الحكومات في العالم نظام إعلامي يتفق معه ويواهله ، وهذا قول صحيح بالقياس إلى الحكومات القدمة والحديثة على السواء ، والإعلام أو الاتصال بالناس هو الوسيلة الوحيدة لإيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم منذ أقدم العصور ، وحاجة الحاكم إلى هذا الاتصال من حاجة المحكوم إليه .

غير أن شكل الحكومة في عهد الخلفاء الراشدين كان مختلفاً شكل الحكومة عند الخلفاء الأمويين فالعباسيين وسائر الحكومات الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك إلى اليوم ، وبناء على ذلك وجب أن يكون للإعلام أو الاتصال في حكومة الخلفاء الراشدين صورة مختلفة للإعلام أو الاتصال في عهود الحكومات الإسلامية التي أتت بعد ذلك ،

وحسيناً أن نلقي النظر أولاً إلى الطريقة التي اختار بها المسلمون أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً - رضي الله عنهم - وهي طريقة مبنية على الانتخاب الحر في أكثره ، أما الخلافة الأموية فالعباسية وما جاءت بعدها من الحكومات الإسلامية فقد بنيت على الوراثة ، وفرق كبير بين الانتخاب والوراثة - وهذا معنى ما قاله المؤرخون الإسلاميون القدماء من أن الخلافة الإسلامية بعد على بن أبي طالب تحولت إلى ملك عضوض كالملك الذي شهدته الفرس أو الروم ، ومن لهم .

وقد نستطيع أن ننظر نظرة سريعة إلى أنواع الحكومات عبر التاريخ ، وخاصة في البلاد الأوربية ذاتها ، فنجد منها الحكومات الآتية :

الحكومة الديقراطية :

ولهذه الديقراطية أشكال مختلفة ، ولكن من الحق أن الشبه بعيد بين هذه الأشكال جميعها من جهة ، وشكل الديقراطية في حكومة الخلفاء الراشدين من جهة أخرى ، ذلك أن الديقراطية الإسلامية على أيدي الخلفاء الراشدين كانت تمثل في مظاهر واحد فقط ، هو مظاهر «أهل الحل والعقد» وهو أشبه بجنس يتألف من كبار الصحابة ويستعين به الخليفة في تسيير أمور المسلمين ، ولا يكاد الخليفة يقطع في أمر من هذه الأمور حتى يرجع إلى أولئك الصحابة . أما عامة المسلمين فلم يكن لهم رأي معمول به ، ولا يمنع ذلك واحداً من أولئك العامة — رجلاً كان أو امرأة — أن ينعقد الخليفة في بعض تصرفاته أو يعتريض عليه في بعض أحكامه . فإذا وافق هذا الاعتراض كلام الله أو كلام رسوله لم يسع الخليفة إلا التزول عن رأيه والاعتراف لهذا الرجل أو المرأة بأنه أو بآيتها على حق ، ومن هنا جاء قول عمر في بعض موافقه : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

ومنها الحكومة الأوتوقراطية :

وهي حكومة الفرد المستبد ، ومن المؤكد أنها أبعد أشكال الحكومات عن حكم الخلفاء الراشدين ، وهل كان واحد من أصحاب النبي ﷺ أبى يكر وعمر وعثمان وعلى يسْتَبْد برأيه بهذا المعنى ؟ لقد مدحهم النبي في حياته وأفني عليهم جميعاً ودعا لهم جميعاً وبشرهم جميعاً بالجنة ، وما ذلك إلا لأن كل واحد منهم كان صورة من النبي نفسه في جميع تصرفاته ؛ وحركتاته وسكناته ، وكان كما يفكرون يعقل النبي وينظر بعين النبي ويسمع بأذنه ، ويحس بقلبه ، ويبيطش بيده إذا لزم الأمر ، ولم يمنع ذلك من أن يستقبل كل واحد منهم بشخصيته التي تظهر في سيرته ، وسنعرض لجانب واحد من جوانبها فقط ، هو الجانب الإعلامي .

ومنها الحكومة الثيوقراطية :

وهي حكومة ترفع الحكماء على أساس الدين إلى مرتبة فوق مراتب البشر ، ثم هي الحكومة التي تجعل لرجال الدين منزلة فوق منزلة المحكومين الذين ليست لهم هذه الصفة .

ولستنا بحاجة إلى التدليل على أن هذه الصورة من صور الحكم لا وجود لها في حكومات الخلفاء الراشدين ، وذلك بالرغم من أن هؤلاء الخلفاء كما بينا كانوا لا ينطعون في أمر من أمور المسلمين حتى يردوه إلى كبار رجال الدين ، وهم محبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ومنها الحكومة الأوليغاركية :

وهي حكومة الصفرة أو الأقلية من الأشراف والساسة . وقد جاء الإسلام فساوى بين الناس ، وأنكر مثل هذه التفرقة . كما جاء في الأثر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — قوله :

« استمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد جبشي كأن رأسه زبيبة » ،
لم تكن حكومة الخلفاء الراشدين واحدة من هذه الحكومات التي أشرنا إليها ، وإنما كانت طرزاً خاصاً لم يعرفه الشرق والغرب .

كانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم الديمقراطية بمعنى الذي شرحناه وهو حكم الرعية يشرط أن يستعين الخليفة في حكمها (بأهل العمل والعقد) من هذه الرعية ،

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم المساواة ، وذلك بين الحاكم والمحكوم ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وفي ذلك يقول الرسول في حجة الوداع (ليس لعربي على أعمى فضل إلا بالتقى) . (كلكم لآدم وآدم من تراب) ،

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى الحرية ، فلكل فرد في المجتمع الإسلامي حرية كاملة في أن يوجه النقد للم الخليفة وذلك كما قلنا : صعد حمر بن الخطاب المنبر يوماً وقال للناس : إن أخطأت فقوموني ،

فأبى له أحد الحاضرين وقال : « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقونناه بحد سيفنا ، فما كان جواب عمر إلا أن قال : « الحمد لله الذي جعل في أمري من إذا أخطأت قومي بسيفه » .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى العدل ، ولا نعلم حكومة في تاريخ العالم كانت تتلزم بالعدل بالقدر الذي ظهر في حكم الخلفاء الراشدين .. وأخبار عمر بن الخطاب في هذا المجال أشهر من أن يشير إليها البحث ، لأنكاد نستثنى من هذا الحكم إلا الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رضي الله عنه ، فقد كان عثمان يفهم العدل بصورة تختلف ما كان عليه أبو بكر وعمر . وربما من أجل ذلك قامت (الفتنة الكبرى) التي اشتهر أمرها في التاريخ الإسلامي ، وستقف عندها في الكلام عن الإعلام في زمن عثمان .

ترى ما الذي جعل حكومة الخلفاء الراشدين شكلًا مختلفًا جمیع الحكومات الحديثة في الإسلام ؟

إن الذي جعل لها ذلك هو الحقيقة القائلة بأن القصد الأول للخلفاء الراشدين هو المحافظة التامة على تراث النبي بالصورة التي تركه بها ، أو بأن الشأن الأول للخلفاء الراشدين كان لمعقيدة الإسلامية كما تركها النبي بعد فراغه من أداء رسالته .

وهذه الحقيقة السابقة هي التي نستطيع أن نفسر على أساسها جميع الأفعال التي صدرت عن الخلفاء الراشدين ، ومنها أعمال القضاء ، وأعمال السياسة ، وأعمال التربية والتعليم ، ومنها — بطبيعة الحال — أعمال التوسيع في الفتح .

فهل كانت الفتوحات الإسلامية بعد وفاة الرسول مجرد الغلبة والسلطان أو لإشیاع شهوات الغزو والقتال وغريزة للصراع ؟ كلام ثم كلام . وننظر في سيرة الخلفاء الراشدين فنرى أنهم كانوا مقيدين بكل التقييد بسيرة الرسول ، فما دام الرسول لم يكن يهدف من غزواته إلى إجهاه

والسلطان، وإنما كان يهدف إلى أمرين هما: نشر الدعوة الإسلامية وحماية هذه الدعوة في داخل المدينة وفي خارجها، فكذلك كان الخلفاء الراشدون لا يهدفون وراء الفتوحات إلا إلى هدفين الغرضين ولا شيء غير ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك فما نظام الإعلام، أو ما هي وسائل الاتصال التي كان يمارسها الخلفاء الراشدون بناء على هذه الحقيقة التي شرحتها؟ وإلى أي حد نجحت هذه الوسائل في إيجاد التفاهم بين المحاكم والمحاكم في عهد أولئك الخلفاء بوجه عام؟

ما لاشك فيه أن حكومات الخلفاء الراشدون ترسّمت طريق الرسول في أكثر المجالات الإعلامية التي ظهر فيها نشاطه عليه السلام، ثم زادت على المجالات أخرى دعت إليها الظروف المحيطة بكل واحد من أولئك الأربعة، وسيشرح هذاباب بعض هذه الحالات وما أحاط بها من ظروف.

من أجل ذلك اقتدى الخلفاء الراشدون بالرسول في التركيز على الوسائل الإعلامية الآتية:

أولاً - وسيلة القرآن.

ثانياً - وسيلة الحديث.

ثالثاً - وسيلة الخطابة.

رابعاً - وسيلة الحجج وال عمرة لله.

خامساً - وسيلة القدوة الحسنة.

سادساً - وسيلة الفتوح.

غير أنه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالذات وجد أنه ابتعد عن السياسة الإعلامية التي سُنّها الشیخان من قبل «أبو بكر وعمر». واعتذر عن ذلك بأنه يرى مصلحة المسلمين تتحقق بطريقه أو أخرى غير طريقة الشیخين، ومن ثم طفق عثمان يخص أقرباءه بالولاية على الأقاليم، ويخص الباقيين منهم بكثير من المدابي التي يأخذها من بيت المال. وكان يسمى هذا المال (مال الله)، واعتبره الصحابة على ذلك و قالوا إنه (مال المسلمين) والفرق بين المعندين عظيم.

من أجل هذه الظروف — ونعني بها ظروف المعارضة التي أدت إلى الثورة — ظهرت الحاجة ماسة إلى (الدعائية) ، ولكن هذه الدعاية لم تكن من جانب عثمان لتبسيط مواقفه التي سخط عليها كبار الصحابة ، وإنما كانت من جانب الصحابة وأبناء الصحابة ، وقد انتشروا في مصر والشام وقاموا فيما وفي غيرهما من الأقطار بهذه الدعاية المخطيرة ، وهي الدعاية التي قتلت عثمان بن عفان ، وهي وحدها المسئولة عن قتله .

ولتكن هذه الدعاية — كما سنشرح ذلك في موضعه من الكتاب — لأمررين لا ثالث لهما :

أو ثالثها — السياسة الإعلامية الرشيدة التي سار عليها الشیخان أبو بكر وعمر وهي السياسة المبنية على اتباع رسول الله ﷺ لا يحيطان عنه قيد أئملا .

وثالثهما — انفرد عثمان بمخالفة هذه السياسة الإعلامية الرشيدة إلى الدرجة التي ظنها كبار الصحابة خروجاً على سنة رسول الله ، ولم يكن للصحابية كل الحق في ذلك لو لا أن صورة الحكم التي يمثلها الشیخان كانت لم تزل ماثلة في أذهانهم ، ولو لا أن بعضهم كانوا من صحابة رسول الله ، ينظرون بعيته ويسمعون بأذنه ويشاركونه بأفكارهم وأموالهم وجهودهم التي يبذلوها معه في سبيل الإسلام .

هكذا كادت حركة (الإعلام) في عهد الخلفاء الراشدين تكون صورة دقيقة من حركة (الدعاية) على يد الرسول ، مع فارق واحد لا بد أن نذكره . وهو الفارق الذي لا بد من وجوده بين النبي والخوارى ، أو بين الأستاذ والتلميذ ، أو بين المتبوع والتابع .

ومع فارق آخر لا بد أن نذكره أيضاً وهو أن عثمان بن عفان كان يفهم الحكم والعدل بصورة تختلف صورتها عند أبي بكر وعمر ، ولذلك لم يكن من السهل على المؤرخ أن يصف عثمان بالخروج على سنة الرسول وابتداع سنة أخرى بعيدة عنه سنته ﷺ .

الفصل الأول الإعلام في عهد أبي بكر

كانت أولى الحركات الإعلامية التي أدت إلى انتخاب الخليفة الأول
أبي بكر رضي الله عنه تتمثل فيها عرف في التاريخ باسم :

يوم السقيفة

فقد انعقد في ذلك اليوم ما يشبه المؤتمر السياسي الكبير . الغرض منه هو اختيار خليفة لرسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وحضر المؤتمر كثيرون من زعماء المهاجرين والأنصار ، ولم يكدر بمخالف زعيم منهم عن الحضور ، حتى (سعد بن عبادة) زعيم المخرج – وكان عريضاً في ذلك اليوم – فحمله قومه إلى مكان الاجتماع ليعطي كلمته فيه .

انتشر في المدينة نبأ وفاة الرسول ، فبادر الأنصار إلى التجمع في (سقيفة بني ساعدة) ، وطفقوا يتحدثون في أمر المخلافة دون أن يشركوا معهم أحداً من المهاجرين ، وكادت الفتنة تندلع نارها لهذا الخبر ، ولكن لم يقدر لهذه الفتنة أن يتجاوز طيورها باب السقيفة .

فأما أبو بكر وعمر – وهم شيخاً المهاجرين – فما كانا يعلمان بهذا الاجتماع الذي أسرع به الأنصار حتى بادراً بالذهاب إليه ، وهنالك التقى بزعماء الأوس والمخرج ، وإذا ذلك أخذ المؤتمر لنفسه صورة متكاملة تجتمع زعماء الفريقين ، وأتيحت الفرصة لكل زعيم منهم أن يلقي كلمته .

فتكلم زعيم الأنصار سعد بن عبادة يبين حقهم في المخلافة فقال : يا عشرون الأنصار . لسكم سابقة في الدين ، وأفضلية في الإسلام ليست القبيلة من العرب ، إن مهداً عليه الصلاة والسلام لم يث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما أمن من قومه

إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزروه
دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عمداً به حتى إذا كان مني أراد الله
بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعم فرزقكم الإيمان به
وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ،
فكم أشد على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً أو
كرهاً ، وأعطي البعيد المقاد صاغراً داخراً ، حتى أمن الله عز وجل لرسوله
بكم الأرض ، ودانت بأسيافكם للعرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٌ
وبكم قرير العين ، استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس ٥

ثم خطب أبو بكر يوضح حق المهاجرين في الخلافة وكان عمر يردد
الكلام ، فقال أبو بكر : على رسلك . ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال :
أيها الناس ، نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ،
وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب ،
وأمسهم رحمة برسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ،
فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين
اتبعوهم بإحسان) . فتحن المهاجرين وأتم الأنصار ، إخواننا في الدين ،
وشركاؤنا في النور وأنصارنا على العدو ، آتيم وواسيم — فجزاكم الله
خيراً ، فتحن الأماء وأتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ،
فلا تنسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله .

وفي رواية أخرى أن أبو بكر قال بعد ذلك :

إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج ، وإن تولته
الخزرج نفسته عليهم الأوس ، وإن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش
منا الأماء ومنكم الوزراء .

ثم تقدم عمر بن الخطاب للكلام فقال :

(إن العرب تنتسب أن تولى أمرها إلا من كانت النبوة فيهم ، وولي
أمرهم منهم) . وكان عمر بذلك أيد صاحبه أبو بكر في الرأى الذي

جهر به ، و كان هما كانا يتفقان فيها بذنهمما عليه قبل أن يأتي لحضور يوم سقيفة
يمنى ساعدة .

ثم جاء دور أبي عبيدة ، وهو أحد زعماء المهاجرين أيضاً ، فقال :

« يا معاشر الأنصار كنتم أول من نصر و آزر ، فلا ت تكونوا أول من
بدل و غير » ،

و توالي المتحدثون واحداً بعد الآخر بعد ذلك وإذا بالجتمعين يسمعون
أبا بكر مرة ثانية ينادي بأعلى صوته قائلاً :

يا قوم : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شتم فبأيعوا ،
وهذا ابنى عمر وقال : هذا أبو بكر إن شتم فبأيعوه .

ثم ابنى أبو عبيدة وقال مثل ذلك .

تم سمع المجتمعين عمر يقول للمرة الثانية :

لا والله يا أبا بكر ، لا تتولى هذا الأمر عنك فإنك أفضل المهاجرين ،
و ثانى الثنتين إذ هما في الغار ، و تخطيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الصلوة والصلوة أفضل دين المسلمين^(١) ، فمن هذا الذي ينفعى له أن
يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

و سمع القوم - وفيهم أبو بكر : مقالة عمر ، ومع ذلك تقدم أبو بكر
إلى عمر وقال له :

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم طریع القرآن أيام المرض للتي سبقت الوفاة ، فأمر زوجته السيدة عائشة بذن أبا بكر أن تثبت إلى أيها من يقول له إن رسول الله يأمرك أن تلزم الناس في الصلاة ، فترددت السيدة عائشة في أول الأمر حتى لا تفهم بأنها تهنىء الآمر لأبيها ليكون الخليفة بعد رسول الله ولسكن الرسول ألح عليها في ذلك ، فلم تجد بدأ من تلبيع الرسالة إليه فجاء مسجد الرسول وأم الناس في الصلاة .

أبسط يدك أبأيدهك يا عمر .

فقال عمر : أنت أفضل مني .

فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني .

فقال عمر : إن قوتي لك مع فضلك ، ولا ينبغي لأحد بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون فوقك ، إنك صاحب الغار مع رسول الله . وثاني الثين ، وقد أمرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اشتكيت لفصيلت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .

ثم وَثَبَ عمر فأخذ بيده أبي بكر وبأبيه ، فوثب الجميع من عليه الصحابة يتسابقون إلى البيعة .

ثم بابيه زعيم الأوس (بشير بن سعد) وهو يقول :

«كرهت أن أنازع قوماً في حق يجعله الله لهم» .

ورأى الحزرج الحاضرون هذه الحركة فلم يرق لهم عزم وراء ذلك . فنزاحموا على البيعة حتى ألوشكوا أن يطشوا زعيمهم المريض (سعد بن عبادة) وماتت الفتنة في مهدها وكفى الله المؤمنين القتال .

حركة إعلامية كبيرة حضرها الزعماء الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة في الساعة الصحيحة ، وظهروا أمام الناس بالظهور الملائم ، فلا تناقض بينهم على الخلافة ، ولا تهافت منهم على الإمارة ، ولا جفاء منهم لأحد من الأنصار ، ولا تنكر منهم لما طؤلاء من فضل على الإسلام ، ولا إخفاء منهم للحقيقة التي لا يماري فيها أحد ، وهي الحقيقة التي افتح بها أبو بكر قائلاً :

«إن العرب لا تدين لغير هذا الحى من قريش» ، ولاشك أن الفضل في نجاح هذه الحركة الإعلامية السخيرة إنما يرجع لظهور الثلاثة الكبار الذين علموا باجماع الأوس والحزرج للتشاور في أمر الخلافة فلم يطشوا ولم يتوانوا في المبادرة إليهم والاشتراك معهم في هذا الاجتماع ولو قد أبظعوا في ذلك لضاعت عليهم الفرصة واندلعت ببران الفتنة ، ولا يعلم إلا الله ماذا كانت عوائقها .

أما خلافة أبي بكر — رضي الله عنه — فلم تدم أكثر من ثلاث سنوات كانت كلها برقة على الإسلام فقد اصطدم أبو بكر في أول خلافته بحادث بالغ الخطورة ؛ وهذا الحادث هو (حركة الردة) ونعني بها ارتداد السكثرين من العرب عن الإسلام ، وبذلك تعرض هذا الدين الأكبر كارثة يُمْسِكُنَّ أن تمر بعد وفاة الرسول ، وإذا ذاك لم يجد أبو بكر بدأً من محاربة العرب المرتدين وإنقاذ الدين من هذه الكارثة التي كادت تودي به .

ونستعرض حياة الخليفة الأول في مدة توليه الأمور فنجد أنه قام فيها بأهم الاربعة :

- ١ — محاربة المرتدين .
- ٢ — بعثة أسامة بن زيد .
- ٣ — بعوثه إلى العراق والشام .
- ٤ — محاولة جمع القرآن .

وستنظر في هذه الأعمال الأربع الجديدة — كما وعددنا القراء — لا من الزاوية التاريخية ولكن من الزاوية الإعلامية .

حركة الردة

كانت هذه الحركة من الخطورة الخطيرة على الخليفة أبي بكر وعلى النظام القائم بحيث وجدنا عمر بن الخطاب يشقق منها على حياة أبي بكر ، نعم — وجدنا عمر — وهو رجل معروف بشدته وقوته شكيمته — ينصح أبي بكر — وهو رجل معروف برقةه ورأفته ولين عريكته — ويقول له :

« الزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتل العرب »

ولتكن أبي بكر خالف رأي عمر في ذلك ، وننظر إلى حركة الردة على أنها ثغرة في الدين ، وإنخلال بالأمانة التي تركها الرسول صلوات الله عليه ، وفساد لأمر المسلمين ، وخطر عظيم على المجتمع الإسلامي كله ، وإذا كان رجل

كأبى بكر لا يغار على الدين ، ويضرب المثل الأعلى في الغيرة عليه وعلى المسلمين فن ذا الذى يغار عليه يبعده ؟

جاء المرتدون إلى أبى بكر يزعمون له أنهم مسلمون يقاومون العمل بأركان الدين ولكنهم يرفضون منها ركناً واحداً فقط ، هو الزكاة ، فلم يقبل منهم أبوبكر ذلك ، وقال لهم يومئذ كلمته المشهورة : « والله لو منعوني عقالاً كثمن تزدوني لرسول الله لقاتلتمكم دونه » .

وأبوبكر الصديق بهذا العمل الجليل وال موقف العظيم يعتبر البانى الثاني للدعوة الإسلامية بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه . فقد ظهرت هذه الدعوة على يد أبى بكر ، وفي موقفه هذا ، وكأنها تبنى من جديد بعد إذ عرضها المرتدون ل بكل هذا الخطر .

وتمادى المرتدون في غرورهم ، وطفقوا يرددون بينهم قول قائلهم :

أطعنا رسول الله ما دام بيتنا في العباد الله ما لأبى بكر ؟

ولكن أبى بكر لم يبال بهم ، ولم يتأثر بدعائهم وأقوالهم ، ونظر إلى حركتهم على أنها امتحان له ولقدرته على تسيير الأمور ، وامتحان الدعوة الإسلامية ذاتها ، ولقدرتهم على البقاء بين العرب المسلمين ، وكيف لا تكون الردة امتحاناً للإسلام بهذا المعنى ؟ وقد كشفت عن زيف الزائرين ، وريب المرتدين . وبفضل أبى بكر وغفلة على هذه الحركة الخبيثة عاد الإسلام قوياً كما كان في عهد الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وقف أبى بكر من هذه الحركة موقف العزم والشدة وذلك على خلاف طبيعته التي تميل — كما قلنا — إلى اللذين والرفق والرحمة ، وكان في ذلك مخالفًا لمشورة عمر الذى أشار عليه بالسكتوت عن هذه الحركة ، وكان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ، كيف تقاتلهم ، وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموها مني دماءهم ونقوصهم إلا بعثتها » .

فكان أبو بكر يجيب على ذلك بقوله :

وَوَاللَّهِ لَا فَاقْتَلُنَّ مِنْ فَرْقَ بَيْنِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ۝ .

ثم صاح لصاحبه قائلاً :

وَيَا بْنَ الْخَطَّابَ، رَجُوتُ نِصْرَتَكَ وَجِئْنِي بِخَذْلَانِكَ؟ أَجْيَارُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَخَوَارِفِ الْإِسْلَامِ؟ إِنَّهُ انْقَطَلَ الْوَحْيُ، وَتَمَ الدِّينُ.. أَوْ يَنْقُصُ وَأَنْاحِي؟ ۝

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَوَادِثُ كُلُّهَا شَاهِدَةً عَلَى صَدْقَ أَبِي بَكْرٍ فِيهَا رَأَاهُ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ

مِنْ مِحَارَبَةِ أَهْلِ الرَّدَّةِ، وَعَرَفَ ذَلِكَ عُمُرٌ وَعَلِمَ أَنَّهُ أَنْخَطَ فِي نَصِيبِهِ

لِأَبِي بَكْرٍ وَاعْتَرَفَ لصاحِبِهِ بِهَذَا الْخَطَّابَ وَقَبْلَ رَأْسِهِ وَأَدْرَكَ حَكْمَتَهِ.

إن الخليفة الأول بهذا العمل الأمثل قد أعطى المسلمين كلهم ،
والمرتدين منهم بتنوع خاص -أعظم شر من تعلموا منه أن الدين كل لا يتجزأ،
 وأن العقيدة يجب أن تكون محترمة من أتباعها من جميع جوانبها ، وأن
الهداون في جانب واحد من هذه الجوانب لا بد أن يؤدى إلى الهداون فيها
جميعاً ، وأن القورة ليست في يد الباطل كما يتمثل في فريق المرتدين عن
الدين ، ولكتها في جانب الحق الذي يتمثل في فريق المسلمين المستمسكين
بهذا الدين .

ذلك إذن هو الوجه الإعلامي لهذه الحادثة الأولى من الحوادث التي
وقعت في خلافة أبي بكر ، وقد سلك أبو بكر فيها مسلسلكاً يدل على القاعدة
التي بني عليها الإعلام الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهذه القاعدة
هي : « بذل الطاعة للرسول بكل دقة وإخلاص وأمانة » :

وهل كان الرسول يقبل من بعض العرب المسلمين أن يكتفوا بالركن
الأول من أركان الإسلام ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول
الله؟ هل كان الرسول يكتفى بهذا الركن الأول من أركان الإسلام عن أحد
الأركان الأخرى كالصلوة - أو الزكاة أو الصيام أو الحجج .. كلام كلام ،
حسبنا ذلك حديثاً عن العمل الأول من الأعمال التي قام بها الخليفة الأول

وهو مقاومة حركة الردة — لنتقل منه إلى العمل الثاني من أعماله رضي الله تعالى عنه وهو : بعثة أسامة بن زيد .

بعثة أسامة بن زيد

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قد أعد جيشاً بقيادة أسامة ابن زيد وأمره أن يستعد للخروج من المدينة والوصول إلى تخوم الروم وذلك لتخريفهم من الإغارة على حدود المسلمين ، ولم يكن النبي قد صدر براء ذلك .

فلما ولى أبو بكر أمر الخلافة عزم على الإبقاء على الجيش ، وعلى تنفيذ المهمة التي مات عنها الرسول ، ولم يهتز إذ ذلك بالاضطرابات التي أعقبت هذا الحادث العظيم وهو وفاة الرسول ، ولم يأخذه الشغب الذي عم الجزيرة العربية بعد هذا الحادث ، وثبت أبو بكر على موقفه من هذا الجيش كما ثبت على موقفه من حركة الردة ، ونحوه المسلمون عرّاقب هذا الشاب على موقفه ، وأنذروه بالخطر على المدينة وعلى الجيش نفسه في تلك الظروف ولكن أبو بكر قال لهم جميعاً :

« والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تحطّفنا والسّابع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لاجهزن جيشاً لـأسامة » :

وجهز أبو بكر هذه البعثة العسكرية ، وخرج ماشياً على قدمه معها وأسامة راكب إلى جانبه ، ومخاطبه المسلمين في ذلك فقال :

« ما على أن أخبر قدمي ساعة في سبيل الله » .

وقال لـأسامة : « اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تنصر في شيء من أمره » .

وشاع في الجزيرة العربية أمر تلك البعثة العسكرية ، وكانت لا تمر بقبيل من الناس يفكرون في الارتداد عن الإسلام إلا استشعروا الخوف

والهيبة وأثروا السكوت والمدحوع وقال بعضهم لبعض ، لوم يكـن المسلمين
على قوـة حـقيقـة لما خـرـجـ من عـنـهـمـ هـؤـلـاءـ ٩٢

وـعـادـ جـيـشـ أـسـاـمـةـ منـ تـخـوـمـ الرـوـمـ بـأـسـلـابـ وـغـنـائـمـ كـثـيرـةـ : وـلـمـ يـنـقـضـ
عـلـيـهـ وـعـلـىـ بـعـثـتـهـ أـكـثـرـ مـنـ شـهـرـيـنـ ، وـلـمـ يـقـتـلـ مـنـ جـيـشـ الـمـسـلـمـيـنـ أـخـدـ ،
وـإـنـ جـيـشـاـ يـذـهـبـ إـلـىـ تـخـوـمـ الرـوـمـ ثـمـ يـعـودـ غـيرـ مـسـحـوقـ مـنـ الـأـعـدـاءـ كـيـفـ
تـهـزـأـ بـهـ قـبـالـ الـعـرـبـ الـهـائـمـةـ فـيـ الصـحـرـاءـ ؟ وـكـيـفـ تـخـتـيـ لـدـائـلـ ذـلـكـ عـلـىـ
حـمـلـةـ الـأـخـبـارـ وـالـقـادـرـيـنـ مـنـهـمـ عـلـىـ اـسـتـبـاطـ مـوـاطـنـ الـقـوـةـ وـالـضـعـفـ فـيـ كـلـ مـنـ
الـمـسـلـمـيـنـ وـالـمـرـتـدـيـنـ عـلـىـ السـوـاءـ .

يـخـيـلـ إـلـىـ الـبـاحـثـ أـنـ الـغـرـضـ الـأـسـاسـيـ هـذـهـ الـبـعـثـةـ مـنـذـ أـنـ فـكـرـ فـيـهاـ
الـرـسـوـلـ وـمـنـذـ أـنـ صـسـمـ عـلـيـهـ أـبـوـ يـكـرـ كـانـ هـوـ الـحـربـ الـفـنـسـيـةـ قـبـلـ
كـلـ شـيـءـ ، فـلـقـدـ أـرـادـ الرـسـوـلـ كـمـ أـرـادـ خـلـيـفـهـ أـبـوـ يـكـرـ أـنـ يـبـقـيـ الـرـعـبـ فـيـ
فـيـ نـفـوسـ الـمـوـالـيـنـ لـلـرـوـمـ ، وـفـيـ نـفـوسـ الـقـبـائـلـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ لـمـ تـزـلـ تـرـىـ
هـاـ مـنـ الـقـوـةـ وـالـمـنـعـةـ وـالـعـزـةـ مـاـ يـجـعـلـهـاـ تـرـبـصـ الـدـوـائـرـ بـهـذـاـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ ،
وـتـعـلـوـ بـنـفـسـهـاـ عـنـ الـخـصـوـصـ الـأـحـكـامـ .

أـجـلـ — كـانـتـ بـعـثـةـ أـسـاـمـةـ بـعـثـةـ تـأـديـبـيـةـ قـصـدـهـاـ رـدـعـ الـقـبـائـلـ الـتـيـ مـرـ بـهاـ
فـيـ الطـرـيـقـ مـنـ الـحـمـازـإـلـىـ الشـامـ ، كـمـ قـصـدـهـاـ تـأـمـيـنـ هـذـاـ الطـرـيـقـ وـتـوـطـيـدـ
هـيـةـ الـإـسـلـامـ ، وـكـانـ هـذـاـ كـامـهـ مـنـ أـبـيـ يـكـرـ إـعـلـامـاـ لـلـقـبـائـلـ الـعـرـبـيـةـ أـنـ هـنـاكـ
حـكـوـمـةـ قـوـيـةـ أـخـذـتـ الـأـمـرـ عـدـتـهـ وـفـيـ اـسـتـطـاعـتـهـ أـنـ تـؤـدـبـ الـمـرـتـدـيـنـ ، وـأـنـ
تـقـفـ الـعـبـثـ بـالـدـيـنـ ، وـأـنـ تـقـضـىـ عـلـىـ هـذـاـ الـحـطـرـ الـجـسـيـمـ .

وـالـآنـ لـتـنـتـقـلـ إـلـىـ الـعـمـلـ الـثـالـثـ مـنـ الـأـعـمـالـ الـجـيـدةـ الـتـيـ قـامـ بـهـاـ الـخـلـيـفـةـ
الـأـوـلـ وـهـذـاـ الـعـمـلـ هـوـ :

الـبـعـثـ إـلـىـ الـعـرـاقـ وـالـشـامـ

كـمـ تـبـهـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ إـلـىـ أـنـهـ مـسـتـولـ عـلـىـ أـمـرـيـنـ فـيـ
وـقـتـ وـاحـدـ هـذـاـ :

- ١ - تأمين الإسلام في الداخل .
- ٢ - وتأمين الإسلام في الخارج .

فكذلك تباه خليفة الأول هذين الأمرين مما : وتم له الأمر الأول عن طريق حروب الردة وتجاهده في تأديب المارقين حتى رجعوا إلى حظيرة الدين .

وتم له الأمر الثاني عن طريق البعوث التي بعث بها إلى العراق والشام ، ليس ذلك يقصد التوسيع في الفتح ، أو الجلاء والسلطنة ، ولسken هدف واحد فقط هو المدف الذي كان يقصد إليه رسول الله ﷺ وهو نشر هذا الدين وتنبيه قواعد المسلمين .

وبذلك ألزم أبو بكر سياسة رسول الله ﷺ الخارجية وسياسته الداخلية وسياسته الإعلامية وهي السياسة التي سار عليها رسول الله في بعثة (تبوك) ثم في بعثة (أسامة بن زيد) فقد بعث النبي ﷺ بهاتين البعثتين ، وأعد بنفسه هذين الجيшиين - لا للتعدي على بلاد الغير ، ولكن للدفع الأذى ، وحماية الطريق : ولنشر الدين .

في غزوة تبوك على عهد رسول الله ﷺ عاد الجيش الإسلامي بعد أن انصرف جيش الروم عن الحدود ولم يعد إليه في تلك السنة ، وقد كانت دولة الروم ترسل البعوث من حين إلى حين إلى تخوم الجزيرة العربية ، وكان على المسلمين أن يقابلوا هذا العمل بعده دائمًا ولو لا ذلك لعانت القبائل العربية التي دخلت الإسلام في فزع دائم وخوف لا ينقطع .

وعلى ذلك فقد كانت للبعثة الحرية في عهد رسول الله ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين أهداف إعلامية لابد منها ، وتنحصر هذه الأهداف في تغريب دولة الروم وتخويف القبائل الموالية من جهة ، ثم المسلمين الذين يجب أن يعلموا أن للإسلام قوة تستطيع أن تضرب قوة الدولة الرومانية .

وعلى هذا التحول سار أبو بكر مع التحوم الفارسية ، ولنفس هذه

الغاية فرض على نفسه غزو فارس ، فقد كانت القبائل الموالية لفارس تواطىء غاراتها على أراضي المسلمين ، وكان على المسلمين أن يدفعوا هذه الغارات بمنتهى القوة ، وكان القائد الإسلامي لهذه الأعمال الخيرية الأخيرة هو (الشافعى بن حارثة الشيبانى) ، ثم ما لبث هذه الغارات والرد عليها أن انقلبت إلى حرب ضروس دارت بين العرب والفرس ، وكان القائد الإسلامي في هذه الحرب هو (خالد بن الوليد) الذى بعث به أبو بكر لنجدته الشافعى بن حارثة . وأمره إذ ذاك أن يتألف أهل فارس ويتوحد إلى الإمارة العربية الموالية لها — وهي إمارة الخير ، وفعل خالد بن الوليد كل ذلك .

ويكمل هذه البعثة التي ملأت خلافة أبي بكر علمنا العرب أن الإسلام لا يموت بموت صاحب الرسالة والقائم بالدعوة ، ونعني به محدثاً صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا الدين متين يقوم على مبادئ قوية أو لها مبدأ التوحيد . وأن هذا الدين فوق مثانته قد تربى عليه رجال قادرون على صيانته من كل سوء ما داموا يسيرون على هذه القاعدة ، وهي الطاعة لله ورسوله .

معنى ذلك كله أن هذه المعلومات السابقة وجهين متكملين :
الوجه التاريخي والوجه الإعلامي — ونحن حين نتعرض بعض الشيء للوجه الأول لا تزيد بذلك إلا للتعرض للوجه الآخر .

* * *

وننتقل إلى العمل الرابع والأخير من أعمال أبي بكر ، وهو :
جمع القرآن الكريم

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين ، وبه يتقييد الخليفة المسلم ، وعليه تسير الأمة الإسلامية في كل عصر من عصورها ، ومن ثم كان العمل على جمع القرآن الكريم من أعظم الأعمال الإعلامية التي يقوم بها الخليفة الأول أبو بكر وما في ذلك شئ .

ثم إن القرآن في ذاته — كما سبق أن أوضحنا ذلك في الباب الأول (م ١٤ — الإعلام في مقدمة الإسلام)

من أبواب هذا الكتاب — هو أقوى وسائل الإعلام في الإسلام وهو أضخم هذه الوسائل وأضمنها وأثبتها وأصدقها ، وبعدها تأتي الوسائل الإعلامية الأخرى ، ابتداءً من الحديث الشريف أو السنة النبوية إلى الفتاوا والبعثة الإسلامية التي بدأها النبي ﷺ واستمر فيها الخلفاء الراشدون من بعده .

ومن هنا كانت حركة جمع القرآن الكريم حركة إعلامية قوية التأثير في حياة المسلمين ، وكان لأيدٍ لها أن تم على يد الخليفة الأول . وكان على هذا الخليفة أن يضرب المثل الأعلى والقدوة الحسنة في هذا المشروع العظيم بحيث لا أهمله — رضي الله عنه — لسكان القرآن نفسه عرضة للضياع والتحريف .

وقد مات من مات من حفظة القرآن السكريّم ، وذلك في حرب الردة ، فأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن السكريّم ، فانشرح صدر أبي بكر لهذه الفكرة الطيبة ولم تنته خلافته القصيرة المدى إلا والقرآن السكريّم بمجموع من الصدور ومكتوب على نحو سليم ، لم يضع منه حرف ، ولم تسقط منه سورة ، ولم ينله شيء من التحرير أو التغيير أو التبديل ، وصدق الله تعالى إذ يقول :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

(والخلاصة) أنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب (الدعوة) الأولى ، وقد سلك من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة ، فإن أبي بكر هو صاحب (الدعوة) الثانية — إن صاحب هذا التعبير — وقد سلك في خلافته القصيرة المدى من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة .

وتجدر بالتنويه أن نلاحظ أن أبي بكر كانت له حاسة إعلامية دقيقة لا سيل إلى إنسكارها .

وبهذه الحاسة حضر في الوقت المناسب (يوم السقيفة) واشترك مع زعماء المهاجرين والأنصار في هذه المعركة .

وبهذه الحاسة أدرك خطورة الموقف الذي خلفته حركة الردة ،
وأنفرد بالرأي الذي لم يوافقه فيه أحد ، وهو تصميمه على مكافحة
هذه المحرّكة .

ثم بهذه الحاسة وضع لنفسه قاعدة سياسية وإعلامية لم يحد عنها ،
وهي السياسة التي قامت على إطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم
واحتذائه في كل حركاته وسكناته ، والقيام بجميع الأعمال التي تضمن
صيانته العقيدة الجديدة ، لا يحيط عنها كذلك .

ولو أن أبو بكر تخلف عن هذه المعركة الانتهائية يوم السقيفة ،
ولو أنه ظهر للناس يومذاك بأنه من طلاب الملك أو الجاه أو الدنيا ،
ولو أنه استمع إلى مشورة أصحابه في الإغضاء عن حركة الردة ،
ولو أنه قصر في البعثة العسكرية ، ولو أنه أهمل جمع القرآن
السكريّم لأنّه أصبحت خلافته فارغة من الأعمال التي يعنى بها الإسلام ،
والإسلام وحده .

فلهذه الحاسة الإعلامية والعقيدة الإسلامية التي تُبَرِّزُ بها أبو بكر
الصديق رضي الله تعالى عنه عن المسلمين كافة يرجع الفضل في بقاء الدين
وحفظ تراث رسول الله ﷺ .

الفصل الثاني الإعلام في عهد الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب

إذا كان التاريخ قد نظر إلى أبي بكر على أنه الباف للدعوة الإعلامية بعد رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يائياً الأول ، فإن التاريخ قد نظر إلى عمر بن الخطاب على أنه المؤسس الأول للدولة الإسلامية ، لأن الإسلام قبله لم تنشأ له دولة بالمعنى الصحيح « هذه الكلمة » وقد استحق عمر بن الخطاب هذه الصفة لاعتبارات منها :

أولاً : أنه أول من دون الدوافين ، ومن ذلك أنه أنشأ ديوان القضاء ، وديوان الإحصاء ، وديوان الخراج ، وديوان البريد ، وديوان بيت المال ، وديوان التغور .

ولم يكتف عمر بذلك حتى رأيَناه ينشئ داراً لسلك النقود ، وداراً للحبس يعاقب فيها المذنبين ، وداراً تسمى « بيت الدقيق » ، وهو ما يقابل عندنا في الوقت الحاضر « الأوقاف الخيرية » وعمله إغاثة الجياع الذين لا يجدون طعاماً لهم « ومن الأوقاف الخيرية » التي تتبع هذا البيت أرض يخير اختارها عمر في عهد الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد أشار عليه يومئذ يحيى وحفظها من أن تباع أو توهب أو تورث ، ولكن تصريح موقوفة على مصالح الفقراء من المسلمين .

ومن أجل ذلك نظر التاريخ إلى عمر بن الخطاب على أنه أول مؤسس للدولة الإسلامية — كما قلنا — وذلك فضلاً عن كونه المؤسس الثالث للدعوة الإسلامية بعد النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد أبي بكر الصديق الخليفة الأول .

ثم من أجل ذلك قال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلماته المشهورة في عمر بن

الخطاب : لم أر عقريباً يفرى فريه (١) ، والكلمة جزء من رؤيا رآها رسول الله ﷺ نفسه .

قال عليه الصلاة والسلام :

رأيت في المنام أنني أنزع بدلو بكرة على قليب (أبي بشر) . فجاء أبو بكر فنزع ذنوبياً (فتح الذال أدى دلوا) . وذنوبي نزعها ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحال غرباً (٢) — ولم أر عقريباً يفرى فريه ، (أبي ينزع قبله) حتى روى الناس وضرروا بعطن (٣) :

الحق — لقد كانت هذه الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ خير معبّر عن الحجود التي بانها الشیخان من بعده ، فأما أبوه — وهو أبو بكر — فقد كانت خلافته قصيرة العمر لم تدم أكثر من ثلاث سنوات أفقها كلها في محاربة أهل الردة ، والدفاع عن الحجود الإسلامية . وأما الثاني — فإنه قام ببناء الدولة الإسلامية . وكان ذلك يتلذّذون الدوّادين من جهة ، وبالفتح الكثيرة من جهة ثانية .

ولم يكن الباعث على هذه الفتوح العبرية رغبة في السلطان والصوابحان ، أو شهوة إلى التوسيع والغلوة ، وإنما كان الباعث إليها هو نفس الدافع الذي دفع رسول الله ﷺ وال الخليفة الأول ، وعني به تأمين حدود الإسلام من عدويه الكبارين : الروم من جهة ، والفرس من جهة ثانية .

وبوازع من هذه البواعث ، وبتقدير من عمر بن الخطاب لهذه المسؤولية أقدم على فتح مصر ، وفتح بلاد المقدس ، وفتح فارس — وجاء هذا الفتح الأخير على كره منه ، لالشيء إلا أنه يكره الحرب لأنها حرب ، ويبغض السلام لأنه دم ، وفي ذلك يقول عمر : « إن رجلاً واحداً من

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .

(٢) الترب (يسكون الراء) : المال . — ومن معانيه كثرة المال وحسن المال ، وجريان الفرس بسرعة (القادوس الخريط) .

(٣) العطن (فتح العين والطاء) مربط الإبل حول الماء .

ال المسلمين أححب إلى من مائة ألف دينار » ومعنى ذلك أنه يضمن برجل واحد من المسلمين أن يموت في الحرب .

ومن أقواله كذلك :

« وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار فلا يصلون إلينا ولا يصلون إليهم » وليست هناك ألفاظ يعبر بها قائد من القواد عن كراهيته لسفالة الدماء أقوى وألين من هذه الألفاظ التي نطق بها عمر .

عمر والسياسة الإعلامية

سبق أن أكدنا هذا المعنى وقلنا إننا حين نسأل عن نظام الحكم في أمة من الأمم فقد سألنا في الوقت نفسه عن نظام الإعلام في هذه الأمة، ذلك أن نظام الإعلام في جميع الظروف والأحوال مرتبطة أشد الارتباط بنظام الحكم وظروف الحكم ، وإذا كان نظام الحكومة الإسلامية في عهد الخليفة الراشدين قائماً على العقيدة التي تأمر بطاعة الله ورسوله فإن نظام الإسلام في عهد الخليفة الراشدين ينبغي أن يبني كذلك على نفس العقيدة .

من أجل ذلك لم يكن غريباً أن يبدأ عمر بن الخطاب مخالفة بكلمة يعلن فيها عن منهجه في الحكم يقول فيها :

أيها الناس : أطيعوني ما أطعت فيكم الله ورسوله . فإن عصيتموا فلا طاعة لي عليكم » .

وعلى هذا الأساس يصبح أن ننظر في أعمال عمر بن الخطاب فنرى أن سياسته الإعلامية تظهر بوضوح فيما يلي :

أولاً - في الفتوح :

وقد فرغنا من الكلام عن هذه الناحية وقلنا إن عمر بن الخطاب كان فيها مقيداً بسياسة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وأبي بكر الصديق، ولم يكن ينظر وراء ذلك .

ثانياً - سياسة عمر مع كبار الصحابة :

وهم كبار رجال الدين والعقيدة ، وهم أفهم الناس بخواص الإسلام والأهداف القرآنية والبعيدة ، وكلمة واحدة يقوها أحدهم تحدث أثراً قوياً في نفوس المسلمين الخاصة منهم وال العامة ، وعمل طيب يصدر من أحدهم يصبح مثلاً أعلى يحتذى به ، وقدوة حسنة للمسلمين جمياً .

من أجل ذلك وضع عمر لنفسه سياسة خططة حكيمية في معاملة كبار الصحابة ، وتنبع هذه الخططة في الاحتفاظ بهم جميعاً إلى جانبيه في المدينة وجعل عمر من كبار الصحابة شيئاً يشبه « مجلس الشرى » يرجع إليهم في كل أمر من أموره ، ويستمع إلى آرائهم في كل مشكلة من مشكلاته ، ويعرض عليهم كل تصرف من تصرفاته ، فإذا كان هذا التصرف موافقاً للدين والرسول والعقيدة مضى فيه ، وإلا عدل عنه عدولًا تاماً .

وكان من خططة عمر ألا يأخذ من هؤلاء الصحابة يترك المدينة والسفر إلى الأمصار والأقاليم والإقامة فيها ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك خوفاً عليهم من شرور هذه الأمصار ، وفتنة الجاه والمآل ، وهي فتنة لا بد أن يتعرضوا لها بحكم المناصب الكبيرة التي يملونها ، والخضوع الذي يظهره الناس لهم من الناحتين الدينية والسياسية ، والصحابة بشر ، وقد تحدثهم نفوسهم البشرية بأمر تفسد عليهم دينهم ، وتقلل عندهم من سلطان العقيدة ، وتحدث خللاً في سياسة عمر .

والحق - لقد كان عمر رشيداً في هذه السياسة التي رسمها لـ كبار الصحابة ، وسيأتي الحديث عن الخليفة الثالث - عثمان بن عفان رضي الله عنه - وسنجد أنه خرج على هذه السياسة ، وأنه سمح لـ كبار الصحابة بالخروج إلى الأمصار .

فجئ من وراء ذلك ضررين كبارين :

أولهما - حرمانه من مشورة الصحابة .

وثانيها — حدوث الفتنة الكبرى على النحو الذي سنشرحه فيما بعد .

قال عمر لابن عباس وهو رجل من كبار الصحابة :

إني رأيت رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمل الناس وترككم والله ما أدرى أصرفكم عن العمل ؟ أو رفعكم عنه ؟ وأنتم أهل ذلك ؟ أم تخشى رسول الله أن تعاونوا ل McKansكم منه ، فليرجع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب .
ومنها قاله عمر أيضاً :

« إن قريشاً ي يريدون أن يتخليوا مال الله معاونة على ما في أنفسهم ، إلا أن في قريش من يضرم الفرقة ويروم خلط الربيقة ، أما وابن الخطاب حتى فلا ، إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشارهم في البلاد » .

لا ريب أن هذه السياسة التي اخْتَطَّها عمر لنفسه تجاه كبار الصحابة لا يكفي دليلاً على « الحاسة الإعلامية » الدقيقة التي انفرد بها هذا الخليفة وهي الحاسة التي قلنا إن الخليفة الثالث عثمان بن عفان كان يفتقدها في نفسه ، ولو وجدت عنده لتغير وجه التاريخ الإسلامي في زمانه ، ولما حدثت الفتنة الكبرى — كما سنشرح ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

ثالثاً — العسس :

لم يكن التاريخ البشري يعرف رجلاً بلغ في الشعور بمسؤولية الحاكم بعض ما بلغه عمر بن الخطاب من الشعور بهذه المسؤولية ، كان قلبه مشغولاً على الدوام بأمور الرعية ، وبلغ من حرصه على ذلك أن قال كلمته المشهورة : « لو عثرت بغلة في العراق لرأيتها مستولاً عنها » كما بلغ من حرصه على رصيده أن ابتدع نظام « العسس » ، وهو السير بالليل للوقوف على أحوال الرعية .

ويحكي لنا التاريخ أنه كان يتجول في ليلة من الليالي في أنحاء المدينة فسمع من وراء الجدران صوت امرأة تبكي ، فدخل دارها فوجدها أمام قدر من الماء فيه حصى تعلل به أولادها حتى يغلبهم النوم ، ورأى عمر بنفسه هذا المنظر المؤلم وصاح في نفسه قائلاً : لبت أم عمر لم تلسد عمر .

وليت عمر لم يلث من البشر ، ثم عاد مسرعاً إلى بيته وأمر زوجته أن تحمل
قدراً من السمن ، وحمل هو على كتفه قدرأ من الدقيق ، وصنع بنفسه
طعاماً لهزلاه الأطفال الجائع ، وأيقظهم وأكلوا وناموا .

وبحكمي لنا التاريخ كذلك عن عمر أنه سار في ليلة ما حتى وصل إلى
بيت كانت فيه امرأة تغنى بصوت مرتفع تقول :

هل من سبيل إلى خير فأشربها أو من سبيل إلى عمر وبن سيار
وفي اليوم التالي سأله عن عمر وبن سيار هذا فوجده شاباً له شعر طويل ،
وله بهذا الشعر الجميل عنابة تامة ، ومن ثم أصبح فتنة النساء المدينة ، فأمر
بأن يقص شعره .

ويطول بنا القول إن أردنا أن نتتبع أخبار عمر من هذه الناحية .
معنى ذلك أن عمر كان يحصل على أخبار الرعية بنفسه ، وكان يقترب
على أحوالها بنفسه . ويقوم بإصلاح الخلل في الأحوال ، كما يعهد إلى
تقويم المعوج في الأخلاق ، وكان يرى أنه المسؤول الأول عن كل ذلك .
والحديث عن تقدير عمر للبعة الملقاة على عاته يجرنا إلى الحديث
عن بعض نوادره في الحرب فقد قيل أنه كان يملك في نفسه قدرة عجيبة
على المكاشفة *Telebachy* .

كان عمر يخطب بالمدينة خطبة الجمعة ، فرأاه الناس وهو يقطع كلامه
على حين غرة وينادى بأعلى صوته قائلاً : ياسارية بن حصن .. الجبل ،
الجبل . فلم يفهم الحاضرون ماذا أراد بهذه الكلمات التي قطع بها الخطبة ،
ثم عاد عمر يتم خطبته ، وصل بالناس الجمعة . وبعد أن فرغ من الصلاة
سأله على بن أبي طالب : ما هذا الذي ناديت به . فقال عمر : أو سمعته مني ؟
قال : نعم أنا وكل من في المسجد . فقال عمر ، وقع في نفسي أن المشركين
هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأئمهم يمرون بجبل ، فإن عسلوا إليه
قاتلوا من وجدوه وظفروا بعذوبهم ، وإن جاؤ زوجه هلكوا . فخرج مني
هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر من خطبة عمر فذكر أنهم سمعوا في ذلك اليوم وفي تلك الساعة حتى جاؤوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر وهو يقول، « يا سارية بن حصن، الجبل . . . الجبل » فعدلنا إلى هنا ، ففتح الله علينا . في تصورى كذلك أن القارىء الحديث يعجب كل العجب كيف كانت المكافحة وسيلة من وسائل الإعلام قد مارسها عمر رضى الله عنه .

ثالثاً - الرسائل :

كانت الرسالة من أقوى وسائل الإعلام في عهد عمر بن الخطاب ، وقد حفظ لنا التاريخ طائفة صالحة من الرسائل التي بعث بها عمر إلى قواده في الحرب تارة ، وإلى عماله في الأقاليم تارة أخرى ، ولدى القضاة الذين كان يبعث بهم إلى الأمصار تارة ثالثة .

وكان عمر لا يدع لقاده من قواده أن يتحرك من مكان إلى برأيه ، ولا أن يستبدل خطوة بخطوة إلا بمشورته ، ولم يكن إلا في أحيان قليلة ، بل نادرة يترك لهم حرية الحركة ،

من ذلك أن أبو عبيدة بن الجراح استشاره في دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه عمر يقول :

« أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وأنت بمحضه عدو وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإذا رأيت الدخول إلى الدروب صواباً ، فابعث إليهم السرايا وادخل عليهم بلادهم ، وضيق عليهم مسالكهم وإن طابوا إلىك الصلح فصالحهم » .

وترى قائدك أبو عبيدة حصار حلب ، فكتب إليه عمر يستضعف رأيه ويقول له :

سرني ما علمت من الفتح ، وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى التواحي التي قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأى . أترك رجال ملكك دياره ومدينته ثم ترحل وتسمع أهل التواحي والبلاد إنك مساقدرت عليه ما هذا برأى ، فليراك أن تربح حتى

يُحْكِمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، وَقَدْ أَنْفَلَتْ كِتَابِي هَذَا وَمَعَهُ أَهْلُ مَشَارِفِهِ
الَّذِينَ فَنُوا وَهَبُّنَفْسَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَغَبُ فِي الْجَهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَيَقْعُلُ ، وَهُمْ
عَرَبٌ وَمُوَالٌ وَرِجَالٌ وَفَرَسَانٌ وَالْمَدْدَ يَأْتِيكُمْ مُتَوَالِيًّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ۝ ۝
هَذَا نَمْوذِجٌ مِنْ رِسَالَتِي عَمْرٍ إِلَى الْقَوَادِ يَظْهُرُ مِنْهُمَا أَنْ عَمْرٌ كَانَ
لَا يَغْلِي بِيَدِهِ أَوْ رِجْلِهِ عَنِ الْحَرْكَةِ وَلَكِنْ كَانَ مَعَهُ خَطْلَوَةٌ خَطْلَوَةٌ . . . وَكَانَ
فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَأْمُرُهُ بِالْزَّحْفِ إِنْ رَأَى الْخَيْرَ فِي ذَلِكَ ، وَيَأْمُرُ بِالصَّلْحِ
إِنْ كَانَ طَلْبُ الصَّلْحِ صَادِرًا مِنْ الْعَدُوِّ .

نَمْوذِجٌ مِنْ رِسَالَتِي إِلَى الْقَضَايَا :

عَمْرٌ هُوَ الَّذِي وَضَعَ دَسْتُورَ الْقَضَايَا فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَلِكَ حَقْيَقَةٌ مِنْ
الْحَقَائِقِ الَّتِي لَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُ فِيهَا ، وَالْمَسْتُورُ الَّذِي وَضَعَهُ كَانَ وَلَا يَرَى إِلَّا وَثِيقَةٌ
إِعْلَامِيَّةٌ إِلَى جَانِبِ أَنَّهُ وَثِيقَةٌ قَضَايَيَّةٌ .

كَتَبَ عَمْرٌ إِلَى بَعْضِ الْقَضَايَا فَقَالَ :

إِذَا جَاءَكَ شَيْءٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَاقْضِ بِهِ وَلَا يَلْفَتَنِكَ عَنْهُ الرِّجَالُ . فَإِنْ
جَاءَكَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَمْ تَرِدْ فِيهِ سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ فَانْظُرْ مَا يَجْتَمِعُ
عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَإِنْ جَاءَكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَمْ تَكُنْ فِيهِ سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ،
وَلَمْ يَنْكُلِمْ فِيهِ أَحَدٌ قَبْلَكَ فَاخْتَرْ أَيْ الْأَمْرَيْنِ شَتَّى ؟ إِنْ شَتَّى أَنْ تَجْهِدَ فِي
رَأْيِكَ وَتَتَقْدِيمَ فَتَقْدِيمَ وَإِنْ شَتَّى أَنْ تَأْخُرَ فَتَأْخُرَ وَلَا أَرَى التَّأْخُرَ لَا خَيْرًا
لَكَ ۝ ۝

وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ الصَّغِيرَةُ هِيَ الَّتِي وَضَعَتْ دَسْتُورَ الْقَضَايَا فِي الْإِسْلَامِ ،
وَبِهَا عَلِمَ الْقَضَايَا أَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يُحْكِمُوا بِشَيْءٍ وَجَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَإِمَّا
أَنْ يُحْكِمُوا بِشَيْءٍ وَرَدَ فِي سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ۝ ، وَإِمَّا أَنْ يُحْكِمُوا بِمَا عَلَيْهِ
الْجَمَاعَةُ وَإِمَّا أَنْ يُحْكِمُوا بِطَرِيقَةِ الْاجْتِهَادِ فِي الرَّأْيِ . وَتَلِكَ هِيَ الْمَصَادِرُ
الْأَرْبَعَةُ لِلتَّشْرِيفِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ أَيَّامِ عَمْرٍ بْنِ الْحَطَابِ إِلَى الْيَوْمِ .

وَقَدْ أَشَارَ عَمْرٌ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أَنَّ طَرِيقَةَ الْاجْتِهَادِ أَشَقُ عَلَى الْقَضَايَا مِنْ
الْطَّرِيقِ الْمُتَلَقِّيَّ الْأَوَّلِ ، وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالسَّنَةُ وَالْإِجْمَاعُ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ :

وإن شئت أن تجتهد في رأيك وتقديم فقدم ، وإن شئت أن تتأخر فتأخر
ولا أرى التأخير إلا خيراً لك .

ومن ثم شعر القضاة في الإسلام أن القضاء أمانة ثقيلة ، وكانوا
لذلك يفضلون وظائف التدريس على وظائف القضاء .

وهكذا وضعت هذه الرسالة على القاعدة الإعلامية التي يثني عليها
الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهي العقيدة التي أوجبت على
هذا الحكم أن يبني على طاعة الله ورسوله ، فإن لم يوجد في الكتاب
والسنة شيء خل القضايا المعروضة فلي magma القاضي إلى رأي الجماعة ،
فإن خالقت به جميع هذه المصادر الثلاثة — وقلما تضيق — فله أن
يجهد برأيه .

ولولا أن عمر ممتليء بهذه العقيدة ، ولو لا أنه يملك الحاسة الإعلامية
الدقية ، لما استطاع أن يضع دستوراً للقضاء يمثل هذا اليسر والوضوح
والسهولة .

رابعاً - زيارات عمر الأنصار والأقاليم :

كان من دأب عمر أن يزور الأنصار من آن لآخر ، وقصده من هذه
الزيارات أن يتفقد أحوال المسلمين في هذه الأقاليم ، وأن يلتقي فيها
بالعمال أو الأماء الذين يحكمون باسمه هذه الأقاليم ، وكان كل أمير
من أولئك الأماء يتوقع في كل لحظة من التحيطات زيارة الخليفة له
ليحاسبه على عمله ويجتمع إليه الناس ليبدوا رأيهم في الأمير نفسه ،
ويعرضوا مظالمهم على الخليفة إذا كان عامله قد تراغى في النظر فيها
لأمر أو لآخر .

وكان عمر لا يكتفى بزيارة الأقاليم من وقت لآخر ولكنه كان يدعو
أمراء هذه الأقاليم للحضور إليه بين فترتين أخرى ، وذلك ليتأكد من حسن
سيرتهم مع الرعية ، ويطمئن إلى سير العدالة في تلك الجهات .
والحق — لقد ضرب عمر في هذا المجال أروع المثل ، وكان فيه أسوة

حسنة للحاكم المسلم الذى أخذ نفسه بالعقيدة السليمة الذى تقوم على تقوى الله وحده ، ولا يتسع مثل هذا البحث لإيراد الشواهد على ذلك ، وإن البحث ليفترض أن هذه الشواهد شائعة بين الناس جميعا ، يتحدث بها التاريخ منذ خلافة عمر بن الخطاب إلى اليوم .

ولذلك سننص فيها بعد على أن القدوة الحسنة أكبر وسائل الإعلام في عهد هذا الخليفة الفاروق الذى هو رمز العدل في الإسلام ، وهو في هذه الصفة مقدم على غيره .

والذى لاشك فيه أن عمر بهذه السياسة القضائية كان يخدم الناس في مجال الإعلام خدمة لا تقل عن خدماته لهم في مجال القضاء .

فأى طريقة أقوى من طريقة الزيارات والاتصال بالناس في المدينة وخارج المدينة والتعرف إلى آرائهم في الحكم ، والوقوف على احتياجاتهم والمظالم التي ترفع إلى هؤلاء الحكماء ، وذلك في إثبات أن الخليفة يشعر بتبعته نحو الرعية على هذا الوجه ، وأنه مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل ما يحتاج إليه الرعية .

إن الزيارات مازالت إلى العصر الذى نعيش من أكبر دعائم الإعلام ومازالتنا في العصر الحديث ننظر إلى زيارة الملوك والرؤساء للأقاليم ، أو زياراتهم للبلاد الأجنبية على أنها من أنجح الوسائل الإعلامية . ولكن زيارات عمر بن الخطاب كانت أوسع أهدافا ، وأنبل أغراضها ، وأبعد عن الرياء والظهور ، وأدلى إلى تقوى الله من جميع الزيارات التي نشهدها الآن .

حکى لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب قدم إلى الشام راكبا على حمار ، فتق næاه معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم ، فلما رأاه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة ، فمضى عمر إلى سبيله ولم يرد عليه السلام ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وسأله :

أنت لصاحب الموكب أرى ؟

قال : نعم . قال عمر : مع شدة احتيجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ! قال : نعم . قال عمر : ولم يدخلك ! قال معاوية : لأننا ببلاد كثُر فيها جواسيس العدو ، فإن لم تتحدد العدة والعدد استخف العدو بنا وهجم علينا ، وأما الحجارة فإننا تخاف من البذلة وجرأة الرعية ، وأنا بعد حاملاك ، فإن استئنفه صحتي نقصت ، وإن استزدفني زدت ، وإن استوقفتني وقفت .

قال عمر : مأسأتك عن شيء لا يخرج عنك ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أربيب ، لا أمرك ولا أمرهاك . هكذا كان عمر يلم بعاله من حين لآخر لكي يقف على أعمالم وتصرخاتهم ، ولم يكتف عمر بذلك في سبيل الحصول على المعلومات الصحيحة عن أولئك الأمراء ، بل كان يرصدهم العيون والرقباء مختلطون بالرعية ويتأنى بما ظهر وما تخفى من أعمال أولئك الأمراء ، حتى كان الوالي من كبار الولاية يخشى من أقرب الناس إليه أن يرجع بكل أخباره إلى الخليفة . كما كان عمر يندب لكل عامل من العمال أو أمير من الأمراء وكيلًا خاصاً يجمع شكاوى الناس ومظالمهم ، ويتولى عمر التحقيق في هذه المظالم ومراجعة بنفسه .

نرى - هل عمر يفعل ذلك خوفاً على سلطانه ، أو صيانة لملكه ، أو هماقتة على منصبه الذي وضعه الله فيه . وهو منصب الخلافة ؟ كلام ثم كلام ! بل كان عمر يفعل ذلك بوعز من صبره ، وبدافع من تفواه ، وبشعور حميق بالمسؤولية التي وضعها الناس على كتفه .

ومن أجل ذلك أخذ لنفسه كل هذه الترائق الإعلامية ، وأحسن استخدام هذه الترائق . وكانت الرعية على ثقة من حسن طريته ونبل غرضه في استخدام كل هذه الترائق .

والدليل على ذلك أن عمر كان يخصى أموال الولاية ، ثم يستصفي ما زاد

منها . وذلك كلما فشت فاشية من مال أو إيل أو خيل أو غير ذلك من النعم وكان عمر يسألهما أبا من أين لك هذا؟ وكان عليهم أن يخبروه بعاصدراها وإلا حرمهن منها .

فعل ذلك مع عمرو بن العاص حين كان واليا على مصر ، وضيق عمرو ابن العاص بهذه المخاسبة وكان يقول :

«إن زمانا يحكمنا فيه ابن حنتمة (يريد عمر) لزمان سوء ، الحق - لقد كان عمر نموذجاً فريداً في الحكم لا نعرف له نظيراً في التاريخ الإسلامي كله . وكانت له حاسة لم تكن لحاكم غيره ؛

خامساً - القدوة الحسنة :

لقد أكثروا إلى الآن من إبراد الأمثلة على عدل عمر ورحمة عمر واتساع عقل عمر ، وشجاعة عمر ، ولم نترك أو لم نكدد ترك صفة من الصفات الحسنة في الإسلام حتى وصفناها بها ، وجعلنا منه مثلاً أعمل في هذه الصفات .

ولم نسكن مبالغين في كل ما أوردناه من هذه المحسنات ، وكتب التاريخ نحلاوة بالأمثلة الطيبة على هذا الذي قتلناه ، والبحث الذي بين أيدينا لا يتسع بجزء ، ولو ضيئلاً لهذه الأمثلة .

أفليس معنى ذلك أن عمر بن الخطاب كان قدوة حسنة في قومه؟ بل . وقد سبق لنا القول في أن القدوة الحسنة في ذاتها تعتبر من أقوى وسائل الإعلام ، وعلى القدوة الحسنة بنيت حياة عمر منه دخل الإسلام إلى أن فرغ من الحياة الدنيا .

وإني إذ أحيل القارئ إلى الكتب التاريخية التي امتلأت بحكايات عن عمر بن الخطاب أجدهن مضطراً إلى الإشارة إلى واحدة منها . القارئ أن يضيفها إلى ما سبق من حكايات وأخبار .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب وشكى إليه أمراً حدث من الوالي

عمرو بن العاص ، وخلال صته أن الوالي أجرى خيلاً كعادته ، فأقبلت فرس المصرية ، فحبسها محمد بن عمرو بن العاص وصاح : فرسى ورب الكعبة . ثم اقترب منه صاحبها وعرفه أنها فرسه هو . فغضب محمد بن عمرو بن العاص ووثب على المصري فضربه بالسوط وهو يقول له : خدلاها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصري إلى عمر . فحبسه زماناً . وما زال محبوساً حتى هرب من الحبس ووصل إلى المدينة وقدم على الخليفة ، وأبلغه شكواه . فما كان من عمر إلا أن استقدم إليه عمرو بن العاص ومعه ولده ، فوقفا في مجلس القضاة . فنادى عمر : أين المصري ؟ فأنى المصري فقال له عمر : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين . فضربه المصري حتى ألمنه . ثم قال عمر للمصري : أجلها - أى مر بهذه الدرة - على صلة عمرو ابن العاص . فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه . فقال عمرو بن العاص فرعا : يا أمير المؤمنين لقد استوفيت حق المصري . ثم قال المصري : يا أمير المؤمنين - لقد ضربت من ضربى . فالفت الخليفة إلى عمرو بن العاص . وقال كلامته المشهورة :

« يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاهم أحرازاً ؟ » .
ترى هل تحفظ كتب التاريخ البشري مثلاً واحداً كهذا المثل . وهل
تستطيع أن تنسى مثله لحاكم أو ملك ؟ أظن لا .

بهذه الطريقة نستطيع أن نستوعب جميع التراث الإعلامية التي استعملها بها عمر بن الخطاب في خلافته . فنجده منها كذلك : الخطب وهي كثيرة ، منها خطبه في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج ، ومنها أحاديثه للقادة والعمال والقضاة بصرف النظر عن الرسائل التي يبعث بها إلى كل واحد من هؤلاء . أما الشعر فلم يجد له صدراً رجباً عند عمر ، ويظهر أنه لم يعتمد عليه كثيراً ولا قليلاً في الدعاية السياسية التي اتبهجه ، وهي السياسة التي بنيت على العدل وعلى الحق ، وقل أن تحتاج مثل هذه السياسة إلى وسيلة من وسائل الدعاية ، وذلك لأنها سياسة تعان عن نفسها بنفسها وتحمي نفسها

بأنفسها ، و تستطيع أن تغلب بقوتها على كل سياسة غيرها لا يكون لها من الحق ومن العدل كل هذا القدر الذي اشتملت عليه سياسة عمر .

يقول الأستاذ العقاد في كتابه (عصرية عمر) :

« وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر تحريم الديين وبعض المحرمات أو بعض المحرقى فسفن على يقين أنه قد صدر في ذلك جمبيعاً عن حكمة توجها سياسة الدولة ، ويقرها العقل والعرف . كما يقرها الدين والكتاب . ولم يصدر قط عن مقصود ، أو عن رغبة في حرمان الديين حرية يستحقونها ، أو حقاً هم أحراز فيه » .

فأمام نهيه عن تشبه الديين بال المسلمين ، أو كراحته أن يبدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الديين يودون التشبه بال المسلمين في الزى والشارقة . أكانوا يتشبهون بهم حجاً للديين فهم إذن مسلموون لا يمنعهم مانع أن يجروا بالاسلام ؟ أم يتشبهون بال المسلمين كيداً لهم ورغبة في التسلل بينهم والإفلات من عهودهم ؟ ، وبخاصة في الزمان الذي كان المسلمين فيه جمبيعاً في حكم الجنود وما من دولة ترضى أن تبيع أزياء جنودها لمن تشاء .

وأما إخراج بعض الديين من الجزيرة العربية فما خرج أحد إلا وقد خدر بذاته وكرر الغدر مرة بعد المرة . كما صنع أهل تخبر ، ومنهم من أجل عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه للعهد . كما فعل أهل نجران عندما تعاهدوا على منع سرية ثم عادوا إليها .

ولما قال له التجار من أهل (منج) .

دعنا ندخل أرضك وتعشرنا (أى ندفع لك العشور) شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبوهم فدعاهم إليه .

وهذه الأخبار التي رويت في سيرة عمر تدلنا على أشياء كثيرة من أهمها في نظرنا أن عمر كانت له حاسة إعلامية دقيقة . وأنه صدر عن هذه هذه الحاسة في كثير من أفعاله وآرائه .

وَمَا يَدْلِنَا عَلَى هَذِهِ الْحَاسَةِ كُلَّكُثْ أَنْ عُمَرَ سَأَلَ ابْنَتَهُ يَوْمًا وَقَالَ لَهُ:
كَمْ تَتَحَمِلُنِي أَنْ يَغْيِبَ عَنِكَ زَوْجُكَ فِي الْحَرْبِ؟ فَخَجَلَتِ ابْنَتُهُ حَجَلًا
شَدِيدًا وَوَجَدَتِ حَرْجًا كَبِيرًا فِي الْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ. فَأَلْجَعَ عَلَيْهَا عُمَرُ وَهَرَبَتِ
وَحْلَرَهَا أَنْ تَسْكُنَ عَنِ الْإِجَابَةِ. فَقَالَتِ ابْنَتُهُ فِي حَيَاتِهِ شَدِيدٍ: ثَلَاثَةُ شَهُورٍ
ثُمَّ اخْتَفَتِ مِنْ حَضْرَتِهِ.

إِذْ ذَاكَ أَصْدَرَ عُمَرُ أَمْرَهُ إِلَى أُمَّرَاءِ الْجَيْوِشِ بِالْأَلْأَيَّافِيَّةِ أَنْ يَغْيِبَ أَحَدُهُمْ مِنْ جَنُودِ
الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَيْتِهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْمُدَّةِ.

هَكُذَا أَجْرَى عُمَرُ نُوْعًا مِنْ اسْتَهْمَاءِ الْأَرْجَاعِ أَوْ اسْتِطْلَاعِهِ بِطَرِيقَةِ
سَلْيَمَةٍ قَبْلَ أَنْ يَصُدِّرَ أَمْرَهُ لِلْجَنَدِ.

وَالغَرِيبُ أَنَّ هَذِهِ الْطَّرِيقَةَ الْبَيْسِيَّةَ أَنْجَدَتِ تَنْطِلُورَ فِيهَا بَعْدَ شَيْئًا فَهَيْئًا
حَتَّى أَصْبَحَتِ طَرِيقَةً مَعْقُودَةً. وَهِيَ الْطَّرِيقَةُ الْمُتَبَعَّةُ فِي وَقْتِنَا هَذَا لِقِيَاسِ الرَّأْيِ
الْعَامِ فِي كُلِّ مِنْ أَمْرِيَّكَا وَأُورُبِيَا. كَمَا نَرَى ذَلِكَ فِي مَعْهُدِ (جَالَوبُ)
الْأَمْرِيَّكِيِّ، وَمَعْهُدِ (قِيَاسِ الرَّأْيِ الْعَامِ) الْفَرَنْسِيِّ، وَالْمُعْرُوفُ أَنَّ الْعَلَاقَاتِ
الْعَامَةِ تَقْوِيمُ عَلَى شَقَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًَا، أَوْهُمَا: الرَّأْيُ الْعَامُ، وَثَانِيهِمَا: الْإِعْلَامُ،
وَقَدْ رَأَيْنَا فِي فَصْلٍ مِنْ فَصُولِ الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ
بِعَنْوَانِ (الْعَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ) كَيْفَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْذَ عَهْدِ الرَّسُولِ كَانُوا
يَدْرُكُونَهَا إِدْرَاكًا سَلِيمًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِعْلَامِيَّةِ الْمُخَاصَّةِ، وَكَيْفَ أَفَادُوا
مِنْهَا فَائِدَةً جَلِيلَةً فِي نَسْرِ الدِّعْوَةِ إِسْلَامِيَّةٍ مِنْ جَهَةِ، وَفِي سِيَاسَةِ الْأَمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ جَهَةِ أُخْرَى.

لَقَدْ كَانَ يَسْعُ عُمَرُ أَنْ يَسْأَلَ عَدْدًا كَبِيرًا مِنْ الْجَنُودِ وَزَوْجَاتِ الْجَنُودِ
سُؤَالًا مَثْلَ هَذَا، وَلَكِنَّهُ بَدَأَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ أَوْلًا، وَاسْتَغْنَى بِذَلِكَ عَنْ سُؤَالِ الْجَنُودِ
أَوْ زَوْجَاتِ الْجَنُودِ خَارِجِ بَيْتِهِ وَأَسْرَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَهُ بِهَذِهِ الْطَّرِيقَةِ سَارَ
عَلَى أَحَدَثِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الْعَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ هَذِهِ
الْعَلَاقَاتِ إِنَّمَا تَبْدَأُ مِنَ الدِّاخِلِ ثُمَّ تَتَعَدَّ إِلَى خَارِجِ بَعْدَ ذَلِكَ،

مَرَةً أُخْرَى أُخْبِلُ الْقَارِئَ إِلَى الْفَصْلِ الْمُخَاصِّ بِالْعَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ
بِإِسْتِدَارِ كَرِ بَعْضِ الْحَقَائِقِ الَّتِي أَسْتَعْدَنَا إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عُمَرِ.

الفصل الثالث

الدعـاـية والإـعـلـام فـي عـهـد الـخـلـيـفة الـثـالـث

عـمـانـبـنـعـفـان

افتـرـنـ عـهـدـ عـمـانـبـنـعـفـانـ عـمـاسـيـ فـيـ التـارـيـخـ الـاسـلـامـيـ (ـبـالـفـتـنـةـ الـكـبـرـىـ)ـ وـهـيـ الـفـتـنـةـ الـىـ اـنـتـ بـقـتـلـهـ ،ـ وـمـنـ غـيرـ الـمـعـقـولـ أـنـ تـحـدـثـ هـذـهـ الـفـتـنـةـ دـوـنـ أـنـ يـكـوـنـ وـرـاءـهـاـشـىـ كـثـيرـ مـنـ الـدـعـاـيـاتـ الـىـ دـبـرـتـ ضـدـهـاـ الـرـجـلـ الـذـىـ كـانـ هـدـفـاـ هـذـهـ الـفـتـنـةـ ،ـ وـهـوـ الـخـلـيـفـةـ الـثـالـثـ عـمـانـبـنـعـفـانـ رـضـىـ اللـهـعـنـهـ ،ـ وـكـانـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـهـ الـدـعـاـيـاتـ السـيـرـةـ الـىـ اـنـتـ بـهـدـهـ الـمـسـأـلـةـ جـهـرـهـ إـعـلـامـيـةـ وـلـيـسـ دـعـاـيـةـ ~ـ وـذـلـكـ عـلـىـ النـحـوـ الـذـىـ كـانـ عـلـيـهـ الـإـعـلـامـ فـيـ أـيـامـ الـنـبـيـ ﷺـ وـأـيـامـ الشـيـخـينـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ ،ـ وـكـانـ الـفـصـدـ الـأـوـلـ وـالـأـخـيـرـ مـنـ هـذـهـ الـجـهـودـ إـعـلـامـيـةـ فـيـ أـيـامـ عـمـانـ بـنـ عـفـانـ هـوـ اـنـتـشـارـ الـإـسـلـامـ وـصـيـانـتـهـ مـنـ كـيدـ أـعـدـاـهـ فـيـ الدـاخـلـ وـالـخـارـجـ .ـ

وـنـنـظـرـ فـيـ أـمـرـ الـدـعـاـيـةـ وـالـإـعـلـامـ فـيـ زـمـنـ عـمـانـ فـنـلـاحـظـ أـلـاـ أـنـنـاـمـ لـكـدـ نـشـيـرـ إـلـىـ لـفـظـ «ـ الـدـعـاـيـةـ »ـ فـيـ أـيـامـ الـنـبـيـ ﷺـ وـصـاحـبـيـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ ،ـ وـذـلـكـ بـاـسـتـثـنـاءـ الـدـعـاـيـةـ الـىـ مـارـسـهـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـيـ الـغـرـوـاتـ وـكـانـتـ تـطـبـيـقـاـ لـلـقـاعـدـةـ الـىـ تـقـوـلـ :ـ «ـ الـحـرـبـ خـدـعـةـ »ـ .ـ

ذـلـكـ أـنـ الـأـمـرـ فـيـ عـهـدـ الرـسـوـلـ كـانـ أـمـرـ «ـ دـعـوـةـ »ـ دـعـاـ فـيـهـ الرـسـوـلـ إـلـىـ دـيـنـ جـدـيـدـ ،ـ وـفـيـ أـيـامـ الشـيـخـينـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ دـعـوـةـ جـدـيـدـةـ يـدـعـوـانـ بـهـاـ ،ـ فـقـدـ فـرـغـ الـنـبـيـ ﷺـ مـنـ أـمـرـهـاـ ،ـ وـلـكـنـ كـانـ هـنـاكـ شـىـءـ آـخـرـ ،ـ هـوـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ هـذـاـ الـدـيـنـ الـجـدـيـدـ ،ـ وـالـعـمـلـ عـلـىـ نـشـرـهـ فـيـ نـطـاقـ وـاسـعـ .ـ

فـلـمـ كـانـ عـهـدـ عـمـانـ حـدـثـتـ أـحـدـاثـ غـيـرـتـ وـجـهـ الـإـعـلـامـ ،ـ وـفـتـحـتـ الـعـرـيـقـ .ـ

ل النوع آخر من أنواع الانصال والتأثير في الناس ، هو الدعاية ، وربما كان من أسباب ذلك أمر أن خطير أن يتداخل بعضهما في بعض تداخلًا قويًا : أولهما — أن نظر عثمان إلى الخلافة أو السلطان كانت تختلف نظره الشيشين بعض الخلافة أو كل الخلافة . ثانهما — أن سيرة عثمان في الخلافة كانت مغايرة بسبب ذلك لسيرة صاحبيه أبي بكر وعمر .

صورة السلطان في رأى عثمان

كان عثمان يرى أن الإمام الحق كل الحق في أن يتصرف في بيت المال حسبما تؤدي إليه المصلحة في نظره ، وما دام هو منقطعًا لعمل واحد — هو الخلافة — فله أن يأخذ من بيت المال ما يكفيه ويكتفى أهل بيته وذوي قرابته ، لا يترك منهم أحداً . وزاد عثمان على ذلك فرأى أن المسلمين ليس لهم الحق في مراجعته فضلاً عن مؤاخذته ، ولم تسكن الخلافة عنده تكليفاً من المسلمين . ولسكن كانت تكليفاً من الله تعالى ، ولذلك قال لمن أرادوا أن يخلصوه :

« ما كنت لأخلع قيصماً هو من صنعة الله عز وجل » .

فأين هنا من أبي بكر ، فقد قيل فيه أنه حين ول الخلافة خرج إلى السوق في صبيحة اليوم التالي ومعه بعض الأقمشة ، فلقيه عمر بن الخطاب في الطريق وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ قال : إلى السوق ، قال عمر : ولماذا ؟ قال : لأحصل على رزق عيالي . فأخذه عمر من يده إلى بيت المال وقال لصاحبه : دبر للخليفة من المال ما يعنيه عن العجارة حتى يفرغ للخلافة . ومنذ يومئذ أخذ أبو بكر من بيت المال ما يكفيه ويكتفى زوجته فقط ، ولم ينظر إلى أحد من ذلك .

أما عثمان فسكان يتصور السلطان بصورة أخرى غير الصورة التي تصورها عمر ، تدلنا عليها الرواية التالية :

« روى أن ملكة الروم أهدت أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب عقداً

عن جوهر . وكانت أم كلثوم أهدت إلّها شيئاً من طرائف بلاد العرب .
خوّق العقد في يده عمر في الوقت الذي أقبل به البريد من بلاد الروم . فلم
يشأ عمر أن يؤديه إلى زوجته حتى أمر فودي في الناس : الصلاة بجامعة ،
الصلاحة بجامعة ، فلما اجتمع إليه المسلمون شاورهم في أمر العقد . فكلّهم
أشار عليه بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنّه ملكها . ولسكن عمر تخرج من
ذلك لأنّه حمل إلّها في بريد المسلمين . وأمر بردّه إلى بيت المال . ورد إلى
زوجته ما أنفقت في هديتها إلى ملكة الروم » .

فأين هنا ما كان يفعله عثمان حين كان يدفع إلى أهله بجوهر من بيت
المال ؛ وحين أعطي كل بنت من بناته الثلاث أو الأربع ألف دينار
فور زواجهما من أحد قريش .

إن الذي لاريب فيه أن عثمان كان يفعل كل ذلك عن حسن نية .
وكان بقصد ذلك من تصوّره للسلطان بهذه الصورة التي تختلف ما عند
أبي بكر وعمر . ومن أجل ذلك كان يقول في عمر :

« إن عمر كان يحرم قرابته احتساب الله . وأنا أعطي قرابتي احتساب الله .
وأين لنا يمثل عمر ؟ » .

ولذلك أعطى مروان بن الحكم وحده خمس الفنسمة التي غنّها
المسلمون في أفريقيا لأنّه أحد أقاربه . وأعطى عبد الله بن خالد الأموي
ثلاثة ألف . وأعطى ابنه المحارث ألف . وأعطى كل واحد من الوافدين
مع عبد الله بن خالد مائة ألفاً وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف .. إلخ .
ولل جانب هذا كلّه كان عثمان يؤثر أقرباءه بولاية الأنصار ،
ويفضلهم على كثيرين من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وأغضبه بذلك عامة
المسلمين . كما غضب لذلك الصحابة أنفسهم .

وتحدث الناس في جميع هذه الأمور حدثت السرارة ، وحدثت
الجهر تارة ، فكانت حركة الهمس في ذاتها من أكبر العوامل التي أدت
إلى الفتنة . كل ذلك مع أن سيرة الشّيخين برشتم من مثل هذه الحركة الخطيرة :

وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى »^(١) :
« لو لا شيء من التحفظ والاحتياط لقلت إن المسؤول الأول والآخر
عما تعرض له عثمان وأصحابه من الخطأ إنما هو هذه العبرية الفتنة التي
أبيحت لعمر ، ولم تنج لأحد من أصحابه ومنهم عثمان » .

خلافة عثمان من زاوية الإعلامية

مهما يكن من شيء فإننا ننظر إلى خلافة عثمان من زاوية الإعلام
فيتبين لنا أنها افترض بحركات منها :

- أولاً — الحركة الانتخابية التي انتهت بانتخابه خليفة بعد عمر .
- ثانياً — حركة الفتوح وهي استمرار الحركات التي سبقتها .
- ثالثاً — الحركة التي ظهرت في إثارة الأقرباء بمناصب الولاية على
الأهصار .

ونحن مضطرون إلى الوقوف عند كل حركة من هذه الحركات الثلاث
قبل أن نخوض في الحديث عن الفتنة نفسها وعن الدعایات التي مهدت
لظهورها .

الحركة الانتخابية

نempt هذه الحركة عن طريق الانتخاب في أضيق صوره، لأنه انتخاب
مقصور على « أهل الحل والعقد » .

غير أن هذه الحركة الانتخابية في ذاتها كان لها وجه إعلامي ظهر في
تزويد المسلمين بصورة عن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ ، وهو الدين
الذي دعا إلى الشورى ، كما زودهم بصورة صحيحة للحكم الإسلامي ،
كيف يكون ، وصورة صحيحة عن الإمامة فيمن تكون .

من أجل ذلك بدأت الحركة الانتخابية بعد وفاة عمر باجتماع الصحابة
من أهل الحل والعقد . ونقدم أحدهم — وهو هنا عبد الرحمن بن عوف
ونادي عليه رضي الله عنه وقبض على يديه وقال له :

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى ص ٢١٨ .

هل أنت مباعي على كتاب الله وسنة رسوله و فعل أبي بكر و عمر ؟
قال على : الله لا ، ولكنني أحاول من ذلك جهدي و طاقتى .
فأرسل يده ، وقال : هل إلى ياعثمان . وألقى عليه نفس السؤال ، فقال
عثمان : نعم . فقال عبد الرحمن بن عوف : اللهم اشهد . اللهم اشهد .
ما لاشك فيه أن إجابة على بن أبي طالب عن سؤال عبد الرحمن
بن عوف كانت أدنى إلى الدقة وأقرب إلى التقوى من إجابة عثمان ،
وليسن عثمان أفاد من هذه الإجابة التي أجاب بها على ، وبادر إلى الرد
بصورة الإيجاب على سؤال عبد الرحمن بن عوف ، وهكذا شاعت إرادة
الله أن تنصير الخلافة إلى عثمان في ذلك الوقت . فلذا فعل الخليفة الثالث
رضي الله عنه ؟

حكم عثمان

بدأ عثمان حكمه ببداية طيبة ، وسلك في ذلك طريقة إعلانية ناجحة ،
فقد أخذ يكتب الرسائل إلى العمال في الأمصار ، وجاء في بعض
هذه الرسائل ما يلى :

أما بعد : فإنكم بلغتم ما يلزمكم بالاقتداء والاتباع ، فلانتفتنكم الدنيا عن
أمركم . فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجئاع ثلاث فيكم :
تكميل النعم ، وبلغ أولادكم سن الشباب ، وقراءة الأعراش والأعاجم
القرآن ؟ وأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : السكير في العجم ، فإذا استعجم
عليهم أمر تكثروا وابتدعوا .

وعثمان في هذه الرسالة التي بعث بها إلى أحد أمراء الأقاليم صورة من
صحابيه أبي بكر و عمر ، وذلك في الحافظة على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتبارها
ركبة من ركائز الإعلام وقاعدة من قواعده ، ولا محل للريبة في شيء من
ذلك ، لقد صرخ عثمان في هذه الرسالة بأنه من أنصار الاتباع . وليس من
أنصار الابتداع ، وأن هذا الابتداع سيكون على يد جيل من الناس الذين

هم أولاد السبايا ، و هؤلاء الناس الذين امتهنوا دماء العرب
غير العربية هم الذين سيدخلون في الدين ماليين فيه .

الفتوح في عهد عثمان

في أيام عثمان تم فتح بلاد فارس ، ومات ملكهم يزدجرد وهو آخر ملوكهم ، ووصلت الفتوح الإسلامية إلى بلاد الترك ، وتم فتح أرمينيا وفتحت أفريقيا ، وأغار العرب على بلاد الأندلس ، وغزوا المسلمين بلاد الروم من جهة البحر : وفتحوا قبرص ، ووصل المسلمون إلى مضيق قسطنطين ، وانتصروا على الروم في واقعة (ذات الصواري) .

ومرة أخرى يقول إن هذه الفتوح لم تكن للغلبة والسلطان ، وإنما كانت لنشر الدين والمذهب .

وهنا جاز لرجل الإعلام أن ينظر إلى هذه الفتوح على أنها استمرار في ممارسة الوسائل الإعلامية التي هيأها الله لرسوله ﷺ . ومنها وسيلة الغزو أو الفتح .

ومن أجل ذلك كثُر أعداء الإسلام بقدر ما كثُر أتباعه وأنصاره، وبذل
الخلفاء الراشدون جهوداً كبيرة في حماية الدين من أولئك الأعداء.

غير أن هذه الفتوح كان من أهم نتائجها في الواقع أنها فتحت على المسلمين أبواب الغنى والثروة، ووقع في أيديهم كثير من الغنائم؛ وكان عثمان يتصرف في هذه الغنائم بطريقة لا ترضي الصحابة، وقد كان يؤثر بها - كما قلنا - ذوى القربى، ويحرم منها كل من ليست لديه صلة أو قرابة، وكان ذلك يثير في نفوس الكثيرين شيئاً غير قليل من مشاعر الحقد والمحفظة.

نولية عثمان أقرباءه على الأوصار

وهي الحركة الثانية التي أخذت عليه ، وعدها التاريخ من عيوبه —
 نعم كان من أخطاء عثمان في خلافته أنه أثر أقرباءه من بنى أمية بالولاية
 على الأوصار ، وفيها — أى في تلك الأوصار — كان يعيش بعض الصحابة فقد
 سمح لهم عثمان بالسفر إلى تلك الأوصار مخالفًا بذلك تلك السياسة التي سار
 عليها عمر ، وهي السياسة التي قامت على احتجاز الصحابة في المدينة حتى
 لا يقتن الناس بهم ، أو يقتنوا بأنفسهم ، وحتى لا يختذلوا لأنفسهم في تلك
 الأقاليم ثروات ضخمة ربما صرقوهم عن الدين أو قللت من هيبتهم في نفوس
 المسلمين الصالحين ، وهذا ماحدث بالفعل في عهد عثمان ، وبسيه أصبحت
 الأقاليم مهيئة للفتنة ، فما كان أبعد نظر عمر بن الخطاب حين عامل هذه
 الأوصار اطليه الجديدة التي تألفت من كبار الصحابة مثل هذه المعاملة التي
 وقفهم شر الأقاليم . فلما ذهبوا إليها في زمن عثمان جرقوهم إلى الفتنة ، وذلك
 بما أثاحت لهم من الفراغ والثروة ، وأوصلتهم إلى المناصب العليا في الدولة
 وطبعهم بأخلاق غير التي كانوا عليها قبل الوصول إلى كل ذلك ،
 منها يكن من أمر فقد أبقى عثمان في السنة الأولى من خلافته على عمال
 الأقاليم كما تركهم عمر ، ومنذ السنة الثانية أخذ يعزل ويولى من جديد ،

فاما الكوفة :

فقد ولى عاليها واليin من أوليائه وأقربائه وهم الوليد بن عقبة وسعيد
 ابن العاص ، عرف أولهما برقة دينه وكان يشرب الخمر حتى أقيم عليه الحد ،
 وما زال أهل الكوفة بهذا الأمير وصاحبه سعيد بن العاص حتى طرد وهم
 وأجبروا عثمان على قبول ذلك .

ومثل يومئذ أطلت الفتنة برأسها على الناس وجذبهم إليها ،

واما في الشام :

فقد ولى أمرها معاوية بن أبي سفيان قبل مجيء عثمان ، ثم أتى عثمان
 فثبته في وضعه لأنه من ذوى قرابته ، ولذا طالت مدة معاوية بهذه البلاد ،

وأصبح أشبه بملك عليها ، وكان العمال من حوله يعزّون بين الحين والحين وهو باق في الشام لا يزول عنها ، ولم يكتف عثمان بذلك حتى أضاف إلى معاوية ولائيات أخرى ، وهي الأردن وفلسطين وحمص ، ولذلك كان عثمان يبعث إلى الشام بأكثر المتمردين عليه ليعاقبهم معاوية ويوذبهم بطريقته ، وبعد وفاة عثمان جرّ معاوية بن أبي سفيان فاقطع من الدولة بلاد مصر فالشجاع حتى نظر على بن أبي طالب فإذا معاوية قد استأثر من الأنصار الإسلامية بأجودها وأحسنها .

وأما في مصر :

فقد أرسل عمر بن الخطاب واليًا عليها هو (عمرو بن العاص) ، ولما انقضى عام على خلافة عثمان ولـى عليها أحساء في الرضاع (عبد الله بن أبي السرح) وأذن له فغزا شمال أفريقيا ، وأعطاه الخمس من خناثتها . فعل عثمان كل ذلك برغبة ما أشيع عن ابن أبي السرح قبل إسلامه من أنه سخر من القرآن وقال سأنزل مثل ما أنزل الله ، حتى لقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح لولا أن جاء به عثمان مسلماً بين يدي الرسول ﷺ فعصم الرسول دمه .

وأمام كل هذه الشائعات حول ابن أبي السرح ، وهذه السيرة التي كان عليها ، وأمام حديث الناس في كل هذه ، وأمام الماضي الذي عرف لهذا الوالي اضطر عثمان إلى عزله ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، وفي عهد هذا الأخير خرج التائرون من مصر ، واجتمع إليهم غيرهم من أهل الأقاليم الأخرى ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة .

قوة المعارضة :

أنكر الكثيرون من أهل الأنصار على عثمان كل هذه التصرفات ، كما اعترض طلبه كبار الصحابة في داخل المدينة ، ومنهم الخمسة الذين اختاروه للخلافة بعهد من عمر قبل وفاته وكلهم من السابقين الأولين ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن

عبد الله ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وكان عثمان قد أعطى هذا الأخير ولاية بيت المال في الكوفة ، وذلك حين كان سعد ابن أبي وقاص والياً عليها ، ثم عزل سعداً وولي مكانه الوليد بن عقبة كما سبق القول في ذلك ، فاقترض الوليد شيئاً من بيت المال فاقررده ابن مسعود مأراد من بيت المال ، ولما حان موعد السداد طالبه ابن مسعود بماله فالتوى الوليد . فالجع عليه ابن مسعود . فشكى الوليد إلى عثمان . فكتب عثمان إلى ابن مسعود يقول له : إنما أنت حازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيها أخذ من بيت المال ،

فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال ولزم بيته .

منذ ذلك الوقت أخذت المعارضة من جانب ابن مسعود تشتد شيئاً شيئاً وازدادت الحصومة بينه وبين الخليفة ، وتطور الحديث بينهما حتى اضطر عثمان في ذات يوم إلى إخراج ابن مسعود من المسجد إخراجاً شديداً ، ودقت صدعته ... وأقبل على بن أبي طالب على عثمان فلامه لوماً شديداً على ذلك ، ثم تولى على أمر ابن مسعود وأخذ يعنى به حتى حملوه إلى منزله .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد حتى قطع عطاء ابن مسعود ، وحدد إقامته بالمدينة ، ثم أمر به فانتقل إلى الكوفة ، وانتقلت معه هذه الحركة أو الشورة التي كان محوراً لها بالمدينة ،

وكان من المعارضين لعثمان في سياساته كذلك رجل آخر من الصحابة هو أبو ذر الغفارى .

نظر أبو ذر فإذا عثمان قد خص مروان بن الحكم من أقربائه كذلك بأموال كثيرة وأعطى أخاه الحارث مائة ألف ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف ، فأنكر كل ذلك على الخليفة ، ونهاه عثمان عن كل ذلك فقال :

« لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلى من أن أرضي عثمان بسخط الله »

ثم نفاه عثمان من المدينة إلى الشام فانتقل بحركته أو سخطه إلى الشام ، وجعل يقول فيه ما كان يقوله في المدينة ، وزاد على ذلك أنه أخذ ينكر على معاوية بعض ما نصره على عثمان ، وأنكر على معاوية قوله (مال الله) وقال مكانها (مال المسلمين) ، فنفاه معاوية إلى المدينة ، واستمر أبو ذر في سخطه وطعنته على عثمان لأنه أطلق يده في مال المسلمين ، فنفاه مرة أخرى إلى (الربدة) حتى مات بها .

تلك صورة موجزة لما كانت عليه المعارضة في أيام عثمان ابن عفان :

ثار كبار الصحابة في داخل المدينة ، وأما في الأنصار فقد كان الأمر على أشد من ذلك وحسبنا هنا أن نشير كذلك إلى رجلين فقط من أولئك الثوار .

أولهما : محمد بن أبي حذيفة ، والثاني : محمد بن أبي بكر . وكان الأول ابنًا لرجل من السابقين الأولين أسلم قبل أن يذهب النبي إلى (دار الأرقم) واجتمع هناك بعد قليل جدًا من المسلمين وذلك في أثناء المرحلة السرية من مراحل الدعوة .

وأما الثاني فهو محمد بن أبي بكر الصديق ، أخو السيدة عائشة أم المؤمنين .

والذي يرجحه المؤرخون أن كلا من هذين الرجلين كان يطمع في الولاية ، لما له من عظيم المنزلة ورقيع المكانة . فلما لم يبلغ ما أراد ذهب إلى مصر ، وقام بالدعابة ضد عثمان ، وكان الجلو ملائماً لهذه الدعابة .

ولما عاد عبدالله بن أبي السرح من موقعة (ذات الصوارى) التي انتصر فيها على الروم وجد محمد بن أبي حذيفة يثير الفتنة بين المصريين ويقول لهم :

إنكم تسعون إلى الجهاد ... والجهاد وراءكم بالمدينة حيث يقيم عثمان ويروس الأمة على غير كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيه : يعزل أصحاب النبي عن العمل ، ويولي أمور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب

البعون . انظروا إلى واليكم وقائدكم إلى الجهد (يريد ابن أبي السرح)
إنه رجل نزل القرآن بكتبه وأهدر النبي دمه . ولكن عثمان يوليكم لأنه
أشرف في الرضاع . انظروا إلى سيرته فيكم : أترونه يهتم فيها بهدى النبي
وصاحبيه ؟ أترونه لا يغير ولا يبدل ، ولا يكلفكم من أموالكم وأهالكم
ملا تطيقونه ؟

وكان ابن أبي حذيفة يذيع مثل هذه الدعایات الخطيرة في الجيشه
وكان محمد بن أبي بكر يذيع مثل هذه الدعایات في الرعية . واشترى الرجالان
في توجيه النقد واللوم بكل هذا العنف إلى معاوية بالشام وإلى عثمان بالمدينة .

ويقال إن عثمان أخذ يتراضى هذين المحمدتين بالمال . ولكن أخذ هنا
لم يرض بذلك بحال من الأحوال . بل إن محمد بن أبي حذيفة أخذ الكسوة
التي بعث إليه بها عثمان في مصر وذهب بهذه الكسوة إلى المسجد ، وقال
بخطب الحاضرين من المسلمين :

انظروا إلى عثمان كيف يريد أن يخدعني عن ديني بهذه الكسوة !!
وإلى هذا الحد باعث الدعاية ضد عثمان . وكان القائمون بها من خيرة
الصحابة وأبناء الصحابة . مع أن الأمور التي أخذت على عثمان كانت مما يمكن
وقوعه من أي خليفة عدا الشيوخين أبا بكر وعمر .

ترى ما الذي أوقع عثمان في كل هذا الخرج ؟
وما الذي أثار على عثمان كل هذا السخط ؟

إن الذي أوقع عثمان في كل ذلك شيء واحد فقط ، هو مخالفته للسياسة
الإسلامية التي كان ينبغي أن تسير عليها سياسة الخلفاء الراشدين الذين
عاشرونا النبي بأنفسهم ، ورأوه بأعينهم ، وسمعواه بأذانهم ، واشتركوا
معه بأرائهم وأموالهم وجوهودهم . وعلى هذه السياسة الإسلامية الرشيدة —
وهي سياسة الاتباع للرسول — سار أبو بكر وسار عمر ، ولكن هذه
السياسة إنما تغيرت على يد عثمان . وحدث هذا التغير المفاجيء وكثيرون من
الصحابة على قيد الحياة ، وأبناء الصحابة كلهم من الشباب المتحمس

للهجدة وللكتاب والسنّة كما تركهما الرسول . فلم يكن من السهل على هذا الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ وأبنائهم أن يسمحوا بهذه الأمور التي حملت من عهان . ولو وقعت هذه الأمور وأكثرب منها بعد انقضاء عهد المخلفاء الراشدين لكان مقبولة إلى حد ما . ولذلك وقع في المخلافة الأموية فالخلافة العباسية من عظام الأمور ما يشيب لها الولدان : وكان الرعيل الأول من الصحابة وأبنائهم قد انقضى ، وخلف من بعدهم خلف حادوا عن الطريق ونسكوا عن السياسة الإعلامية الرشيدة التي سار عليها أبو بكر وعمر .

(والخلاصة) أن المشرف عن وقوع الفتنة الكبرى التي انتهت بهذه المأساة الكبرى ، وهي قتل عثمان أمران :

أولهما : تشدد أبي بكر وعمر في اتباع سنة رسول الله رعاية منها للإسلام وحرصا منها على رضاء الله ورسوله . وبهذا التشدد في اتباع رسول الله ظهر الفرق واضحًا جليًا بين سيرة الشيختين من جهة وسيرة عثمان من جهة ثانية . وعذر عثمان في ذلك أنه كان يفهم للعدل صورة غير الصورة التي كان يفهمها أصحابه ، ومعنى ذلك أن عثمان لم يصر في عمل من أعماله عن معصية الله والرسول ، أو عن تنفيذ لسياسة الابتعاد بدل الاتباع . ولكنه صدر في كل ذلك عن هذه الصورة التي تكونت في ذهنه .

ثانيهما : مخالفة عثمان لسياسة الإعلامية التي كان عليه أن يرعاها بغاية الدقة ويتواخها بغاية التحرج . وأكبرظن عندي أنه كان في وسع عثمان أن يفعل ذلك لو لا أنه وقع تحت تأثير أقارب من بنى أمية وغيرهم . وبهذا أمية جدهم أبو سفيان ، وهو من قريش أسلم على يد النبي ﷺ قبيل الفتح ، ودخل النبي ﷺ عليه وعلى قومه الكعبة فقال لهم : ما تظنون أنني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وليس الطلقاء في الإسلام كالأحرار الذين أسلموا قبل الفتح من تلقائهم أنفسهم لأنهم ضغط من السيف أو الرمح .

الفصل الرابع الدعائية والإعلام في عهد على

لا يسع المؤرخ الإعلان عندهما يتكلّم عن الإمام على إلا أن يشير إلى الشخصية التي انفرد بها بين الصحابة ، ولا يبالغ إذا قلنا عن الإمام أنه كان أكبر شخصية عرفها الإسلام وذلك بعد رسول الإسلام . وما كان أخلاقه أن يكون أول خليفة لرسول الله لولا أن حالت دون ذلك أمور كثيرة . كل أمر منها له اعتباره ومنها :

أولاً : حداثة سنته عند وفاة النبي ﷺ وجود الشيوخ من الصحابة الكبار من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما . فقد كان على عند وفاة النبي ﷺ فـى لم يتتجاوز الثلاثين ، وكان أبو بكر وعمر قد صحبوا النبي ﷺ بضع عشرة سنة وهم شيوخ قبل ظهور علي بن أبي طالب على مسرح الحياة العامة .

ثانياً : وهو الأهم - القرابة على النبي ﷺ . وقد كانت هذه القرابة حجابةً له دون الوصول إلى الخلافة . وخاصة عقب النبي ﷺ نفسه مباشرة . ذلك أن القبائل العربية - ومنها قريش - أبى ألا يجتمع لآل هاشم ميراثان كبيران في وقت واحد ، وهم ميراث النبوة وميراث الخلافة . وأهم من هذا وذلك أن الإسلام نفسه لا يقر العصبية بل يقوم على أساس المساواة بين الناس . وفي ذلك يقول عمر :

« إن قريشاً قد اختارت لنفسها وأبى أن تجتمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة » .

ثالثاً : أن علي بن أبي طالب قتل من بني أمية عدداً كبيراً في غزوة بدر ، فـى فقد عليه بنو أمية منذ ذلك الوقت . وظل هذا الحقد في صدورهم حتى بعد أن دخلوا الإسلام . وفي ذلك يقول علي :

وَمَا لِي وَلَقَرِيشٍ أَمَا وَاللَّهُ لَقَدْ قَتَلُوكُمْ كَافِرِينَ ، وَلَا أَنْتُمْ مُفْتَنِينَ ٠
وَوَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَظْهُرَ الْحَقُّ مِنْ خَاصِرَتِهِ ٠

موقف علی من الفتنة

ذلك شخصية علی ، وتلك هي بعض الظروف التي كانت عقبة في سبيل وصوله إلى الخلافة قبل كل من أبي بكر وعمر وعثمان . على أن التاريخ الإسلامي لا يكاد يعرف ظروفاً أفظع ولا أسوأ من الظروف التي يوحي بها على ، ويكتفى أن نذكر من تلك الظروف أنه يوحي بعد المأساة الأليمة التي قتل فيها عثمان بن عفان في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بقتله ، وأكثر من ذلك أن علی بن أبي طالب يوحي بالخلافة وهو متهم بدم عثمان رغم الجهد الذي بذلها في الحافظة على حياته .

على أن هذه الظروف السبعة التي أحاطت بالبيعة تحتاج منها إلى هذه الإشارة الموجزة :

أولاً : أن علی بن أبي طالب توسط بين عثمان بن عفان والثوار ، واستعملهم ثلاثة أيام يرد بعدها جميع المظالم فيعزل فيها العمال المكرهين من الرعية ، ويصلح الأمور التي من أجلها قامت الثورة .

ومرت الأيام الثلاثة ، ولم يقبل عثمان مشورة علی بن أبي طالب في شيء من ذلك .

ثانياً : علِمَ الثوار بأن وساطة علی لم تثمر وأن عثمان رفض أن يستجيب لطلابهم ، فعادوا إلى الثورة من جديد ، وتهيئوا جميعاً للقتل عثمان ، فخرج علی بن أبي طالب من بيته بعمامته الرسول عليه السلام ، ومتقللاً سيفه ، وأمامه ابنه الحسن وعبد الله بن عمر في نهر من المهاجرين والأنصار ، وحمل على وأصحابه على الثوار حتى أبعدوهم عن دار عثمان . ثم دخل الإمام علی بيت عثمان ، فسلم عليه ، وحدثه حديثاً طويلاً يجاء في نهاية :

« ولا أرى القوم إلا قاتلوك . فرنا فلنقاهم » فأبا الخلية الطيب عثمان كل ذلك حقنا لدماء المسلمين . فأعاد عليه القول في ذلك فأصر عثمان على موقفه .

ثم خرج على من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة فناداه جميع من في المسجد : « يا أبا الحسن . تقدم فصل بالناس » .

فقال علي بن أبي طالب : « لا — لا أصلى بهم والإمام محصور » . وصلى على وحده في ذلك اليوم .

ثالثاً : رجع علي بن أبي طالب إلى منزله وترك ابنيه الحسن والحسين مع أبناء الصحابة في حراسة عثمان ، وضاق الثوار بالانتظار على هذه الحال ، وأخيراً تصوروا دار عثمان ووصلوا إليه وفعلوا فعلتهم وتخالصوا من الرجل » .

وسمع بذلك علي فأسرع إلى بيت عثمان ولطم ابنيه لطمات قوية ، ووجه إلى أبناء الصحابة أقسى العبارات . فقال أحدهم — وهو طلحة : « لا تهرب يا على ولا تلعن . لو دافع مروان بن الحكم عن عثمان ما قتل عثمان » ومرwan هذا من أقرباء الخلية المقتول .

معنى ذلك أن علي بن أبي طالب كان بريئاً من دم عثمان ، لا شئ في هذا ، وأنه لم يكن يقتصر على تجنب هذه الكارثة وحماية عثمان من نتائجها معاوية بن أبي سفيان ، وأن الخطأ الأول والأخير هو خطأ عثمان ، لأنه لم ينشأ أن يستمع إلى نصائح الصحابة ، وفيهم على — ولم ينشأ أن يعمل بمشورة على بوجه خاص ، وذلك في اللحظات الأخيرة ، أو الساعات الخرجة التي سبقت وقوع الحادث ، وكان يطلب النجدة أو الغوث كلما أشتد هجوم الثوار على دار عثمان ، ومع ذلك لم يستجب له معاوية بن أبي سفيان مع أنه كان أقرب إلى عثمان من علي بن أبي طالب ، ومع هذا وذاك فقد كان معاوية بن أبي سفيان أول من أتهم عانياً بدم عثمان كما سألي الإشارة إلى ذلك فيما بعد .

وكان الثوار من جانبيهم ينظرون إلى على على أنه المسؤول الأول عن الإصلاح من حيث هو ، وفي المؤتمر الذي عقده عثمان لهذا الإصلاح لم يكن على عضواً من أعضائه لأن عثمان توخي أن يكون أعضاء هذا المؤتمر من ذوي قرباه ، فحضر هذا المؤتمر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السرح ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، وفي استطاعة القارئ أن يتكهن بالنتائج التي يتضمنها منها مثل هذا المؤتمر الذي يتألف من رجال كهؤلاء ليس فيهم رجل كعلى ابن أبي طالب أو رجل من كبار الصحابة ،

الثورة تباع عثمان

بعد مقتل عثمان يقيس المدينة خمسة أيام بدون خليفة ، وألح الثوار على الإمام على في قبول الخلافة ، وهو يهرب منهم ويبتعد عنهم ، ثم اتجهوا إلى الزبير وعرضوا عليه الخلافة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى طلحة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى سعد بن أبي وقاص فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى عبد الله بن عمر فهرب منهم ، ثم قال بعضهم لبعض : لانستطيع أن نرجع إلى أهصارنا بعد قتل عثمان من غير أن نختار ولينا الأمر مكانه ، فرجعوا إلى على بن أبي طالب ، وألح الأشتر النخعى عليه في قبول الخلافة ، وأخذ بيده فبايعه وبايده الناس بعد ذلك ، وتقدم طلحة والزبير فبايعاه ، ثم صعد الإمام المنبر فبايعه من الناس من لم يكونوا قد بايعواه من قبل ، ولكن قريشاً وبني هاشم لم يكن لهم رأى في هذه البيعة ، فقد تركا للثورة وحدها أن تكون صاحبة الرأى في مبادئها على .

وسمع معاوية بن أبي سفيان بهذه البيعة فساعته أخبارها ، وتوقع الشر كل الشر من ورائها ، وظهر في الإسلام لأول مرة في تاريخه خلاف شديد بين نظامين مختلفين هما :

نظام الخلافة الدينية ،

ونظام الملك النبوي ،

الأول عثله على بن أبي طالب والثاني عثله معاوية ، وانقسم المسلمون لأول مرة في التاريخ كذلك إلى أحزاب ثلاثة : حزب على ، وحزب معاوية ، وحزب خارج على الفريقين هو حزب المخوارج ،

حزبان متعارضان

غير أن الذي يعنينا من هذه الأحزاب الثلاثة حزبان فقط هما حزب على وحزب معاوية :

١ - أما حزب على فكان يتألف من جمهور القراء والفقهاء والنساك والحفاظ ، وكان هؤلاء وهؤلاء من أفراد الحزب يسخطون على ترف الأغنياء الذين أثروا في أيام عثمان من وراء المناصب الكبيرة التي وضعهم فيها ، وكانوا كذلك ينكرون كل خلاف يقع بين المسلمين يؤدّي إلى تفرق الكلمة ، وكانتوا حافظين لحدود الله ولا يرضون عن أولئك الذين لا هم إلا هؤلاء الدنيا ، وكانوا يكرهون الحرب إلا لنشر الدين ، وطالما عارضوا علياً نفسه في رغبته في الحرب ، وخاصّة تلك التي أراد أن يشّها على معاوية .

٢ - وأما حزب معاوية فكانوا طلاب دنيا ومال وجه ، وكانوا يسمعون الحق كما يسمعون الباطل ، لأنّهم لا يفرقون بينهما ، وكانوا لا يعرفون غير الطاعة العميماء لمعاوية بن أبي سفيان ، لا يحيّزون إلا مأجازه ، ولا يميزون معه بين ناقة وجمل .

فما أبعد الفرق بين الفريقين .. فريق على وفريق معاوية « كان أصحاب علي - كما يقول الأستاذ عباس العقاد - أقرب الناس في ذلك الوقت إلى الإصغاء إلى صوت الصغير قبل صوت الأمير ، وكان أصحاب معاوية على العكس من ذلك » .

وقد شاء القدر أن يرث حل من عثمان تركة مشقة بالأنهاء التي مرت بها عثمان نتيجة السياسة الإعلامية التي اتبّعها مخالفًا بها سياسة صاحبيه مُلي بكر وصر .

وهذا النطأ الذي ارتكبه عثمان هو أنه لم يتجوز كبار الصحابة بالحجاج ولم ينفعهم من الانطلاق في الأمصار ، ولم يحل بينهم وبين الإقبال على الدنيا والانصراف إلى الجاه والسلطان ، وقد جنى عثمان من وراء هذه السياسة أن كبار الصحابة كانوا حرباً عليه وعلى الخلافة ، من أجل ذلك كان أبو بكر قد أوصى من يخلفه قائلاً له :

« احضر هؤلاء التفر من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الذين اتفتحت أبواب جهنم وطمست أبصارهم وأحب كل امرئ نفسه ... إلخ .

ومن أجل ذلك كان أبو بكر يحضر رجالاً كعبد الرحمن بن عوف من الدنيا ويقول له :

« ... ورثتم الدنيا قد أقبلت حتى تتخالوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يأتم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذري كما يأتم أحدكم إذا نام على حسكة السعدان » .

وهذه الطبقة التي تحدث عنها أبو بكر وحضر منها الخلقاء من بعده هي الطبقة التي كانت مصدراً للقتل والتابع الكثيرة للإمام على بن أبي طالب ، على حين أن معاوية بن أبي سفيان كان رجاله وأتباعه خلاف ذلك . وكانوا في الوقت ذاته أطروع له من بنائه .

ولا ننسى أن أمية (جد الأمويين) هو الذي اختار الشام لنفسه مقاماً منذ الجاهلية ، وأنه وأولاده من بعده كانوا يتألفون الشاميين منذ ذلك الحين ، فنشأ هؤلاء على حبهم وإيثارهم على غيرهم من المتنفسين إلى قريش ، يضاف إلى ذلك أن تجارة الشام كانت للشام حيث يقيم بنو أمية ، وأن سراج الشام كان للشام أيضاً ، وأما موارد الحجاج فلم تكن للحجاج ، وكانت مصر والعراق من نصيب على ، ومع ذلك لم ينفع على بهما في شيء ، وذلك لفساد الأمر فيما يسبب الولاة والفتنة التي أحدثها أولئك الولاة . وباختصار شديد كانت كل عوامل الفاقع والاضطراب في جانب على ، وكانت كل عوامل الراحة والطمأنينة والطاعة في جانب معاوية .. وحسبك أن تستمع إلى على بن أبي طالب وهو يقول لأخيه .

« دع عنك قريشاً وترأكضهم في الضلال فإن قريشاً قد أجمعوا على
حرب أخيك إجماعاًها قبل اليوم على حرب رسول الله صلوات الله عليه »
من أجل ذلك وجدنا على بن أبي طالب يقع عليه كل ذلوب عصره:
وقدت عليه شكوى الناس من قريش .

ووقع عليه شعور القراء بالضيق مع أنه واحد منهم .
ووقع عليه هافت الولاة على المال ، مع أنه شديد المحاسبة لهم .
ووقدت عليه مسؤولية الدعوة إلى الإصلاح الذي دعا به الحفاظ والنساك
ومن إليهم . فإذا يفعل على بن أبي طالب أيام هذه الظروف كلها ؟
وما حينته في الشعور بالتبصر والسخط من جميع الناس في عصره ؟
وما عسى أن تكون « ياسنة الإعلامية في تلك الفترة التي انقسم فيها
المسلمون قسمين أو حزبين ، حزب مع على ، وحزب مع معاوية ؟

الدعابة والإعلام في عهد على

رأينا كيف كان الفرق عظيماً جداً بين على ومعاوية من حيث نظام الحكم
عندما ومن حيث الرعية التي كان يحكمها كل واحد منهم ، ومن حيث
السنة التي اتبعها ، ومن حيث البطانة التي كانت تحيط بكل منهما ، ومن حيث
حيث الأخلاق والمبادئ التي أخذت بها كل بطانة على حدة ، ومن حيث
الموارد المالية التي تملكتها ، ثم من حيث الهدف الذي تهدف إليه آخر الأمر .
وقد شرحتنا كل هذه الفروق بإنجاز قائم ، ونريد أن نعرف بعض الوسائل
الإعلامية والدعائية التي تزرع بها كل واحد من هذين الفريقين .

ويتمكن أن نوجز القول في الكلمة نذكرها أولاً ، ثم نقدم الأدلة
عليها بعد ذلك .

وهذه الكلمة هي أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام ، أما (الدعابة)
فكان وسيلة معاوية .

وهكذا وجدنا طرق الدعاية تتسع أيام معاوية لأنها إنما يسعى إلى ملوك

بنبوى . وأن طرق الإعلام تضيق أمام علـ لأنـ إنـما يـتـقلـدـ أمرـ خـلاـفةـ دـينـيةـ قبلـ كـلـ شـىـءـ .

ـ ثمـ هـكـذـاـ شـاءـتـ حـكـمـةـ اللهـ أـنـ يـكـوـنـ لـلـمـحـقـ طـرـيقـ وـاحـدـ لـلـأـنـافـ لـهـ ،ـ وـأـمـامـ الـبـاطـلـ طـرـقـ مـتـعـدـدـةـ ،ـ وـأـسـالـيـبـ مـنـوـعـةـ ،ـ وـوـسـائـلـ لـاـحـصـرـ هـاـ ،ـ وـقـدـ أـشـرـنـاـ إـلـىـ بـعـضـ وـسـائـلـ الدـعـاـيـةـ عـنـدـ مـعـاـوـيـةـ ،ـ وـلـمـ نـذـكـرـ هـاـ كـلـهـاـ .ـ لـأـنـنـاـ إـنـماـ تـسـجـدـتـ عـنـ الدـعـاـيـةـ الـأـمـوـيـةـ بـخـرـدـ مـوـازـنـهـاـ بـالـإـعـلـامـ الـعـلـوـيـ ،ـ فـاـ هـىـ وـسـائـلـ هـذـاـ إـلـيـ الـإـعـلـامـ ؟ـ .ـ

ـ الـوـاقـعـ أـنـ الـإـمـامـ لـمـ يـكـنـ يـمـلـكـ مـنـ وـسـائـلـ الـإـعـلـامـ غـيـرـ وـسـيـلـتـيـنـ هـمـ :

ـ ١ـ وـسـيـلـةـ الـخـطـبـةـ .ـ

ـ ٢ـ وـسـيـلـةـ الرـسـالـةـ .ـ

ـ وـكـانـ يـسـاعـدـهـ عـلـىـ النـجـاحـ فـيـ مـارـسـةـ هـاتـيـنـ الـوـسـيـلـتـيـنـ أـمـورـ كـثـيرـةـ مـنـ أـهـمـهـاـ :

ـ ١ـ قـوـةـ شـخـصـيـتـهـ .ـ

ـ ٢ـ وـجـنـ أـخـلـاقـهـ وـجـمـيلـ سـيـرـتـهـ .ـ

ـ وـقـدـ كـانـ فـيـ هـذـهـ الصـفـةـ أـشـبـهـ رـجـلـ بـرـسـولـ اللهـ ﷺـ .ـ وـفـضـلـاـ عـنـ هـذـاـ وـذـاكـ كـانـ الـإـمـامـ مـضـرـبـ المـشـلـ فـيـ الـفـرـوـسـيـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـمـاـقـرـنـ بـهـاـ مـنـ أـخـلـاقـ ،ـ وـيـكـنـىـ لـلـتـدـلـيـلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ نـسـوـقـ شـاهـدـيـنـ :

ـ ١ـ أـنـ مـعـاـوـيـةـ كـانـ مـنـ خـطـطـهـ فـيـ الـحـرـوبـ الـتـىـ دـارـتـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ عـلـىـ .ـ وـمـنـهـ حـرـبـ صـفـرـ .ـ أـنـ يـبـدـأـ بـامـتـلـاـكـ مـوـارـدـ الـمـاءـ ،ـ وـمـنـ أـمـتـلـكـ هـذـهـ الـمـوـارـدـ مـنـعـهـاـ عـلـىـ أـصـحـابـ عـلـىـ حـتـىـ يـقـتـلـهـمـ الـقـلـمـاـ .ـ

ـ فـعـلـ مـعـاـوـيـةـ ذـلـكـ مـعـ أـصـحـابـ عـلـىـ ،ـ فـأـشـارـ عـلـيـهـ أـصـحـابـهـ أـنـ يـفـارـضـ مـعـاـوـيـةـ فـيـ الـسـلـمـ وـلـاسـكـنـ مـعـاـوـيـةـ لـمـ يـقـبـلـ مـنـهـ ذـلـكـ ،ـ فـاـ كـانـ مـنـ عـلـىـ وـأـصـحـابـهـ إـلـاـ أـنـ هـاجـمـوـاـ مـعـاـوـيـةـ وـأـصـحـابـهـ حـتـىـ اـمـتـلـكـوـاـ مـوـارـدـ الـمـاءـ ،ـ وـإـذـ ذـلـكـ أـشـارـ أـصـحـابـ عـلـىـ بـأـنـ يـمـنـعـ الـإـمـامـ الـمـاءـ عـنـ أـصـحـابـ مـعـاـوـيـةـ فـأـبـيـ عـلـيـهـ ذـلـكـ كـلـ الـإـباءـ ،ـ وـقـالـ لـأـصـحـابـ مـعـاـوـيـةـ :ـ خـلـوـاـ مـنـ الـمـاءـ مـاـشـئـمـ وـارـجـعـوـاـ

إلى معسكركم . ثم قال الإمام لأصحابه : خلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغتهم .

وهذا خلق من أخلاق الفروسيّة العربيّة الإسلاميّة كان خليقًا بعلي بن أبي طالب ولم يقدر عليه رجل كعاوية بن أبي سفيان .

٢ - والشاهد الثاني على أخلاق الفروسيّة عند علي :

رأى على عمرو بن العاص وهو مليء على الأرض مكشوف السوسة بمحاول أن يدفع عن نفسه الموت بما حضره من وقاره ، فصرف على وجهه عن عمرو وهو في هذه الحالة وأنف أن يصرع رجلا يخاف الموت بهذه الصورة التي لا ترضاه كرامة الصراع في أي درجة من درجاته ، ولو غير على رأى عدوه بهذه الحالة لانهز الفرصة فقضى عليه وتخلاص منه .

بقي أن نضرب المثل على نجاح الإمام في ممارسة هاتين الوسائلين من وسائل الإعلام — وما الخطب والرسائل .

خطب على

والمعروف أن كتاب نوح البلاغة يشتمل على كثير من خطب الإمام على ، وللنقاد والباحثين أن يشكوا في هذا الكتاب وفي نسبة الخطب التي يشتمل عليها إلى الإمام على ، وأن هذه القضية من قضايا الأدب لا تعنينا في هذا البحث ، وما لا شك فيه أن قدرًا كبيرًا من الخطب يمكن تسببه إليه ، وأن الباقي من هذه الخطب لابد أنه صيغ على غرار الخطب التي صدرت من على ، وجرت على النط بلاغي أو الأسلوب الخطابي الذي عرف به ، ولكن نعلم أن الفرق عظيم بين الإعلام من جهة ، والدعاية من جهة ثانية .

فالإعلام لابد أن يبني على الصدق ، وعلى الصدق وحده . ورجل الإعلام هو الذي يزود الناس بالأخبار الصادقة والمعلومات الصحيحة ، هو الذي يفسر هذه المعلومات — إن أراد — ولكنه بمحاول أن يؤثر في الناس بطريقة من الطرق حتى يفهموا هذه المعلومات بالطريقة التي أرادها رجل

الاعلام ، ولكنها يترك لهم الحرية التامة في فهم هذه المعلومات وإنداكها بعد أن قدمها لهم وأعقب ذلك بشرحها وتفسيرها قدر المستطاع .

أما الدعاية فقد تبني على الصدق وقد تبني على الكذب، وهي على الكذب أكثر اعتماداً في أغلب الأحيان . والقصد من الدعاية هو استهلاك الناس والتأثير في نفوسهم وعقولهم لغرض مشكوك فيه ، ومع أن الدعاية لها هنا الطابع المخالف لطابع الإعلام فإنها قوة كبيرة من القوى التي تستطيع أن تغير مزان العالم في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والأدبية والفنية على السواء .

ومن أجل ذلك أثر عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقول: «لا الوصول إلى الحق يتبيني أن تخوض كثيراً من الباطل»، ومثل هذه الكلمة لا يمكن أن تصدر عن علي، لأن علياً لا يعرف غير الحق، أو ما يعتقد أنه حق، ولا يسلك طريقاً غيره، الماك لم يكن لعلى أعوناً مخلصون يتعاونون معه، على حين أن معاوية كسان أعوناًه يتعاونون في الإنخلاص له، ولا يقدمون إلا على الأعمال التي يرضي عنها، وهذا السبب بين معاوية سياسته في الدعاية على الطعن في أعدائه - وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، في حين أن علياً كان لا يرضي لنفسه، ولا يرضي له دينه وخلقته أن يبني سياسته الإعلامية على الطعن في أعدائه بنفس الطريقة التي سلكها معاوية.

حدث أن علياً سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام من اشتراكوا في
واقعة (صفن) فقال لهم :

«إني أكره أن تكونوا سبباً في ، ولكنكم لو وصفتم أعملاً لهم وذكراً لهم
لهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم
لهم اللهم احقن دعائنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهددهم من
ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوی عن الغي والغلوان من طبع به .

فأين هذا من فعل معاوية حين كان يأمر بأن يسب على فوق المثابر ، ويأتي من الأفعال ما أشرنا إلى بعضه في الفصل الذي عنوانه «الأحاديث

التبوية وقوتها الدعائية » ، وفي ذلك الفصل ذكرنا بعض الأحاديث التي زيفها معاوية على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ومنها : مارواه الزهرى أن عروة بن الزبير حدثه فقال :

حدثنى عائشة قالت : كنت عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أقبل العباس وعلي ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يا عائشة إن هذين يخوتان على غير ملئ » ولا شك أن هذا من الأحاديث الم موضوعة وليس له أدنى قسط من الصدق .

ويدلنا كل ذلك على صحة ما قلناه من أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام . وأما (الدعاية) . والدعاية السوداء لا يبيضها — فقد كانت وسيلة معاوية .

الدعاية ضد على

وبغض النظر عن الأسلوب الذى اتبعها معاوية فى نشر الدعاية السببية حسول على ومنها أسلوب الأحاديث الم موضوعة أو الكاذبة ، ومنها أسلوب تفسير آيات القرآن تفسيرا يسىء إلى سمعة على ، وقد أشرنا إلى أمثلة من ذلك في الفصل الذى عنوانه (الأحاديث التبوية وقوتها الدعائية) ، نقول بصرف النظر عن هذه الأسلوبات الذى اتبعها معاوية فى محاربة على ننظر فى كتب التاريخ فنجد أن معاوية أشاع عن الإمام صفات غير حقيقة وأخذه بعيوب ليست فيه ، ومنها :

١ - أشاع معاوية عن على أنه رجل ذو دعابة . وهى صفة أراد بها معاوية أن يقلل من هيبة الإمام فى النفس ، لأن مثل على لا يصبح أن يكون كذلك ، وإنما نظر إليه حزبه من كبار الصحابة نظرة استخفاف ، وهم قوم درجوا على الجد لا الهزل ، وبلغ ذلك علىاً فقال :

عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن في دعابة ، وأنى أمرت تلعابة ، لقد قال باطلأ ، ونطق آثما . أما وشر القول الكذب ، وإنما ليقول فيكتاب ، وبعد فيختلف ، ويسأل فيختلف ، وينهون العهد ، ويقطع الأهل ، أما

والله إني لمنعني من اللعب ذكر الموت . وإنك لمنعني من قول الحق
نسوان الآخرة .

٢ — كما أشاع معاوية عن الإمام على أنه قليل الدهاء ، فكان الإمام
يرد عليه بقوله : والله ما معاوية بأدهى مني . ولكنه يخدر ويهجر . ولو لا
كراهيتي الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن لا رأى من لا يطاع .

وكان معاوية ينخر بذكر الخصال التي استعان بها على الإمام فيقول عنه :
إنه كان لا يكتم سراً . وكنت كثيماً لثري وإنك كان يظل في مكانته
حتى يفاجئه الأمر وكنت أبادر إلى ذلك . وكان في أخبيث جند وأشدّهم
أخلاقاً . وكنت في أطوع جند وكنت أحب إلى قريش منه فلت ماشت ،

٣ — وكان معاوية يشيع عن على أنه رجل لا علم له بالحرب وفنون
الحرب يرغم أنه رجل شجاع وفارس فل .

٤ — وكان معاوية يشيع عن الإمام أنه رجل لا يصلح للخلافة . وكان
يتشهد بتول عمرو بن العاص .. لا يصلح للخلافة إلا رجل له ضرائب
بأكمل بأحدهما ويطعم الناس بالآخر ، وربما كانت هذه نظرية عثمان بن عفان
قبل أن تكون نظرية معاوية أو ابن العاص . ولذلك بدل هؤلاء الثلاثة
كثيراً من المال للأتباع والأعوان . وكانوا يقربون إليهم أبناء الصحابة
ويبالغون في إكرامهم ويوفرون لهم أرغد العيش .

٥ — وكان معاوية يشيع عن الإمام بأنه رجل لا يعرف رجاله معرفة
جيدة . أما معاوية فكان على العكس من ذلك يحاول أن يدرسهم . وكان
يبعث إليهم بالرسائل من عنده . وكان يقول للرسائل ، حدثوا أصحابي بما يرضيهم
وأجيروهم إلى ما يتحقق لهم كل ما يرغبون فيه أما على فكان لا يحمل أحداً
من أصحابه في الحق ولا يشرى غضب الله برضاء الأصدقاء .

٦ — أشاع معاوية عن الإمام على أنه قليل العلم بأخلاق الرعية . أما هو

فعلى العكس من ذلك يزعم لنفسه أنه أتقن درس الرعية ، وكان يصفها بقوله :

« إنهم أتباع كل ناعق ، وأنهم إذا اجتمعوا أضروا ، وإذا تفرقوا نفعوا لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنتهم . فاتفع الناس بهم » .

وزعم معاوية أن الذي أعاده على دراسة الناس وأخلاقهم إلى هذا المخدود هم العيون والأرصاد ، وهم الجوايسين بلغة العصر الحاضر » يبعث بهم إلى البلاد فيأتونه بأخبار أهلها جميعاً ، فيسوقهم على النحو الذي يرضيهم .

وبفضل هؤلاء الجوايسين كذلك كان معاوية يعرف بختار الرجال القادرين على خلق القلاقل وصنع المكائد وإيجاد الفتن في بلاد الحجاز وال العراق حيث يقيم على وكيبار الصحابة ، ويحب هؤلاء في الحبى ، إلى الشام وترك الإمام على بن أبي طالب ، وقد كان في استطاعة الإمام أن يجرد سيفه ، ويعمل إلى قتل هؤلاء — ومعظمهم من الخوارج الذين يزعمون الأشعث بن قيس — ولكنهم لم يفعل ذلك ، ولو فعل لأمن على نفسه من شرور كثيرة .

٧ — كما اعتمد معاوية في دعائمه ضد الإمام كذلك على الطرق المسرحية ، فما أن سمع بقتل عثمان حتى يبعث إلى المدينة من أذى له بقىصيه — أى بقىص ، عثمان وعليه دمه ، وامر الرسول فحمل القىص على علم ووصل به إلى معاوية ففرشه على الأرض ، وجمع أصحابه ، وجلسوا يبكون على عثمان ويقولون : على بن أبي طالب هو القاتل .

٨ — والذي لا بد من ذكره كذلك أن معاوية استغل في دعائمه هذه جهل الرعية في زمانه ، وقد كان العلم في الشام — حيث الأعوان الملتدون بمعاوية — أقل من العلم في الحجاز حيث كبار الصحابة وأبناء الصحابة الذين تألف منهم حزب علي . واستمع إلى المسعودي إذ يقول :

وبلغ من إحكام معاوية للسياسة (يريد الدعاية) وإتقانه لها واجتذاب قلوب خواصه وأحواذه أن رجلا من أهل السكوفة دخل بغيره إلى دمشق، فتعلق به رجل من أهلها وقال : هذه ناقتي أخذت مني ، فارتفع أمرها إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلا يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية للدمشقي على الكوف وأمره بتسليم الناقاة إليه . فقال الكوف : أصلحك الله أنها الأمير ، إنه جمل وليس بناقة ، فقام معاوية : هذا حكم قد مضى ، ثم دس معاوية إلى الكوفي بعد تفرق الجماعة من أحضره إليه ، وسألة معاوية عن ثمن الجمل ودفعه إليه ، وبر به وقال له : أبلغ علينا أن أقابله بعنة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقاة والجمل ^(١) .

واستطردنا إلى وصف شيء من الدعاية التي قام بها معاوية ضد على ليدرك الحقيقة التالية وهي :

— أن الدعاية — ولو كانت قاعدة على الباطل في بعض الأحيان — لها من التأثير في النفوس والقدرة على قلب النظم والأوضاع — ما للإعلام يرغم أنه قائم على الحق وعلى الحق وحده قبل أي شيء . وإنها لحقيقة مؤلمة ^٢ ولتكن السكوت عنها يضر بالحق نفسه فإن الساكت على الدعاية لا يقاومها بكل الطرق الممكنة كالساكت على النار تقرب منه شيئاً فشيئاً حتى تشتعل بشيشه وتأكله .

صحيح أن من أمضى الأسلحة في مقاومة الدعاية هو الإعلام ، والإعلام هو القادر على إسكات الدعاية ، وذلك بالكشف عنها من الكلب والربيع عن الحقائق والبعد عن الصحة ومخالفة الواقع ، ولكن الإعلام في هذه الحالة لابد من أن يبذل من الجهد السخيف أضعاف ما تبذله الدعاية ، وبغير ذلك تكون الغلبة للأخريرة في النهاية ^٣ .

(١) عبد الطيف حمزة : الإعلام والدعاية ص ١٧٦ نشر دار الفكر العربي . نقل عن مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٧٢ — المطبعة البهية .

وهذا هو الموقف الخرج الذي وقفه الإمام على من داهية الشام
معاوية ابن أبي سفيان .

لقد كان الإمام محوطاً بقوم من أصحابه يعرفون أن لهم حقاً في مناقشة
الحساب في كل شيء ، وكانوا قلماً يطعنونه في شيء ، في حين أن
معاوية كان محوطاً بقوم من أتباعه يبلغ من أمر طاعتهم له أن صلوا بهم
عند مسيرته إلى (صفين) صلاة الجمعة يوم الأربعاء .

(ثم يحمد الله)

الخاتمة

بقلم الدكتور إبراهيم إمام
أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة

عندما تفضل أستاذنا الراحل العالم العظيم الدكتور عبد اللطيف حمزة — رحمة الله وأسكنه فسيح جناته — بإعطائي مسودة هذا الكتاب «الإعلام في صدر الإسلام» لكي أطلع عليها ، كما كان يفعل داثعاً معنى في كل كتبه ، لم يدر بخلده أن هذه الدرة الثمينة سوف تكون آخر بحوثه العلمية القيمة التي أربت على المائتين كتاباً وبعضاً .

ومع ذلك ، فإن قارئه لهذا الكتاب يشعر شعوراً غريباً بأن مؤلفه العظيم يكتب وكأنه يصلح ، وينسى العبارات وكأنه يتبع ، وبتواضع المؤمن العالم يقول — رحمة الله — أنه كان يهيب الخوض في هذا الموضوع ، وأنه تردد كثيراً قبل الإقدام عليه .

هذا ، مع أن أستاذنا الراحل كان مؤهلاً حقاً تمام التأهيل للبحث في هذا الموضوع الجليل ، ويكفي أنه شارك بالبحث في الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما أسهם في الدراسات الإعلامية بالإعلامية بأكثر من أربعين بحثاً قياماً ، منها ما يعد بحق خير ما كتب باللغة العربية في فنون الدعاية والإعلام حتى الآن .

والواقع أن كتاب «الإعلام في صدر الإسلام» هو افتتاحية سلسلة جديدة من الكتب ، وضع أستاذنا الراحل خطتها بإحكام ، على أساس أن الثقافة الإسلامية تختوي على كنوز من فنون الدعوة والإعلام والدعاية ، تبدأ منذ أخذ الرسول — عليه الصلاة والسلام — يدعو للدين الحنيف سراً ، إلى أن انفتحت الدعوة ش kakها العانى ، ثم مرحلة الاضطهاد ، ومنها إلى

المجراة حتى مرحلة الاستقرار في المدينة ، التي شهدت ذروة الدعوة المقدسة .

ويفرق المغفور له الدكتور عبد الطيف حمزة بين الدعوة والاعلام والدعایة فيقول أن اصطلاح « الدعوة » مقصور على جهود الرسول - عليه الصلاة والسلام - في نشر الرسالة كما بینا من قبل ، أما كلمة « الاعلام » فتخصص بأعمال الخلفاء الراشدين في هذا المضمار ، ولاشك أن « الاعلام » هنا يقصد به التفسير والتثوير والشرح القائم على فكر سليم ، وضمير حي ، وأصول أخلاقية متبعة ، في حين أن كلمة « دعایة » تنطبق على أوجه النشاط السياسي التي تعددت بعد تكوين الدولة الاسلامية الكبرى ، وهذا نجد كثوزا من المعرفة والفنون الدعائية في عصور الامويين والعباسيين والفاطميين ، فضلا عن الدعایة المدروسة المتقنة عند الشيعة والقراصنة وغيرهم .

وما من شك في أن كثوز الدعایة في الحضارة الاسلامية ، لم تجد بعد من يخلوها ويزيل عنها ركام النسيان الذي ران عليها عبر القرون . صحيح أن المستشرقين وغيرهم من الكتاب الغربيين قد قاموا بجهود متعددة الأهداف ، ومتعددة الأغراض ، للدراسة الفكر السياسي الاسلامي وفنون الدعایة ، وبخاصة عند الشيعة وغيرهم ، إلا أن هذه الجهود كان يخلوها التحيز أحيانا ، والهوى أحيانا أخرى . وقد كان أستاذنا - رحمة الله - يتساءل : وحتى هؤلاء الذين يقومون بالبحث العلمي لوجه الله والحقيقة ، هؤلا المستشرقون والأجانب ، هل نتركهم يفكرون لنا ؟ وهل نرضى أن نظل مكتوف الأيدي ، ننظر في سلبية إلى إنتاج الأجانب الفكرى دون أن نبذل أى جهد من جانبنا ؟

ويتحمس مؤلفنا - الراحل - فيقدم اقتراحا يقول فيه : « فإذا كان لي أن أقترح شيئا على الجامعات والمعاهد ومراکز البحوث في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الاسلامي ، فإني أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم ، وأعني به مشروع « التاريخ للدعایة والاعلام في الاسلام »

وخلد المجهلة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً، أو فكراً فكراً، أو مذهبها مذهبها، في النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعات غنية من الكتب الإسلامية، تصبح كل واحدة منها بمثابة رائد من الروايد الذي تصب في نهر الإعلام».

وقد كان يخلو لأستاذنا الراحل أن يتحدث عن مؤامرة الصمت التي ابتلى بها العالم الإسلامي في تاريخه وحضارته، فقارئه كتب التاريخ، ودوائر المعارف الأجنبية، يجد الكثير عن الفكر اليوناني والمعصور الوسطي المسيحية، وعصر النهضة، والمعصور الحديثة مرتبة ترتيباً زمنياً، ولكن لا يجد شيئاً عن الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، رغم ما أعلنه بعض كبار المفكرين الغربيين من اعتراف بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية الحديثة.

ومع أن الجوانب التاريخية والسياسية والأدبية من الحضارة الإسلامية قد حظيت ببعض اهتمام الباحثين، كما ظفرت الدراسات الدينية بعنية ملموسة، إلا أن الجوانب الإعلامية والدعائية، لم تكن موضوع بحث علمي رغم ثراتها وخصوصيتها وتنوع فنونها على مر العصور الإسلامية.

ولا أريد أن يفهم القارئ أن مؤلفنا — رحمة الله — كان لا يختلف بالدراسات الأجنبية أو أنه كان معادياً لها، لأنه كان على — التقى — من ذلك — مختلفاً بها مقدراً لجهودها، غير أنه كان يفرق دائماً بين الغزو الفكري لحضارتنا العربية — وهو مالم يكن يقره أبداً — وبين التعاون العلمي، وتبادل المعرفة، وهذا ما كان يشجعه ويرؤيه كل التأييد.

وروب سائل يقول: ولكن ألم تزدهر الحضارة الإسلامية قبل ظهور أجهزة الإعلام الحديثة من صحفة وإذاعة وتلفزيون وسينما، وغيرها من فنون الإعلام المختلفة؟ فهل نفهم على حضارةنا الإسلامية، تلك المفاهيم الحديثة، التي لم تكن جزءاً من صلب كيانها؟

الحقيقة أن هناك على جديداً يقال له «علم الاتصال بالجهاز» وهو (م ١٧ — الإعلام في مصدر الإسلام)

فرع من دراسة الاتصال الإنساني ، على به العلماء منذ ظهور الدول الشمولية والدكتاتورية الحديثة ، كالفاشية والنازية وغيرها ، وما كان من أثر قوى لزعماء وأجهزة الدعاية على سائر الناس ، وكانت ذروة ذلك كله في إنشاء وزارة الدعاية الإنسانية تولى لها جوبيل لأول مرة في التاريخ .

وقد توجهت عناية العلماء والباحثين إلى دراسة الاتصال وفنونه المختلفة ، مبتداة بالاتصال الطبيعي عن طريق المحادثة الشخصية والاتصال المباشر وجهها لوجه ، ثم الاتصال الجماعي الذي يظهر في الخطابة السياسية والدينية ، والتجمعات المختلفة التي يلتقي فيها القادة بأفراد الشعب من الجماهير ، إلى أن تنهي البراسة بالاتصال الجماهيري أو الاتصال الصناعي ، حيث لا يتم لقاء بين المصدر والجماهير مباشرة وإنما تنقل المادة الإعلامية من خلال صحيفة مطبوعة ، أو كلمة مداعنة ، أو صورة مرئية على شاشة التلفزيون الصغيرة ، أو شاشة السينما الكبيرة .

ولذا كانت الحضارة الإسلامية لم تشهد هذا النوع الأخير من الاتصال الصناعي ، فقد ازدهرت فيها طرق الاتصال الشخصي والجمعي ازدهاراً شديداً ، فالقصائد الشعرية ، والنسر الفن الرائع ، والخطب السياسية والدينية والرسائل البلاغية ، وحلقات الفقهاء والدعاة ، وفنون النداء والمنادين ، وأسواق الأدب والبلاغة ، والندوات على اختلاف أنواعها ، فضلاً عن أوجه النشاط الدبلوماسي التي وضع أساسها الأول رسولنا الكريم ﷺ بأصولها الرائعة ، التي أخذتها عذا الغربيون فيما بعد ، مع تطويرها وفقاً لما لديهم وأخلاقهم ومساهماتهم ، كل هذه الفنون الاتصالية . وغيرها من الكتابات الممتازة التي ازدهرت بها الحضارة الإسلامية على أنهاها المختلفة ، وفرقها الفكرية والدينية المتعددة ، تصلح أساساً طيباً للدراسة العلمية الجادة ، وهذا ما أراده أستاذنا الراحل الكريم :

ولكن بيت القصيد في الدراسات الإعلامية يكمن في الأبعاد النفسية والاجتماعية لعمليات الاتصال بوجه عام والاتصال الجماهيري بوجه خاص ، كما تشمل تلك الدراسات بحث العلاقة الوثيقة بين النظم السياسية والاجتماعية

من جهة ، والنظم الإعلامية من جهة أخرى . وهذه هي الدراسات التي اهتم بها الباحثون في العالم العربي ، وأراد — أستاذنا الراحل — أن ينحو نحوها في العالم الإسلامي ، وذلك تأصيلاً لهذه الثقافة الإعلامية الجديدة ، وبعثاً عن جذورها وأصولها الراسخة في حضارتنا ، وقد وضبع العالم الراحل تلك المبنية الأولى في صرح البناء ، فكان ذلك الرائد الأول في هذا المضمار ، وإن خير ما يمكن أن نقوم به لاحياء ذكرى فقييدنا العظيم هو مواصلة البحث والدرس في هذا الميدان ، وهذا ما فعلته كريمه الفاضلة السيدة كريمان حمزة ، وما سوف يفعله بإذن الله تلاميذه وعارفو فضله ، رحمة الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

دكتور
إبراهيم إدام

الفهرس

الصفحة

تقديم : بقلم الدكتور عبد الحليم محمود	٣
الإهداء	٩
مقدمة	١١
هذا الكتاب	١٦

صور الاتصال والاعلام عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام

الفصل الأول : الاتصال بالجماهير — بعض صوره في الجاهلية	٢٢
فاما الاعلام	٢٣
القصيدة الشعرية ٢٦ — الخطبة والخطباء ٢٨ — المنشادة ٢٨	
الأعياد ٢٩ — عيد الشباب ٢٩ — الأسواق ٢٩ — سوق دومة ٣٠	
سوق المشقر ٣٠ — سوق هجر ٣١ — سوق عكاظ ٣١ — سوق	
مجنة ٣٤ — سوق ذي الحجاز ٣٤ — المربيدة ٣٤ — الندوة ٣٥	
إشعال النار في رموس الجبال ٣٥ — المنشادة ٣٦	

الباب الأول

أشهر صور الاعلام في صدر الاسلام

تمهيد	٤٠
أسلوب العلاقات الدولية	٤١
الفصل الأول : القرآن أكبر وسائل الاعلام في الإسلام	٤٤
الفصل الثاني : الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية	٥٩
الفصل الثالث : القدوة الحسنة	٦٦
القدوة الحسنة وصاحب الدعوة	٦٨

صفحة

محمد المثل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين	
المنافقين بالمدينة	٧٠
الفصل الرابع : الاتصال الشخصي والجماهيري وأثره في نشر الدين	
وجمع كلمة المسلمين	٧٥
لقاء الرسول برجال من الخزرج في البيعة الأولى	٧٧
الفصل الخامس : القصص غير القرآني	٨٢
الفصل السادس : موسم الحجج من أعظم وسائل الدعوة	٨٦
الفصل السابع : العلاقات الإنسانية في صدر الإسلام	٩٣

الباب الثاني

الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها

تهييد : الدعوة والإعلام والدعائية في الإسلام	١٠٤
الفصل الأول : المرحلة السرية	١١٣
الفصل الثاني: المرحلة العلنية	١١٨
عرض الرسول نفسه على القبائل العربية	١٢٠
الفصل الثالث : مرحلة الاضطهاد الديني	١٢٤
الفصل الرابع : مرحلة الهجرة — الهجرة إلى الحبشة	١٢٨
الفصل الخامس : مرحلة الاستقرار بالمدينة	١٣٤
الأذان وإقامة صلاة الجمعة	١٣٦
إقامة العلاقات الودية مع اليهود	١٣٨
العلاقات الودية مع القبائل المجاورة	١٤٠
الاحتياطيات الإعلامية وال الحرب	١٤١
بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك	١٤٧
استقبال الرسول للوفود	١٥١
حركة المحس وأثرها في نشر الدعوة	١٥٤
الفصل السادس : بعض الغزوات النبوية من الزاوية الإعلامية	١٦٠

الصفحة

غزوة بدر ١٦١ — غزوة أحد ١٦١ — غزوة الأحزاب	١٦١
أو غزوة الخندق ١٦٤ — فتح مكة ١٦٥ — معركة	١٦٤
حنين ١٦٦ — بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتها	١٦٦
الإعلانية	١٦٨
الفصل السابع : الخطبة النبوية	١٦٩
المجالات العامة للخطب التي أثرت عن النبي	١٧١
مجال الأخلاق	١٧٢
خطبته في معنى الإخلاص	١٧٢
النبي يثني على أصحابه	١٧٣
حججة الوداع	١٧٥
الفصل الثامن : الدعاية الشعرية في عهد الرسول	١٨١

الباب الثالث

الدعاية والإعلام في عهد الخلفاء الراشدين

تمهيد	١٩٣
الحكومة الديمقراتية ١٩٤ — ومنها الحكومة الأتوغرافية ١٩٤	١٩٤
ومنها الحكومة الثيوقراطية ١٩٥ — ومنها الحكومة الأولى بجاركية ١٩٥	١٩٥
الفصل الأول : الإعلام في عهد أبي بكر	١٩٩
يوم السقيفة	١٩٩
حركة الردة	٢٠٣
بعثة أسامة بن زيد	٢٠٦
البعوث إلى العراق والشام	٢٠٧
جمع القرآن الكريم	٢٠٩
الفصل الثاني : الإعلام في عهد الخليفة عمر	٢١٢
عمر والسياسة الإعلامية	٢١٤
أولاً — في الفتوح	٢١٤

الصفحة

٢١٥	ثانياً - سياسة عمر مع كبار الصحابة
٢١٦	ثالثاً - المنس
٢١٨	رابعاً - الرسائل
٢١٩	نموذج من رسائله إلى القضاء
٢٢٠	خامساً - زيارات عمر للأقصى والأقاليم
٢٢٣	سادساً - القدوة الحسنة
٢٢٧	الفصل الثالث : الدعاية والإعلام في عهد عثمان
٢٢٨	صورة السلطان في رأي عثمان
٢٣٠	خلافة عثمان من الزاوية الإعلامية
٢٣٠	الحركة الانتخابية
٢٣١	حكم عثمان
٢٣٢	الفتوح في عهد عثمان
٢٣٣	نولية عثمان أقرباءه على الأقصى
٢٣٤	فاما المكوفة ٢٣٣ - وأما الشام ٢٣٤ - وأما في مصر ٢٣٤
٢٣٤	قوة المعارضة

٢٣٩	الفصل الرابع : الدعاية والإعلام في عهد علي
٢٤٠	موقف علي من الفتنة
٢٤٢	الثورة تباع عليها
٢٤٣	حزبان متعارضان
٢٤٥	الدعاية والإعلام في عهد علي
٢٤٧	خطب علي
٢٤٩	الدعایات ضد علي
٢٥٠	المخاتمة بقول الدكتور إبراهيم إمام
٢٦١	فهرس الموضوعات

دار الفكر العربي

الادارة :

١١ ش جوارحني - القاهرة

ص.ب. ١٣٠ ت ٣٩٩٥٥٩٣

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا

الفرع الرئيسي :

٤٦ ش جوارحني - القاهرة

ت ٣٩٣٠١٦٧

فرع مدينة نصر :

٩٤ ش عباس العقاد / المقطعة

الادسية - ت ٤٦١٩٠٤٩

فرع الدقى :

٢٧ ش عبد العظيم راشد / متفرع

من ش. الدكتور شاهين - العجوزة

ت ٧١٧٤٩٨

مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت

ص.ب. ٦٠٦ / ٢٢٠٧١

٥٧١٨٥٧٦ ٥٧٤٨١٦٥

To: www.al-mostafa.com